

المؤسسة الوطنية
للفنون المطبعية

الطاهر وطار

العشق والموت في الزمن الحراشي

رواية



المؤسسة الوطنية
للفنون المطبعية

الطاهر وطار

العشق والموت في الزمن الحراشي



رواية

العشق والموت في الزمن الحراشي

رواية

الطاهر وطار





ISBN 978-614-421-688-0

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb
هذه الطبعة مرخّص لها قانونياً من الناشر
المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

– المقعد الأمامي اريح.

– هيا تفضلي من هنا.

– في الحق يا جميلة، هذا مكانك أنت.

– الاندروفير تهتز من الخلف بعنف.

لم تجب جميلة السائق وبعض زميلاتها، ولم تتنازل للإلحاح الصادق، وتهالكت في الخلف.

ألقت بنفسها، أسندت ظهرها إلى اللوحات اليابسة، وتمنت لو أنها لم تنهض من الفراش إطلاقا.

المغص يبدأ من السرة وينزل حتى الركبتين، ويتلوى على الخصر، والظهر، ويصعد مع العمود الفقري، حتى الكتفين، حتى الرقبة والرأس.

(اللعنة عليها نسيتها تماما، تقدمت ثلاثة أيام هذه المرة. كان المفروض أن لا تحضر المرأة العادات الشهرية، إلا بعد الزواج. بعد أن تصبح المرأة امرأة حقيقة... كان المفروض. أشياء كثيرة كان المفروض، أن تكون ولم تكن، أو أن لا تكون فكانت).

ودت لو أنها تشعل سيجارة. اشتهتها.

(مع هذا البرد القارس، وهذه الآلام اللعينة، تكون جد لذيذة...).

فتحت الحقيبة، تتأكد من أنها لم تصحب معها علبة السجائر والوقيد، وسرعان ما أغلقتها.

داهمتها رائحة التبغ الأسود، تبغها المفضل، تبغها العزيز، منبعثة من سيجارة أوقدها السائق.

أغمضت عينيها.

(عندما كنت جنينا في بطن أمي، لم أكن أفكر في شيء، ولا أحتاج لشيء أيضا. هذا مؤكد. آه ما أروع ذلك الزمن...)

تحركت السيارة، الصمت مخيم. البنات هذا الصباح ساكنات. لكأن الملل يستولي عليهن. البرد شديد. الجليد يغطي كل شيء. القرميد أبيض. أوراق الشجرات المتباعدة فقدت لونها الطبيعي، تنازلت عنه. الأرض شهباء.

ثلاجة كبيرة أصبحت الدنيا هذا اليوم.

انطلقت الاندروفير غير مبالية، بالحفر، وأكوام التراب، المنبثة في الطريق غير المعبدة. شعرت جميلة بالألم يقوى. أحست بسكاكين تمزق بطنها. فتحت الحقيبة، أطلت مرة ثانية.

«إنها هنا، ليس من عادتي نسيانها لكن من يدري». ساعدنا يا بلقاسم.

– لقد خرجنا إلى الطريق المعبدة. رجوناك أن تركبي في المقدمة لكنك هربت. المقعد الأمامي في الحق، مقعدك أنت، ما دمت عندنا يا جميلة.

– جميلة لا تهرب يا بلقاسم. فقط، يجب أن لا يكون هناك احتكار. كلنا أخوات هنا.

– لكنك تعبانة.

– لا. من قال ذلك؟ إنني على أحسن ما يرام. حالي لا تختلف عن الأمس وقبل الأمس، وعن كل الأيام السابقة، فلماذا أنا تعبة؟

– هكذا خيل لي. عندما لمحت وجهك مع النور الكهربائي، أحسست بأنك في غير حالتك الطبيعية. ولربما نبرة التوجع في صوتك هي التي أوحت لي بذلك.

– إنك تهتم بجميلة أكثر مما ينبغي.

قالت فاطنة، ضاحكة. ضحك بلقاسم بدوره، ثم تنهد. حاولت جميلة أن تضحك.

– أنا لن أخرج مرة أخرى في فوج، تكون جميلة فيه.

– هذه غيرة.

– لا. حسد.

– وعين الحسود...

امتلأت السيارة بالضحكات، عندما علق بلقاسم مندفعا. ضحك معهن وواصل:

– كل الناس هنا يهتمون بجميلة. أنتن بدوركن تولينها اهتمامكن البالغ.. تعالي من هنا. تفضلي. تدللي..

كان يأتي بحركات من يديه وعينيه في الظلمة، وكن يضحكن ملء أعماقهن.

– حتى سيدنا الكبير، يهتم بها. جميلة طيبة. و...

– وجميلة، أكثر من اللازم. قلها ولا تمت بها في قلبك. لو يسمعك خطيبها...

– إحذر إحذر. ما هذا الشبح الأسود المنتصب في الطريق. باسم الله الرحمن الرحيم.

– آي آي. انتبه.

تعالت الصرخات في الخلف وفي المقدمة، عندما اصطدمت الأجسام ببعضها وباللوحات اليابسة، نتيجة الضغط المفاجئ على الحباسات.

– يا لمصيبتي. من أين خرج. لا حول ولا قوة إلا بالله...

قال بلقاسم، وهو يضغط على أسنانه، ويتتبع صفير العجلات المنزلقة فوق الجليد، ويتأكد من أن الشبح الأسود الذي يأبى التحرك من مكانه لن يرتطم بالسيارة ويثب إلى الواجهة الزجاجية. السرعة ليست عالية، والرجل انساقت إلى الحباس في الوقت المناسب، لكن من يدري. السيارة ثقيلة، والطريق مكسوة بقشرة سميكة من الجليد، ودعوات الشر كثيرة، ثم إن هذا الضحك من الصباح ليس فأل خير. لحسن الحظ أنني لست وحدي.

إستطاعت السيارة أن تتوقف في الوقت المناسب، لم يكن يفصل بلقاسم بينها وبين الشبح المنتصب سوى عشرات السنتيمترات. تنهد بلقاسم من أعماقه، وضرب صدره بيده.

– إنه هو يا جميلة.

قالت فاطنة، وهي تحدق مشدوهة، من خلال الزجاج، المندى من الداخل والخارج، في الهيكل المنتصب وسط الطريق: الذراعان مصلوبتان. الصدر بارز. الرأس مرفوع. القدمان متلاصقان.

– من هو؟

– اللاز!

– آه. المسكين.

– ردت جميلة، وهي تضغط بكلتا يديها على خصرها، محاولة أن تجمع كليتيهما بين أصابع يديها. لقد كان الألم لا يزال يقوى عليها ويشتد.

– ماذا يفعل المسكين هاهنا في هذا الطقس وفي هذا الوقت؟

– هذه أول مرة أصادفه هكذا. هنا. كان ممكنا أن يموت. عفوك يا سيدي يا صاحب البرهان القاطع.

– لم نره إلا عاقلا. أعقل مجنون رأيته في حياتي.

– اللاز مجنون؟ هذا مجنون! لا يتعرض لأحد بسوء أو أذى. لا يطلب أكلا أو شربا، أو تبغا. قانع بما يصادفه، وبما قدر الله له. المسكين. اللاز ليس مجنونا أبدا سيدنا أعقل الأسياد إطلاقا. سرحنا نواصل الطريق ببركتك يا سيدنا.

أضاف السائق وهو يطل برأسه من النافذة، ففاجأه اللاز:

– ما يبقى في الواد غير حجاره.

** * **

ما يبقى في الوادي غير حجاره.

قالها وسكت، كأنها مفتاح كل شيء. بل إنها لكذلك، فلا بلقاسم، ولا أحد من أهل القرية، يبيح لنفسه حق الاعتراض على اللاز.

إنه لا يقول منكرا، لا يأمر بشيء، أو ينهي عن شيء. اللاز فقط ينبّه. بواسطة هذا المثل الشعبي الضارب في القدم والذي كاد الناس أن ينسوه، إلى أن الأمور، كل الأمور مهما كانت أهميتها، أو تفاهتها زائلة، وأن هناك سطحا تمر فيه أمور، وقرارا أو عمقا تستقر فيه أمور أخرى. الأمور الثابتة.

عاد مع العائدين في مطلع الاستقلال، يبشّر بزوال وضع، وحلول وضع أخر، وفي حين راح الجميع يغيّرون من حالهم، ويهتمون بأنفسهم، ويشؤونهم، غارقين شيئا فشيئا في متاع الدنيا ولذة الحياة، بقي المسكين، على الهيئة التي عاد بها، رافضا كل الرفض، تغيير البدلة العسكرية التي يرتديها شتاء وصيفا، حتى، عندما، تآكلت، ولم يبق فيها موضع واحد تستطيع الإبرة أن تتثبت به، أصر على عدم انتزاعها مقابل بدلة مدنية.

ذات مرة، وكان الفصل شتاء. الثلج يغطي الأرض والقرميد والشجيرات العارية المنبثة هنا وهناك. الريح تعصف من كل الاتجاهات تحمل معها الزمهرير. المواد الغذائية، خاصة الزيت والسكر، منقطعة. كان الجميع يعتقد أن ساعة الفناء قد حلت، وأن المجاعة والبرد هما اللذان سيقضيان على الناس.

شعر اللاز، أكثر من أي واحد أخر بالبرد. أسنانه تصطك، بقضقضة، تخرج ممتزجة مع أنين متواصل. أنفه الأفطس، أحمر، حتى لكأنه دمل في وجهه. شفتاه الممتلئتان، إزرورقتا، وكأنهما لميت.

طاف بمقاهي البلدة الثلاثة، واقتحمها واحدا واحدا على غير عادته، حيث أنه كان يقتصر على الوقوف في الباب والهتاف بندائه المغالب.

* * *

كان يتأمل كل لابس (قشابية)، أو بالأحرى، يتفحص القشاشيب، وكأنما يبحث عن واحدة معينة، أضاعها منذ زمن قريب.

فهمه الناس. لعلهم فهموه لأول مرة في حياته. لذا راح كل من تستقر عليه عيناه ينزع قشابيته، أو برنسه. لكن اللاز سرعان ما يحوّل بصره بحثا عن ضائعته.

فهموه أكثر. إنه يبحث عن واحدة من ذلكم النوع الذي كان المجاهدون يرتدونه في معظم فصول السنة. داكنة أو باهتة، قصيرة بعض الشيء، وأقل عرضا من العادية. ذات فتحتين تدخل منهما الأيدي إلى جيوب البدلة التي تحتها.

– أبوك زيدان الله يرحمه، كان يلبس واحدة رمادية، مزيقة بالأحمر. طلب أن تصنع له خصيصا، واشترط أن يكون لون الصوف الأحمر طبيعيا.

– مسكين اللاز. الصور لم تمت في ذاكرته. لعل ذلك فقط، ما يعرفه. إنه لا يعيش سوى بمنظور واحد على ما يبدو. لماذا لا نعرضه على الأطباء. في الإمكان أن نطلب إرساله إلى الخارج. أو ليس اللاز مجاهدا وابن شهيد؟

– هذه المرة المليون ربما، التي أسمع فيها منك ومن إخوانك هذا الاقتراح. لكن ألا ترون أن وضعه هكذا أفضل. ربي أراد هذا. أراد أن يكون هكذا. وسكان القرية لن يرضوا به إلا على هذه الحال. إنه يكتسب يوما فيوما القداسة.

– هذه شعوذة. يدفع اللاز المسكين ثمنها دون أن يدري.

– إنك كزيدان أبيك. أعرف أنك لا تؤمن إلا بما قرأت.

عادا إلى الصمت، والتفتا معا إلى الداخل حيث تتواصل الحركة الدؤوبة.

– أغلق عليه الدومينو قلت لك.

– أرشم «ميسته». اللاز يأكل كل شيء.

– واحد خنجلان. أربعة قهوة. واحد زعتر. هات.

– «الدوبل سيس» تموت في يدك ولا بأس. البركة في القليل.

– الخاسر يدفع. عندكم عشرة مشروبات. ستين دورو. استأنفوا اللعب، أو اتركوا لنا الطاولة والمقاعد. الشعب ينتظر من الصباح.

– ما يبقى في الواد غير حجاره.

ساد الصمت المقهى فجأة. ترك الجميع ما في أيديهم، والتفتوا حيث يقف اللاز محدقا في وجه شخص، يرتدي قشابية صوف حمراء.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره. ما يبقى في الوادي غير حجاره.

عجب الناس، لماذا يكرر اللاز النداء ثلاث مرات. هذه أول مرة منذ الاستقلال يفعل ذلك. السيد الكبير لا ينطق عن الهوى.

حمو وحده عرف ذلك. لم يشأ أن يخبر ابن أخيه الواقف إلى جنبه في انتظار أن تتمكن الحافلة من القدوم لتنقله إلى المدينة ليواصل دراسته الجامعية.

لعله أشفق عليه، ولعله يعتقد أنه يعرف مثله، قصة هذا النداء الغريب الذي ألف الناس سماعه في هذا الزمن.

لقد تحدث بحكاية اللاز ثلاث سنوات كاملة، حتى اعتقد بأن الناس يحفظونها عن ظهر قلب. بل حتى شعر بأنهم ملوا. ذلك أن حكايات الماضي كالجراح العميقة لا تبقى آثارها إلا في القلوب التي عانتها.

حتى الذين عرفوا مريانة، وشهدوا كل طفولة اللاز وشبابه، وعانوا منهما الأمرين. بدأو يتشككون في أصل اللاز ومنبته.

أخذوا يميلون إلى تصديق ما يروج حوله من أقاويل وحكايات.

اللاز تحدث عنه سيدي علي بن الحفصي، وقال: لا يموت ولا يفنى ولا يكذب.

اللاز، قالوا: كل شعرة من شعراته مباركة وزكية.

خرج سيدي عبد القادر على أمه في الليل. أيقظها ثم أمرها بالنوم.

فعل ذك ثلاث مرات، ثم هتف فيها: أنت أمي وأم جميع الأولياء والصالحين.

لم يطل بها الوقت حتى ولدته.

* * *

اللاز بقي في بطن أمه عدة قرون. لا. تسع سنين. لا. سبعا. لا. سنة وتسعة أشهر. لا. بضعة أشهر لا غير. ستة أو ثلاثة أو شهرا واحدا.

اللاز ولد أسبوع وليلة.

اللاز ولد كن فيكون.

قال لها سيدي عبد القادر، أنت أمي ودخل بطنها وخرج رضيعا يبتسم.

«أمر الدم الذي في صدرها أن يتحول إلى حليب فصار». رضع وخرج يسجل أحوال الدنيا.

اللاز سيدعو عند اللزوم دعاءه المنتظر، فيحدث الأمر المحتوم.

اللاز له سفرة كل ليلة جمعة، وكل ليلة عيد. يسافر سيدنا إلى حيث لا يعلم أحد. يترك جثته في منعرج ما من منعرجات القرية: ينتصب، مصلويا مبحلقا في لاشيء، مرفوع الرأس بارز الصدر، شامخ الأنف، ضاما رجليه.

اللاز يوهم الناس بأنه، هنا، أمامهم، في هذه الدنيا الغرارة، ثم يسافر.

في الغرب، في غرب الغرب تماما، حيث لا صلة هنالك بهذا العالم الفاني.

هنالك حيث الظلمة هي الأصل. تقام الحفلات النورانية.

يلتف بسيدنا حشد كبير من قوم لا يشبهوننا، ولا يضطرون لاستعمال اللغة، أو حتى إلى الالتفات إلى بعضهم. يتوسطهم في الهيئة التي خرج بها من بطن أمه. هيئة نورانية محضة. يتنور غرب الغرب، ويزول الدجى الأبدي. يختفي.

إذ ذاك. ينهض الجميع. يتعرى الجميع. ينطلقون في الرقص، مثنى وفرادى. متدفئين بالنور.

سيدنا يبتسم ويشع. هنالك فقط، يسمح سيدنا لنفسه بالابتسام.

بعد زمن لا حصر لمداه. يهتف فيهم: ما يبقى في الوادي غير حجاره. ما يبقى في الظلمة غير الظلمة. ثم يعود إلى جسده. إلينا نحن. التعساء الأشقياء.

اللاز. ليس هذا وذاك.

اللاز. شهيد.

داهمته، وجماعة من الثوار، من بينهم زيدان، سبع طائرات ملأى بالحقد والموت. ظلت تتناوب على قنبلتهم يوما كاملا. لم يبق من أجسادهم قطعة لحم واحدة، أو حتى ذرة من عظم.

اختلط لحمهم وعظمهم ودمهم بالتراب حتى صار طينا أحمر.

إذ ذاك سقطت قنابل النابالم. التهب كل شيء. تشكّل جسم. تكوّر وتكوّر واختفى. كان الجسم نورانيا مشعا، لا تستطيع العين التحديق فيه، كذلك لم يستطع أحد حصر الاتجاه الذي أخذوه أو المكان الذي اختفى فيه.

اللاز. إثر ذلك ظهر.

اللاز. ليس سوى جثة، تسكنها أرواح جميع الشهداء. في كل ثانية تحل بهذا الجسم روح.

إننا مراقبون. والله ثم والله، لنحن تحت الرقابة الصارمة، الدائمة.

اللاز لا مجنون ولا مخبول، ولا مريض ولا جاهل لما يجري حوله. إنه أكثرنا سلامة عقل وصحة جسم.

الشهداء يراقبوننا، فردا فردا. كل واحد يراقب أقاربه فإياكم ثم إياكم.

اللاز. حياته في منتهى البساطة. ولكن في منتهى التدبير أيضا.

يتغدى في بيت. يتعشى في بيت. ينام في بيت. يا سعد من قصد اللاز داره ووجد بابها مفتوحا. ولقد بلغ الأمر بكثير من الرجال، حد الخروج من منازلهم ليلة يقصدها اللاز لينام فيها، سيدا منفردا.

كثير من الأطفال يحملون ملامح اللاز.

يدخل المنزل هاتفا بندائه الخالد، ثم يقصد المطبخ. توضع المائدة أمامه يأكل ويشرب، يتناول الشاي أو القهوة أو أي مشروب يوضع أمامه وينهض. يفتح الباب الذي يصادفه. يقصد الفراش الذي يصادفه. يستلقي. يستسلم لنوم عميق.

يتعاون أهل المنزل على انتزاع ثيابه، فتغسل وتجفف وتنقى من كل ما قد يكون علق بها من قمل أو غير ذلك. تضمخ بالعطر، ثم توضع قربه ليرتديها متى استيقظ.

اللاز لا يعرف وقتا معينا للنوم أو للاستيقاظ.

الزمن عنده واحد. الشمس مجرد كرة من النور الدخيل على الظلمة، تطوف بالكون.

العواتق والبنات الصغيرات، يقلن إنه لا إحساس ولا تميّز له. لكن الأرامل والمطلقات والضرائر يقلن، إن رجولة اللاز تستيقظ عندما يكون في عمق نومه. وإنه أكثر الرجال فحولة.

تموت الأنوثة في المرأة قبل أن تغفو رجولة اللاز.

عندما يعود إلى كوخ أمه. وهذا لا يحدث إلا مرة أو مرتين في الشهر. يجد بعض العجائز هناك

يقمن بخدمته. يوقدن الشموع ويذررن البخور في النار ويحفظن ما يتجمع من مناديل، ومن نقود وجواهر وحلي.

– مرحبا بك سيدنا.

– نورت المقام سيدنا.

– فراشك معدّ سيدنا.

– هل يسمح بالزيارات سيدنا.

– لا. لا تطرحن عليه الموضوع. لا تحرجن سيدنا. فقط كالمعتاد.

أحيانا يحتقرهن، ويمر مباشرة إلى السرير العريض المنتصب في الوسط، أحيانا يزمجر بندائه دون أن يلتفت إليهن متيحا لهن فرصة إطلاق الزغاريد الحارة.

إنهن يفهمنه. في جميع الأحيان والحالات يخيل إليهن أنه قال كلاما بليغا، لا يحتاج إلى جهد كبير لفك رموزه. فهمهنّ له، ينطلق من الحالات الشاذة التي تنطرح عليهن من المريدات والمريدين.

تواترت حكاية الأصوات الغريبة التي تنبعث من الكوخ عندما يكون اللاز هناك نائما. النساء يقلن إنها أصوات رجالية ونسائية، لكنها غير مفهومة. بينما الرجال يقولون إنها أصوات نسائية لا غير. تنم أحيانا عن السرور والرضا أحيانا عن الخناق والسخط، وإن الزغاريد أيضا تنبعث من الكوخ لكنها مخنوقة وكأنها تنبعث من أعماق بئر، أو من داخل مطمورة مغلقة.

في السنوات الأولى من الاستقلال، كان حمو وأبناء أخيه، والربيعي، وبعض الشبان، يشنون من حين لأخر حملات تطهيرية للكوخ، فيطردون العجائز، وكل من يجدونه هناك. لكن مع مرور الزمن وتفرق الأولاد على الثانويات ثم الجامعة أخيرا، ورقاد الربيعي في الفراش في انتظار غير مجدي، لأن يفعل السرطان فعله، ومع تعاظم إيمان الناس بقداسة اللاز، وتكاثرهم يوما بعد يوم. أهمل أمر الكوخ أو بالأحرى، تركت العجائز في شأنهن، يفعلن باللاز ما يشأن، وما تتطلبه مشاكل الناس المتنوعة.

حتى إن حمو، وابن أخيه الأكبر، عندما مرا ذات يوم بالكوخ، وهو يطلى بلون أخضر، من طرف مقاول القرية، ثري الحرب، الذي كانت الثورة قد أصدرت ضده حكما بالإعدام، وتحت إشراف العجائز، لم يعلقا بشيء، واكتفيا بتبادل نظرات تعجب.

طاف كل ذلك بذهن حمو، وهو يشاهد الرجل يقف، ويمتثل بسرعة للأمر الذي أصدره اللاز والذي راح كل من بالمقهى يترجمه:

– اعطه القشابية.

– إنه يطلب القشابية التي تلبسها.

– اللاز بردان.

– اللاز اختار قشابيتك.

– اعطه قشابيتك، وخذ قشابيتي انا.

– اعطه إنك لمحظوظ.

– ليستر المسكين بدنه أخيرا.

– سيدنا لأول مرة يطلب، فسارع لتلبية رغبته. وإلا جمدت في مكانك أو جلبت أذى كبيرا لنفسك ولعائلتك ونعاجك.

وقف الرجل. كان قصير القامة، ضيق المنكبين والصدر، حاجباه عريضان، وجهه كثيف الشعر، شفتاه تلمعان، عيناه السوداوان حادتا النظر زاخرتان بالحيوية.

اضطرب أول الأمر، ثم بادر الى انتزاع قشابيته، ومدها بسرعة وامتنان إلى اللاز، وراح ينظر في حرج إلى سرواله الممزق على ركبتيه، وعلى إليتيه، وإلى سترته الرملية اللون، المرقعة بمئات القطع والخيوط المختلفة الألوان.

لم يبق من المسكين إلا وجهه. حتى وجهه بدا غريبا على جسده. كان مستورا بقشابيته الحمراء، النصف بالية. وكانت حاله تبدو أقرب إلى اليسر، من حال الفقر المدقع الذي يتجلى الآن.

شعر بالبرد، راح يلتفت حوله. كان البعض يعرضون عليه قشابيتهم، لكن لا أحد تجرأ وأقدم على انتزاع قشابيته، وإعطائها له. سارع وبادره وهو يلبسه قشابيته:

– حق ربي وحق ربي. اللاز ابن أخي، وأنا ولي أمره. أنت بردان وتلزمك واحدة.

– لا. اللاز أخونا كلنا.

– حلفت بربي. البس. البس. بصحتك.

أدخل اللاز جسمه الضخم، بصعوبة في القشابية الحمراء. بدا أطول مما كان وأنحف بكثير. تقدم من أحدهم ومد يده إلى العمامة البيضاء التي تغطي نصف رأسه. انتزعها وراح يحتزم بها.

لم يكن وجهه يعبّر عن شيء، لا عن الابتهاج والسرور والرضا، ولا حتى عن الاهتمام بما يفعل. إلا أنه عندما انتهى من ربط الحزام، رفع رأسه إلى فوق، قطب حاجبيه، ثم هتف:

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

قالها ثلاث مرات أيضا. ثم تقدم من صاحب القشابية. انحنى عليه. قبّله في جبهته. مر إلى صاحب العمامة البيضاء، وانحنى أيضا يقبّله، ثم غادر المقهى تاركا الدهشة خلفه.

– ويقولون مجنون! المجانين.

– حاشا لله.

– أمرك وقضاؤك يا ربي يا أحكم الحاكمين.

– من لا يعرفه، يكذب.

– ومن عرف بطولته، وخروجه من الثكنة، مهربا بقوة إلهية خارقة لا يكذب. لا يستغرب أيضا. سيدي محمد بن عوده في الغرب، لم يعرف له أب أو أم. هذه حال أولياء الله الصالحين.

أنسيتم أن سيدي ارغيس، هرب على رأس جبل من سورية إلى الجزائر. وأن في قمته إلى اليوم شجرة تنز بالدم كلما جرحت. لقد تطهرت البلاد بالاستقلال، وعاد زمن البركة. زمن أولياء الله.

– تحول إلى قط أسود ذي عينين حمراوين، وخرج من الثكنة بكل حرية.

– لا. ركب ثورا أسود، ووجد نفسه في الجبل، في حين كان الضابط يحدق فيه باهتا.

– بل نزل من السماء، حصان مسرّج له سبعة أجنحة، امتطاه وطار.

– اللهم انفعنا ببركة اللاز. اللهم اعطنا الزيت والسكر وخفّف عنا البرد.

– اللاز ليس مجنونا وليس حيا وليس إنسيا.

– اللاز لاز صحيح.

– يقال أنه ظهر ليلة الاستقلال في كل قرية وكل مدينة لاز.

– أنا شاهدت بأم عيني، اللاز، اللاز هذا بالذات والصفات في أكثر من مدينة وقرية.

– اللاز. لاز ونصف.

***

ما يبقى في الوادي غير حجاره.

تراجع بلقاسم، عندما فاجأه النداء، عن النزول، وهو يبتسم:

– الشايلله. الشايلله. يا سيدنا اللاز.

– وهل سنبقى هنا.

تساءلت جميلة من الخلف، بصوت مهتز النبرات فبادرها بلقاسم:

– سيدنا سافر. مسافر الآن، إلى غرب الغرب. إلى عوالم الظلمة الأبدية. وهنالك تقام الآن حضرة حوله.

– انزلي يا فاطنة وارجيه أن يبتعد. البرد قتلنا.

– لا يجدي معه رجاء أو طلب. إنه ليس هنا.

نزلت فاطنة، وبقية البنات، عدا جميلة التي سارعت إلى الانهماك في الانشغال بقطع القطن وتسويتها قبل أن تعود زميلاتها.

لم تنتبه إلى أن بلقاسم كان يسترق النظر إليها من خلال فلقة «الباش» الفاصل بين المقدمة والخلف. كانت ستشعر بالإهانة. ذلك أنها تثق فيه وفي كل سكان القرية كثيرا. تعلم أنه يتشهاها، وأنه من حين لأخر يغتنم الفرص ليرشقها ببعض كلمات موحية، لكنها كانت تثق فيه.

لا يدري بلقاسم سر هذا الالتفات التلصصي. يقينا أنه ليس سوى الإشفاق عليها. إنها جميلة المسكينة. مريضة. لو لم تكن مريضة بالفعل، كما أوحى إلي صوتها المشحون بنبرات الألم للوهلة الأولى، لسارعت إلى النزول، ولما سبقها أحد لذلك دون أن تضطر إلى التوسل لأحد. إنها أكثرهن نشاطا واعتدادا بالنفس. إنه الإشفاق لا غير، رغم شعوره المتزايد بأنها تتواجد في قلبه أكثر فأكثر. وأنه كلما شاهدها، أو اقترب منها أو تحدث إليها، أحس بأنها تمتلكه أكثر فأكثر.

السنة الفارطة. في الصيف. هذا الذي انقضى لا غير. قلت إنها امرأة ككل النساء، هجمت عليه بوحشية أملأ منها عيني. أحاول الضغط عليها بكل جوارحي. تغابيت فرشقتها ببسمة خبيثة، إلا أنها – ياويلتي – فتحت في عينيها اللتين لا يدري المرء أهما زرقاوان أم خضراوان. شعرت بالخجل من نفسي. تمنيت لو انشقت الأرض لتبتلعني. وقلت بعد ذلك يا بلقاسم المسكين، «بنات العاصمة، عيونهن مواض»، ولهذا السبب كان ضباط الجيش الاستعماري ينهزمون أمام كل جميلة من الجميلات.

لكن جميلة، هذه، لا يشعر من يحمل لها في قلبه المودة، إلا بضرورة التمادي، معلّقا أمله في أنها ستعذره، وفي أن ذلك يسعدها.

فكّر أن يعتذر لها ثم تراجع. يجب أن لا تعلم أنني اكتشفت أمرها. حتى الحديث على أنها مريضة يجب أن لا أعود إليه. المسكينة. مسكينة «ولية» وغريبة وضيفة. مريضة ولم تشأ أن تتخلف عن زميلاتها وزملائها. تصر على المساهمة في زرع البطاطس. ألحت علي البارحة كثيرا أن أحضر مبكرا، وأقصد بهن الحقل مباشرة، ثم أعود فأحضر زملاءها. وها هي تستعجلنا لمواصلة الطريق. لا أدري ما سر ذلك. أم أنها تريد أن تستبق الذكور في الحقل، حتى تتباهى بأنها متحمسة أكثر منهم إلى العمل اليدوي. ترى هل تتوق إلى رؤية أمها وأبيها وإخوتها أم لا؟ وهل تصبر عنها أمها طيلة هذا الوقت. لقد جاءت مباشرة من الجامعة على ما فهمت.

عاد يتابع محاولة البنات مع اللاز، ساخرا منهن، كيف لم يفهمن ما فهمه سكان القرية كلهم... اللاز في مثل هذه الحالات يكون مسافرا إلى أبعد بعد في هذا الكون. بينما أسندت جميلة رأسها إلى العارضة الخشبية، كأنما تطلب استراحة قصيرة من الألم الذي يعتصرها.. لحسن الحظ أن اللاز أوقفنا، وإلا كنت أجد جرحا كبيرا. إن اليامنة إذا ما علمت بأمري، فلن تتركني إطلاقا، أواصل الطريق الى الحقل فشكرا لك يا اللاز.

تراءى لها أمام الحافلة التي استقدمت المتطوعين والمتطوعات، يتأمل النازلين والنازلات ثم، وفجأة يركز بصره عليها. لكأنما كان يبحث عنها... اللاز كان ينتظرني.

شعرت بالحرج للوهلة الأولى، لكن سرعان ما استعادت سيطرتها على نفسها.

كان ضجيج الطريق، من ترنّم بالأناشيد، ومقاطع الأغاني الشعبية، أو المرتجلة، عن الأحوال والأوضاع والذكريات، ومكائد الرجعية وقوى الظلام لعرقلة عملهم المرتبط ارتباطا وثيقا بنجاح الثورة الزراعية، وبتقديم المد الثوري، شيئا، ولو قليلا إلى الأمام. المهم في المرحلة الراهنة، هو أن تزول أحكام الثوريين المسبقة ضد بعضهم، وأن تتشكل جبهة حقيقية من كل من يؤمن بالثورة الزراعية. كانت مجمل الأغاني المرتجلة تدور حول هذه النقطة، وقد تغنت جميلة من أعماقها بكل ذلك. وكان كل ذلك مبعثا، للضجيج إلى جانب هدير محرك الحافلة، مما جعلها وهي تنزل إلى الأرض تحس بالدوار.

* * *

ولربما بسبب ذلك، انهارت للوهلة الأولى، أمام نظرة اللاز المتوحشة. اللاز الذي بكت كثيرا، وهي تقرأ الرواية التي تحمل اسمه. عايشته في كل أطوار حياته، وتمنت لو أنها تزوجته وأنجبت منه لازا جديدا لا يعرف الشقاء الذي عرفه أبوه.

لم يطل انهيارها كثيرا. ابتسمت. اتخذت الموقف العفوي، الذي تعودت اتخاذه أمام كل من يبدي إعجابه بها في غير ما لباقة.

تفتح عينيها الرهيبتين، حتى تشعر بأن شحنة الإشعاع انطلقت منهما.

كثيرا ما تلوم نفسها قائلة، إنني أعبث. أهزأ بخلق الله. أقول لمن يطوف بالنار: من الأحسن أن ترتمي أن تتلظى بأوارها مرة وإلى الأبد.

عيب. عيب، ياجميلة. إنك ثورية يا جميلة، أحرقت سفينتك نهائيا في سبيل أفكارك كطارق بن زياد، فلم يبق لك من تراجع.

لكن المرأة امرأة وإن كانت ثورية. كل شيء في موضعه. الثورية لا تعني التخلي عن الغرائز الطبيعية. عندما أشعر باهتمام الآخرين بي، تزداد ثقتي بنفسي وامتلئ بالحيوية.

هذا اللاز بالذات. لفت انتباهه السنة الفارطة وهذه المرة أيضا، من يقنعني بأنه لم يجئ لاستقبالي. من يقنعني بأنه لا يبحث عني؟

لا. إنني أبالغ. هذا هو الغرور بالذات. هذا هو الانخداع بالحسن.

لكن نظرة اللاز جعلتك ترتجفين. اهتز قلبك. اضطربت ركبتاك. غمرك الدفء. ما تحديقك في اللاز يا جميلة، سوى محاولة يائسة للانتقام. رد فعل طبيعي لهجوم مفاجئ.

اللاز المسكين مريض. مليون جميلة لا تستطيع إيقاظ مشاعر اللاز. وسيظل الطاهر وطار يعاني عقدة الشعور بالذنب ما لم يستيقظ اللاز.

ضحكت لهذه الخاطرة. حضر المؤلف في ذهنها بالصورة التي رسمتها له «برهما» الذي شطر جسمه. وجعل شطرا في صورة رجل. وشطرا في صورة امرأة. وخلق من تزاوجهما رجلا عظيما. يدعوه الهنادكة «برات». وندعوه اللاز.

أطلت فاطنة من الخلف هاتفة:

– يرفض أن يتزحزح يا جميلة.

– يا أختي أنا أخاف منه.

أضافت اليامنة. فوجدت جميلة نفسها تبادر إلى النهوض غير مبالية بآلامها. نزلت واتجهت مباشرة إلى عرض الطريق حيث ينتصب اللاز.

– تتعبين نفسك يا جميلة. سيدنا مسافر. تأدبي معه.

– احذري يا جميلة فمهما يكن فإنه مريض.

– البرد يا جميلة. ستمرضين. عودي إلى السيارة.

– إنه في غرب الغرب. حيث لا نور إلا نوره. ولا صوت إلا صوته. ولا رحمة إلا رحمته. سيعود بعد قليل. سيعود لا محالة فهيا اركبي. يجب أن لا يغضب اللاز أبدا يا جميلة. إنه لم يغضب قط منذ إعلان الاستقلال. وقانا الله شر غضبه يا جميلة. نحن في القرن الرابع عشر، ومن يدري أن غضب اللاز لا يجلب على الدنيا ما جلبه غضب سيدنا نوح عليه السلام على قومه. أنت طالبة وتعرفين تفسير القرآن العظيم. هيا عودي.

إقتربت جميلة من اللاز. واجهته. ركزت عينيها في عينيه. لم تزعجها أشعة الشمس التي بدأت تنبعث من خلف الجبل الشامخ الملتف سفحه بالضباب.

أيقنت بأن هناك صلة دم بينها وبين اللاز. أنا أمه بل أخته. بل روحه. أنا نبضات قلبه. أنا هذه الخلايا التي تمارس الحياة في جسمه. أنا سر حياته ووجوده.

إهتز قلبها. اضطربت ركبتاها. دنت منه جيدا. استعادت يقظة روحها. حدقت فيه أكثر.

أحست بأن شحنة كهربائية قوية تدفقت من حدقتي عينيها، وبأن اللاز الآن مغمور بالزرقة والخضرة والنار. وأنه جزء منها. وإنها تمتلكه.

– هيا يا اللاز الدنيا باردة.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

– سبحان الله العظيم.

– إركب معنا يا اللاز.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

– سبحان الله العظيم.

– إنه يتبعها.

– يا أختي هذه ساحرة.

– ألا تعرفينها؟

– إركب يا اللاز.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

– سبحان الله العظيم.

– إجلس إلى جانبي. هاك معطفي تدثر به. إنك بردان جدا يا اللاز.

– سبحان الله العظيم.

– إركبن يا بنات. ما بك يا اليامنة. وهل تخافين من اللاز المسكين.

أدار بلقاسم المحرك. انطلقت الاندروفر نحو الحقل. تخلصت الشمس من الجبل وغمرت الدنيا.

* * *

أسنان اللاز تصطك. فرائصه ترتعد. شفتاه غادرهما الدم. أنفه أحمر. عيناه الواسعتان تستقر فيهما دمعتان. الاندروفر تواصل اهتزازها وزحفها.

– المسكين بردان.

– بردان جدا جدا.

– يبدو أنه تعرّض وقتا طويلا للصقيع.

تناولت جميلة معطفها الصوفي ووضعته على كتفيه، ثم مررت يدها على رأسه وعلى صدره وركبته، تمتمت:

– يا أختي إنه مبتل كله.

– هاك هذه السترة الصوفية، ضعيها على رأسه.

– ومعطفي أيضا ضعيه على ركبتيه.

– هات. هات. لن تنفعه سوى أشعة الشمس.

قالت جميلة، وهي تستند بيدها اليسرى على المقعد، لتزحزح نفسها نحوه. كانت تحس بالدفء في عينيها، دفء دموع حبيسة، تود الانطلاق، وتشعر بالحرارة في صدرها، مبعثها جيشان عارم في عواطفها.

نسيت آلامها. نسيتها تماما. لقد سيطرت عليها عواطف الأخوة والأمومة معا نحو اللاز.

إنه وحيد، وحيد تماما. منفرد تفرّدا صوفيّا مطلقا. حتى ما يمكن أن يكون هناك من عواطف يبديها أقارب نحوه. لا يحس بها. لا يحس بشيء. كل شيء بالنسبة إليه غريب عنه. إنه غريب وسطنا. غريب. غريب اللاز المسكين.

أحست بالبلل في وجنتيها. وصلت ملوحة إلى شفتيها. تناولت يده. كانت مثل قطعة ثلج ضمتها بكلتا يديها، حتى سرت فيهما البرودة. رفعتها إلى صدرها وراحت تتشبث بها.

عيناها المبتلتان مغمضتان، وكل شيء حولها منعدم. ليس هناك سوى غريب ممعن في اللامبالاة والألم. وليس هناك سوى طالبة رومنسية، مشروع مناضلة، كما أقرت في نفسها، تشعر بمسؤوليتها تجاه ما يقع في هذا الكون من حيف، وظلم وحقرة.

زيدان مات والغصة في حلقه.

مات وليس في ذهنه سوى اللاز. مات وماتت معه نبضات الحب الوحيدة، تجاه هذا الغريب،

المبحر في اللاشيء.

وضعت اليد تحت ذراعها دون أن تتساءل لماذا هي مستسلمة هكذا. هل يشعر صاحبها الآن بأنها في موضع ما كان يجب أن تكون فيه. واليد الأخرى؟ إنها جد باردة. تناولتها. فتحت عينيها. البنات تائهات. كل واحدة سابحة في عالمها. فاطنة تفكر في وهران لا شك. اليامنة تفكر في الجنين الذي يتخبط في أحشائها. ثريا تفكر في الاغواط، وفي أيام البؤس التي عانتها. دليلة منشغلة مع التيليفون، لا شك أنها متصلة به الآن. خطيبها المتواجد في الخدمة الوطنية. زال عنهن الخوف من اللاز. لو كن يعرفنه مثلما أعرفه، لأقمن عليه مناحة كبرى.

وهو؟

آه. هاهو يهدأ شيئا فشيئا. لا شك أن الدفء عاد إلى دمه. الدمعتان لا تزالان في عينيه. إنه سارح في لاشيء. يحدق في العدم. هل يعرف أين هو الآن. ربما. ملامحه جد صافية. لا تبدو عليه أية أعراض مرضية. لا تقلّص في العضلات، ولا شحوبة نتيجة نوبات أو معاناة. وجهه ممتلئ. اذا ما ابتسم اللاز فسيكون أروع طفل على الاطلاق، رغم سنه. حتى بلا ابتسامة. هكذا بهذه البراءة. يبدو شابا يافعا. إنه أصغر مما حدثنا عنه المؤلف. لا شك أن الزمن متوقف بالنسبة إلى اللاز.

سامحني يا اللاز. سامحني فقد حاولت أن أتحداك البارحة أمام الحافلة.

أي مؤلف تتحدثين عنه يا جميلة.

آه. برهما الملتحي. وتبسمت.

إبحاراتنا كانت قليلة. عمرها أيضا كان قصيرا. مرات عديدة لا غير. لكن في كل مرة كنا نبحر بعيدا بعيدا. نرسم خرائط للمتاهات.

– التقيت باللاز، تطوعت في قريته هذه السنة.

قلت له، ابتسم ثم كشر:

– أي لاز؟ أية قرية؟ هل تحدثت عن قرية معينة؟ هل رسمت لكم خارطة جغرافية؟ واللاز هل هو مسجّل في دفتر ميلاد معيّن؟

لا تستهينوا بنا أيها الناس.

اللاز كائن وغير كائن. كائن حيثما حللنا وولّينا وجوهنا. اللاز يملأ الدنيا. هنا في الجزائر،

هناك في المغرب، في تونس، في مصر، في الهند، في السند، في كل مكان لم تقم فيه ثورة العدل، وفي كل موطن يذبح فيه زيدان.. وغير كائن لأننا لا نستطيع أن نشخصه في فرد معين. لا نستطيع أن نلمسه أو نحدق فيه، ولا أن نعطيه ملامح معية. إنه أنا وأنت، وكل الناس، وهو في نفس الوقت لا يمكن أن يكون أنا أو أنت أو أي واحد آخر.

اللاز حق وغير حق.

هل تعرفون روح التاريخ. هل رأيتم مرة، قافلة تقطع البراري، وعلى ناقة معينة، هودج معين، يركبه التاريخ؟

لا، إنكم لم تروها ولن تروها، مع ذلك تؤمنون الإيمان الراسخ بأنه موجود سائر. واصل لا محالة إلى هدفه، في آخر بعد في آخر زمن.

جميلة. اذا ما استطعتم أن تضبطوا له مكانا معينا، ووجودا معينا، وأن تحصروه في شخص، لن يبقى لكم اذ ذاك سوى أن تسألوني لماذا لم تنتحر بعد؟

ماذا بقي لك أن تفعل بيننا؟

إنه ليأس مطبق تدفعونني إليه، حين تقولون لي، إننا عدنا من قرية اللاز، وهو بخير، كما تركته هذه سنوات عديدة. عمه حمو يقرئك السلام.

قافلة التاريخ حق، مع ذلك ليس لها درب أو مسلك محدود. وهذا لا يعني أنه ليس من واجبنا أن لا ننضم إليها. وأن لا نؤثر في دفعها إلى الأمام ما أمكن.

لم يقل برهما كل هذا الكلام. لم يلق هذا الخطاب بالحرف الواحد، لكنه جعلني أفهمه وأفهم أكثر منه. يقول دائما: إنني لا أحسن لا الغزل ولا الحديث. ولكنني أكتب. هذا عزائي، وهذا دوري، وهو يختلف عن دور الآخرين. وهذا مهم جدا.

عليكم أن تفهموا من تلقاء أنفسكم. الكاتب كاتب، والمغني مغن، واللاز موجود في كل جيل في كل مكان وكل زمان.

كل جيل يلتقي بلازه بصفة معينة، وأنا التقيت به قبل أن يستشهد أبوه. عرفته جيدا. عرفته كما أمكن لي أن أتحدث لكم عنه. وكل ما عدا ذلك، فمجرد حديث بلغني عنه، أو مجرد حب دفنته في أعماق قلبي.

لازكم أيها المتطوعون، من الطلبة خاصة، غير اللاز ولد مريانة، الذي عرفته في الخمسينات

وعليكم أنتم أن تصفوه لنا ولمن سيأتي بعدكم.

– أفهم أنك ضد الاستمرارية والامتداد. أتخشى من يقظته إذن؟

– لكن الشعب يقول «اللي ولى على الجرة تعب» والذئب يقول االلي تتلفته «جريه». واللاز ما يفتأ يردد ما يبقى في الوادي غير حجاره.

– لكن زيدان بطل، وأنت أيضا بطل. ولقد قلت على لسان زيدان: هذا الطفل يجب أن يرث جميع الخلايا. البيض والحمر وحتى السود... إننا.

– لا. لا تقولي ذلك يا جميلة. زيدان كان يتحدث عن جنين في بطن التاريخ وأنا لا أستطيع أن أميّز بين الشكل والمحتوى مهما فتحت عيني.

أنت تتحدثين كمتطوعة متحمسة. حتى أنك تجرئين على القول، بأنك ذهبت إلى قرية اللاز، والتقيت به هنالك. ولعلك أحببته، وحلمت بركوب العاصفة معه.

أما أنا ففنان. ويوم أفعل ذلك، ينتهي زمن نبوءتي. وأفعل ما فعله ماياكوفسكي، وهمنغواي، وكامي، وكاتب ياسين.

أتدرين ما قاله ماياكوفسكي مبررا انتهاء زمن نبوته؟ قال المسكين، لقد تحطمت سفينة الحب، على صخور الحياة اليومية.

هل قال برهما ذلك؟ بل هل اتصلت به حقا؟ هل أبحرت معه كما يخيل إلي؟ أهو فعلا من قال لي: إنني أفكر فيك كما يفكر «كيو» في «ماي». هذه علاقتنا، علاقة عاطفية وغير عاطفية. لكنها علي أية حال ثورية.

سألته: من هي «ماي» ومن هو اكيوب، حزن وتمتم:

– ألم ترتفعي بعد إلى درجة البرهمن العالم بالويد؟

ضحكت. لقد استغل المناسبة اللازمة ليعلق على ادعائي بمعرفتي لكتاب الهندوس المقدس ضحك بدوره. ثم واصل:

– عندما تقرئين رواية «اندي مالرو» «قدر الانسان»، سترين كيف كان الحمر يقذف بهم أحياء في الأفران. التاريخ دائما يعيد نفسه. البرجوازية واحدة وأسلوبها واحد ومنطقها واحد أيضا.

«ماي» طبيبة ثورية، مع أنها تحب «كيو» زوجها، فإنها لا ترى مانعا من إخباره بانها انتهت منذ ساعة، من مضاجعة أحد الاصدقاء.

تقول له: ثمة نداءات – وخاصة حين يكون المرء قريبا إلى هذا الحد من الموت، لا علاقة لها بالحب إطلاقا...

جميلة. هل لك بالفعل علاقة ما ببرهما. هل ركبت معه مرة حنين النار والريح لبعضهما؟

كلا. كلا. إنك تهذين يا جميلة، وهذه حمى. أنت مريضة، ومن الأحسن أن تعودي إلى الفراش. في التكميلية، أن تتدثري بالأغطية، وتستسلمي إلى الإبحار على أجنحة الفراشات. في إمكانك أن تمارسي غدا الأعمال اليدوية مع زميلاتك وزملائك، وتقضين على الدعوى التي تتهم البنات المتطوعات، بالهروب من الأعمال اليدوية.

سحب اللاز يده، التفتت إليه. وجدته ينظر إليها. يدقق النظر جيدا.

– كما لو أنه يعرفنني منذ زمن طويل.

قالت في نفسها، ثم بادرت إلى فتح عينيها والتحديق فيه. تعلم أن الخضرة والزرقة والنار، ستغمره، وأنها ستنتصر عليه في آخر المطاف.

إن هذا الشعور يلازمها باستمرار، رغم يأسها من الانتظار على «برهما». ذلك إنه ليس سوى برهما، المقيم في البيضة الذهبية ذات اللمعان كالشمس.

– استعدي، جميلة، نوشك أن نصل.

التفت إليها. كانت فاطنة تعد نفسها للنزول وتشير إلى سترتها التي تغطي رأس اللاز. سألتها:

– أين كنت؟

– وأنت؟ هل كنت تبكين يا جميلة؟

– أم. أم. بسببه. هذا الغريب. وأنت.

– في التيليفون.

– تكذبين. عيناك كانتا جادتين.

تكلفت بسمة في حين كانت رغبة قوية تغالبها، تحثها عن البكاء، عن إقامة مناحة صامتة، يشارك فيها الجميع.

– كنت أستعيد تفاصيل المعركة التي خضناها معهم.

– جماعة المكتب الثقافي. لقد انتهت لصالحنا على كل حال. تدخلت ثريا. فانبرت لها فاطنة:

– لم تنته بعد. هذا خطأ. المعركة مع الرجعية ليست سهلة إلى هذا الحد. السرطان. الورم

الخبيث. يسكن ولا يموت. حين ينهزم يغيّر مظهره.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

هتف اللاز في حين كانت اللاندروفر تتأهب للتوقف. ضحكت فاطنة من أعماق قلبها:

– على الحق. على الحق. يا اللاز خويا. كلامك صح في صح.

انحنت وهي تنهض. قبلته في جبينه، دون أن تدري لماذا فعلت ذلك. هي التي كانت قبل نصف ساعة، تشعر بالذعر منه.

لا شك، أن عطف جميلة الفياض. سرت عدواه إليها، إلى اليامنة، إلى دليلة، إلى ثريا إلى باقي البنات.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

هتف ثلاث مرات، وتناول يد جميلة التي بدت صغيرة جدا في كفه، رفعها إلى فوق. كانت تظن أنه سيقبّلها. سيفعل أخيرا مالم يفعله برهما. ابتسمت. بانت أسنانها البيضاء في اتساق مع لمعان عينيها.

لم يقبل اللاز اليد الصغيرة المستسلمة. اكتفى بتمريرها على وجهه. تسللت أصابعها الى الدمعتين المستقرتين منذ وقت لا تعلمه جميلة.

كانت لا تزال تواصل ابتسامتها، والسرور يغمرها.

* * *

«أيه شعبية. ثورية زراعية

أيه شعبية. معركة مع الرجعية

أيه شعبية. تسقط الرجعية».

ملأت الأصوات الأسماع، هازجة في تناغم واتحاد. عمت البهجة، في الحين الذي اعترتهن الدهشة.

ظنن أنهن بكرن، وسبقن الفلاحين وزملاءهن المتطوعين. لكن ها هم يصلون معهن بالضبط. يركبون مقطورات محملة بصناديق البطاطس، تجرها جرارات خضراء وحمراء.

أربع جرارات، كانت تنحدر مع السفح، قادمة من القرية، عبر الدرب غير المعبدة، في ثبات وإصرار، تترك خلفها، خطوطا متوازية فوق قشرة الجليد الكثيفة وتنفث فوقها دخانا أسود، يحاول أن يتصل ببعضه، ليتمكن من الارتفاع إلى عنان السماء، فيتشكل سحابات صغيرة هنا وهناك.

وثبت البنات. لحقهن اللاز، وسرعان ما التفت الجرارات بمقطوراتها حولهن، وداهمهن الصوت القوي، يغزو كيانهن، فيهز القلوب والفرائص ويدفئ الصدور والعيون، خالقا ذاكم الإحساس بروعة الشيء الذي لا يتحقق في حياة الإنسان إلا نادرا. ولو أن جميلة أحست به هذا الصباح، للمرة الثالثة. المرة الأولى عندما تناولت يد اللاز الباردة، وتمثلت لها غربته الموحشة، وشعرت بمسؤوليتها في ذلك، أو على الأقل بضرورة تحمل مسؤوليتها تجاهه وتجاه كل حقرة في الحياة.

المرة الثانية عندما أشعرتها فاطنة بحالها وسألتها، هل كنت تبكين يا جميلة، ملأت الغصة قلبها، وودت لو تفسح المجال لبكاء جماعي.

أيتها الدموع عندما تنهمرين من أعين كثيرة، يعمق الاحساس بالمأساة وبجداولك. وعندما يكون هنالك من يشاركنا الإحساس بالمعاناة، ينزل في قوبلنا نوع من رحمة التضامن، يعيدنا إلى إنسانيتنا الحقة. واهتياج العواطف في الصدور هو رمز صفاء إنسانية الإنسان. أما أولئك الذين تبلدت أحاسيسهم، وجفت السوائل السخنة من عيونهم، فهم وحدهم الذين يستطيعون اضطهاد غيرهم وتسليط الحقرة عليهم. إنهم مرضى ولا يستحقون أية شفقة. «كهتلر» و«موسولوني» و«نيكسون»، أو أي رأسمالي أو إقطاعي أخر، أو فاشي.

«أيه شعبية. تحيا الاشتراكية».

ودت جميلة والإحساس بروعة الشيء يهزها، لو تصدح بكل ذلك بكل ما معناه أو يشبهه لكنها

انتصرت على الحزن، وأجلت الإفصاح عنه إلى وقت آخر. ها هو قد حان.

وقفت إلى جانب اللاز، غير منتبهة إلى إسراع زميلاتها إلى اعتلاء المقطورات، يحيين ويهزجن. كان اللاز مبحرا. ذراعاه منفرجتان، تشكلان مع الرأس والصدر والعجز، صليبا كبيرا. رأسه -كالعادة - مرفوع. صدره بارز. ركبتاه مضمومتان. بينما استندت هي بذراعها الأيمن على اللاندروفر، وأطلقت العنان لعواطفها، تخرج نغما ثوريا، يهز الصبح المشمس:

«أيه شعبية. ثورية زراعية»

كانت رغبة البكاء تتحول عندها إلى الابتهاج. فتعلو الحمرة وجهها، وينطلق الإشعاع من عينيها.

لم ينتبه إليها سوى عبد القادر، رئيس التعاونية، ومسؤول الاتحاد البلدي للفلاحين، الذي يقتصر الجميع على مناداته بعمي عبد القاء... وبلقاسم السائق الذي ظل يسترق النظر إليها في وله عارم، عبثا يحاول إخفاءه.

ملأها الحماس. تخلصت من كل مشاعر الأسى والكدر. صفا ذهنها. عاد إليها الاعتزاز بنفسها.

إنك يا جميلة منتصرة. قهرت الظروف والمحيط والذات، انعتقت تماما تماما. حتى بلغت حد النضال من أجل إعتاق غيرك، إعتاق الجزائر من هيمنة الإقطاع وتسلط الاستغلاليين. إعتاق الإنسان الجزائري، من الاستغلال والظلم والعسف.

مناضلة. إنك مناضلة. مناضلة رفيقة يا جميلة. واحدة من نخبة قليلة، لها الشجاعة الكافية، لترفع عقيرتها بلا تردد وخوف ولا خجل:

«أيه شعبية ثورية زراعية

أيه شعبية تسقط الرجعية

أيه شعبية ثورة اشتراكية»

ما أروع ذلك. آه ما أروعه.

* * *

أفرغت المقطورات. أنزلت صناديق البطاطس. حملها الطلبة والفلاحون إلى الحقل على أكتافهم، وانتشروا في خط أفقي عريض. بدا مستقيما، ثم راح ينحني شيئا فشيئا، في نقاط مختلفة بتقدم البعض على البعض الآخر في عملية البذر التي بدأت حماسية، وكأنها سباق عدائين، منحنين. مما جعل ألوان وأشكال الألبسة المتباينة، تزداد تباينا، وبروزا من شخص لآخر.

بعض الفلاحين، يرتدي معطفا عسكريا، تغير لونه عدة مرات على ما يبدو، ممزقا في مواضع متعددة. وبعضهم يرتدي قميصا أزرق مهترئا، يغطي ألبسة، لا يدري أحد ماهي. بعضهم يضع على رأسه خرقا بيضاء، وآخر صفراء، تشترك كلها في الاتساخ.

إن هؤلاء الفلاحين لا يملكون من صفة الفلاح سوى الإسم، فهم في الحقيقة ليسوا سوى الأجراء الموسميين، الذين ينطلقون من المغاور والجبال، في السهول والسهوب، بحثا عن أي عمل. وبما إنهم ريفيون، فقد أطلقت عليهم هذه التسمية.

ترددوا كثيرا قبل أن يسجلوا أنفسهم في قوائم المستفيدين من الثورة الزراعية. لقد راجت في الريف الجزائري بسرعة فائقة، فتاوى دينية مفادها أن الاستفادة من الأرض حرام. ذلك أن هذه الأرض مستولى عليها بالقوة، وهي عند الله، شاء العبد أم أبى، ملك لأصحابها الأصليين، ثمرتها حرام والاستفادة بها كفر. كما راجت دعاية، تؤكد للجميع أن باقي مناطق البلاد لم تؤمم الأرض فيها ذلك أن أصحابها حملوا السلاح والتحقوا بالجبال وهم زاحفون للقضاء على السلطة الكافرة، وعلى عملائها من الفقراء المستفيدين. يقال ذلك في كل منطقة. ثم إن السلطات المعنية بتسجيل الراغبين في الأرض نفسها، كثيرا ما تقوم عائقا هاما في ذلك. ولا غرابة فمعظم الموظفين في البلديات أو الدوائر، هم ملاكون عقاريون، أو من منبت إقطاعي.

تبدأ الصعوبة أولا وقبل كل شيء، في التماطل في التسجيل. عد مرة أخرى. الموظف المختص ليس هنا.

لا. أنت لا تستحق الاستفادة فقد بلغنا أنك تملك عنزة.

نحذرك من الآن. إن السكن منعدم، وإن الأجر لا يتعدى مائة وخمسين دينارا.

هناك مسجلون كثيرون قبلك فعليك بالصبر الطويل.

عد مرات أخرى

الأرض التي ستوزع لم تحدد بعد.

أنت لم تقم بواجبك كما ينبغي إبان الثورة التحريرية، لذا فالباب مغلق دونك ودون أمثالك.

لقد كان – حقا – المستفيدون الأوائل من أدقع الفقراء فقرا. ورغم ذلك فقد حاولوا اليوم أن يرتدوا أجمل ما عندهم، احتفاء بمقدم الطلبة والطالبات، رغم أن هؤلاء بدورهم، لا يرتدون ألبسة خاصة. سترات شبه عسكرية ومراول صوفية سميكة دكناء، وسراويل يوحّد بينها اللون الأزرق عادة، وهذا كل ما في الأمر، إذا استثنينا المناديل الزاهية التي تغطي رؤوس الطالبات، والتي تتعدد ألوانها، رغم أن الحمرة تغلب على معظمها.

خفتت الأناشيد مع تقدم الصف، الذي ما يفتأ يفقد توازنه. ساد الصمت لحظات، ثم بدأت النكات والأحاديث الثنائية، مصحوبة بقهقهات من حين لآخر، مع محاولات فردية يائسة لاستعادة الإنشاد.

– وهل تعرف يا عمي عبد القادر نكتة القطار؟

– لا.

– أرويها لك إذن.

– لكن قل لي أولا من تستهدف بها. أنا لا تحلولي نكتة إلا إذا كانت تستهدف خبيثا من الخبثاء.

– إستنتج ذلك بنفسك يا عمي عبد القاء.

– سأحاول. ولو أنني أعرف سلفا إنك تقصد أصحابنا. هاتها.

– كان راع يتبع قطيعه قرب السكة الحديدة. المسكين قدم من الجنوب، ولم ير في حياته قطارا.

– جاء القطار فهرب تاركا أغنامه. هأ هأ.

– لا يا عمي عبد القاء، الصبر مفتاح الفرج. هكذا تكون النكتة بائخة. هأهأ.

واصل واصل. والله ورأس الهواري لن أقاطعك مرة أخرى.

– إحذر فلقد اقسمت.

– بيمين رجال.

– جاء القطار يتمطط، بهت الراعي. راح يتأمله ناسيا نعاجه.

– فداهمها.

– لقد حنثت يا عمي عبد القاء.. الصبر مفتاح الفرج.

– سأصوم ثلاثة أيام على والله أما الهواري فقلبه كبير. سيسمح لي.

– ذهب الراعي، حسب نصيحة بعض المارة. إلى رئيس محطة القطار، يشكو هذا الأخير الذي داهم بعض نعاجه. قائلا: يا سيدي. حيتكم، تلك الطويلة جدا. رفشت بعض نعاجي وهربت.

– تقول الحية الطويلة.

– أي نعم. الطويلة الأطول من كل حية سمعنا بها.

– وكم نعجة كنت تسرح.

– مائة وزيادة.

– وكم أكلت حيتنا الطويلة.

– سبع نعاج يا سيدي. سبع نعاج كاملة.

– إسمع يا بني. أحمد الله أن كانت الحية هذه المرة تسير طولا، فلو وضعناها في العرض، لرفشتك أنت وكل نعاجك.

هاهاهاه.

إنطلقت قهقهة عبد القاء منفردة في الفضاء. ارتفعت أصوات تتساءل عما هنالك.

– اصبروا. اصبروا. المفتاح صبار الفرج. كيف تقول يا ولد...؟

– هاهاهاه.

مفتاح الفرج.

– لا، كما قلت يا عمي عبد القاء.

– دعونا من هذا. سينطلق قطارنا ذات يوم إن شاء الله الرحمن الرحيم، وسيرفس كل البرجوازيين.

– والرجعيين يا عمي عبد القاء. لا تنساهم.

أضافت جميلة وهي تتخلص من صندوق البطاطس الخاوي، وتستقيم في وقفتها، تحاول التخلص من الألم الذي تحس به في ظهرها، وتفرك أصابعها الدقيقة القصيرة التي كساها الغبار وأصقعها الجليد مكشرة عن أسنانها البيضاء، في محاولة عفوية لرسم ابتسامة عذبة على محياها، لتكسب – كعادتها – تأييد محدّثها.

– ويحيا الإسلام أولا وقبل كل شيء.

هتف مصطفى، طالب كلية العلوم، بنبرة منفعلة غاضبة وهو يلوّح بقبضة يده، يهدد عبد القادر،

رئيس التعاونية.

التفت الجميع إليه. كان رقيقا، طويلا. نحيفا. محوّق العينين. جاف الشفتين. كما لو أنه لم يذق طعما للنوم، هذه ليال عديدة.

– لماذا هو يرتجف؟

تساءل مستفيد، بصوت منخفض، لكنه لا يخلو من سخرية وقبل أن يتلقى جوابا، ارتفعت أصوات متقطعة، من هنا وهنالك، مرددة بدورها وهي تهدد هذه المرة بالرفوش:

– يحيا الإسلام. يحيا الإسلام.

– إنهم يفتعلون معركة. ما هي نيتهم. أعتقد أن أصحابنا وراءهم.

قال الشريف رئيس فرقة المتطوعين، الذي كان يروي حكاية القطار والراعي، لعبد القاء. في حين كانت الأصوات تتعالى، هاتفة بحياة الاسلام. فرد عبد القادر ساخطا.

– وآخرتها ما هي؟ لماذا لا نكتفهم، ونلقيهم في مقطورة توصلهم إلى الحافلة فيعودون من حيث جاؤوا؟

– المعركة لا تنتهي عند هذا الحد، يا عمي عبد القاء. لو كان الأمر بهذه السهولة والبساطة لما كشفوا عن أنفسهم إطلاقا. هؤلاء الطلبة وعددهم لا يتجاوز السبعة، لا يمثلون أنفسهم، وإنما يعكسون تيارا قويا، خيوطه تتفرع على كامل بلادنا، وتلتقي مع أخرى، تتفرع على كامل العالم.

– تقول؟ والهواري ماذا ينتظر؟

– آه. يا عمي عبد القاء. سأشرح لك الأمور فيما بعد.

– يحيا الإسلام. يحيا الإسلام.

هتف صوت نسائي. كانت جميلة هي صاحبة الصوت. تأملها الجميع. أعادت الهتاف مرة ومرات.

إنبعثت زغرودة أطلقتها فاطنة. أعقبتها ثانية فثالثة. هتف الجميع:

– يحيا الإسلام. تسقط الرجعية.

وقف مصطفى حائرا. كانت الأصوات قوية. كانت ثابتة رصينة. واضحة تتميز بالصدق، أكثر من ذلك. هل يعقل ذلك.

هل يعقل هذا. هؤلاء الحمر الملاحيد يهتفون بحياة الإسلام؟ وماذا بقي لنا نحن بعد ذلك؟

التفت إلى أصحابه الستة الذين كانوا قد وزعوا بترتيب على كامل الصف الطويل، حتى يتسنى لهم تأطير الوضع. كانوا بدورهم واجمين مشدوهين.

بدا له الصف أعرض بكثير مما كان عليه. بدت له أجسام الفلاحين وباقي الطلبة والطالبات أضخم بكثير مما كان يراها قبل رتوة.

ألقى نظرة على المجرفة التي كان يتهدد بها فألفاها أصغر من ملعقة. مرر لسانه على شفتيه الجافتين، ثم هوى بالمجرفة على الأرض، يغطي حبيبات البطاطس، التي كان قد بذرها في الخط العمودي الممتد أمامه.

- ما يبقى في الوادي غير حجاره.

هتف اللاز الذي كان ينتصب في الخط، قبالة جميلة، وعلى بعد بضع أمتار، وهو ينزل ذراعيه المصلوبتين، ويسرع إلى صندوق البطاطس الخاوي. تلقفه بين رجلي جميلة وأسرع إلى تعويضه بصندوق عامر كان خلفه.

- الله اكبر.

- سيدنا يأمر.

- السمع والطاعة يا سيدنا.

- أرأيتم. اللاز. سيدنا اللاز. إنه لأول مرة منذ الاستقلال، يمد يديه لإنجاز عمل ما. اللاز يبارك المسعى يا ناس، ويبارك التطوع.

- سيدنا يقول حيى على العمل.

هتف المستفيدون، وانكبوا دفعة واحدة على الشغل ليتبعهم الطلبة. كانت الأيدي تروح وتجيء على صناديق البطاطس، وكانت الرفوش، تصعد وتنزل، مثيرة للغبار، وكان الصمت يميز المعركة القائمة على أشدها، بين الأجساد المنحنية، وبين الأرض.

حتى «اندروفر»، الدرك الوطني التي توقفت في السفح لحظات، تقل كوكبة مدججة بسلاح الميدان وشيخ البلدية، يبدو أنه لم ينتبه إليها أحد.

لعل هتاف اللاز المنفرد في ذلك السكون الغاضب.

- ما يبقى في الوادي غير حجاره.

هو وحده الذي يشير إلى الظهور المريب لسيارة الدرك الوطني. بعد أن أثار حديثا فاجعا في

نفس جميلة، التي انطلقت تردد في أعماقها، مقطعا «لبابلو نيرودا» نسبته إلى برهما:

(لا أحد يسمعني. يمكنني الآن أن أتكلم.. طفل في الظلمات هو ميت.. لست أدري لماذا كان علي أن أموت... لأتابع طريقي بلا هدف في الصحراء.. لشدة حبي، بلغت شدة الكآبة.. لكثرة ما قاتلت تحولت إلى عدم.. والآن بين يدي تيريزا.. سوف يرقد رأس شقي، قاطع طرق.. لقد قطعوا أوصالي وشقوا جسدي.. وقطعوا عنقي بعد أن سقطت ميتا.. لست أصيح على الجريمة المرتكبة.. لست أصيح إلا في سبيل حبي الذي ضاع.. زيدان. زيدان. زيدان.. فقيدتي كانت تنتظرني، وها أنذا قد وصلت.. عبر الدرب المرير الذي سلكته.. لكي ألتقي بها في حالتي هذه.. كما وصلت وأنا أقتل وأموت..

لم أعد سوى رأس أفرغ من دمائه.. لم تعد شفتاي تتحركان مع رنين صوتي.. الموتى لا ينبغي لهم أن يقولوا أي شيء.. إلا بأصوات المطر والرياح..

لكن من سيأتون عبر الضباب والسحب.. كيف سيعرفون الحقيقة عن حقيقتها..؟ لذلك أنا أطلب أيها الرفاق.. أن يتغنى بحياتي وآلامي.. بعد مائة عام. «بابلو نيرودا»، والطاهر وطار...

لا من أجل الشر الذي كنت قد فعلته أو لم أفعله.. ولا من أجل الخير، أيضا، الذي دافعت عنه.. بل لأن الشرف كان من حقي. حين فقدت الشيء الوحيد الذي حصلت عليه.. زيدان.. زيدان.

وهكذا في الربيع الوطيد الذي لا يتزعزع... سوف يمر الزمان ويعرف الناس حياتي.. لا المريرة. ولا حتى التي بذلت من أجل الحق والعدل... بل حياتي التي لا أعتبرها كاسبة ولا خاسرة..

زيدان.. زيدان.. زيدان...

ومثل كل حياة عابرة.. لعل حياتي قد اختلطت بحلم.. سافكوا الدماء قتلوا وهمي.. زيدان.. زيدان.. وبمثابة ميراث أخلف جراحي...

وهكذا من الثأر غير النقي.. ولد الأمل اليقين... زيدان.. زيدان...زيدان.

يجب بكل صفة أن يترجم نداء اللاز الحزين. وهذا ما حاولت. – ربما – ان تفعله جميلة.

* * *

إغرورقت عينا جميلة. تقلصت عضلات وجهها. إهتز قلبها بعنف. امتلأ صدرها بالغيظ والحقد معا. لقد خطر لها أنها، لم تكن تترجم نداء اللاز، ولم تكن ترثي زيدان، إنما كانت تؤبن برهما. تصورته برهما المسكين، الوحيد الذي عليه الحجة التي يشنق، ويذبح، ويسلخ، ويقلى في الزيت بسببها ألف مرة، دون أن يشفي غليل الرجعية.

يتخرج الطالب. يتوظف. يتزوج. ينجب أولادا. تأخذ حياته مجرى جديدا. قد ينسى في الطريق أفكاره، بل، قد يأسف على الماضي العابث. يمكن وضع حد لنضال أي مناضل، بقتله، أو بزجه في السجن، أو بنفيه، أو بإغداق المغريات عليه.

لكن برهما يستحيل أن تمحى آثاره. لقد حارب الرجعية من داخلها، وبلغتها، وهذا ما يثير حقدها أكثر.

نحن كلنا زبد نذهب في الهواء. أما هو فهو الماء.. «إن برماتا الذي لا يدرك بالعقل وحده، الطيف الخفي. والمحيط بجميع المخلوقات، أظهر ذاته بذاته.. ثم بدا له أن يخلق المخلوقات من جسمه. فخلق أولا، الماء بالفكر. ثم ألقى فيه بذرته.. فصارت هذه البذرة بيضة ذهبية لها لمعان كالشمس. وانبعث منها برماتا ذاته، في صورة برهما، جد العلم كله».

هو الذي ينفع ويضر الناس.

هو «بابلو نيرودا». أول من تبدأ به قوى الظلام.

سألته مرة، هل يحب الهواري، ارتسمت وسط لحيته بسمة وهمس:

– أيهما أكثر؟ الثقة أم الحب؟ إنني أثق فيه. مصيرنا واحد. كلانا يغالب الزمن الحراشي. كلانا غير واثق من الوسائل التي بين يديه. إنه مثلي يصطاد في الماء العكر.

– وماهو الزمن الحراشي..؟

– آه. ذلك اصطلاح، لن تدركيه يا جميلة إلا إذا اصطحبتني يوم الجمعة القادم إلى سوق الحراش.

أوقف سيارته فوق الجسر، في موقف ممنوع بين مئات السيارات والشاحنات على مختلف أنواعها وأشكالها، وعلى مقربة من شرطيين، لا يدري أحد، سبب وجودهما تحت الشمس اللافحة.

عندما نزلنا اتكأ على سور الجسر الحديدي، وراح يهمس كأنه يخاطب أحدا، ولعه يخاطبني أنا. رغم أنه يبدو أنه نسيني لحظتها تماما.

أطللت بدوري فلم أتمالك عن الانهماك في تأمل المنظر.

في الأسفل أخدود عريض، تتجمع فيه مياه آسنة، خضراء داكنة، تنبعث منها رائحة كريهة. وعلى سفح مثلث، يمتد من الماء، ويمر تحت الجسر، حتى طريق علوية، تفصل بنايات معوجة، من كل جانب، تجري حركات ذهاب وإياب، ولف ودوران، ونهوض وقعود، وانحناءات واستقامات وينبعث هدير الأصوات. ملايين الأصوات. بين الحان شعبية، وعصرية، شرقية وغريبة، وبين هتافات وصراخات واستغاثات، بالإضافة إلى أزير محركات آلاف السيارات الرابضة هناك.

– حيدر آباد.آقرا. بومباي. دلهي الجديدة. الزمن الحراشي، هو الذي يعكس الواقع المرعب للفوضى ولاختلال موازين القوى.

سمعته يتحدث. أو هكذا خيل إلي. بل، إنني سمعته بالتأكيد، فهو الذي يعرف هذه المدن، وقد قال مرة متحدثا عن زيارته لها. لم أعرف درجة الصفر إلا عندما كنت هناك.

سبقني يتسلل بين السيارات هامسا:

– لنوغل. لنوغل. الزمن الحراشي يعاش، ولا يتأمل من الخارج. كالتاريخ.

نزلنا من الجسر، و بمجرد ما انعطفنا إلى الشمال، وجدنا أنفسنا، وسط صف طويل من السيارات، كتب عليها عبارة للبيع، بخطوط، بعضها رديء جدا، وبعضها منمق بعض الشيء، استعملت فيه عدة ألوان. المحركات تدور في انفعال، والمنبهات تنبعث في غيظ وحقد والمارة يتخطونها بلا اكتراث، ومن حين لآخر يتعثر أحدهم خلف سيارة، فينهض شاتما البرجوازية، وسياراتها، والظروف التي امتلكتها فيها.

– يعلمون كلهم أن السوق عامرة. وأن الطريق مسدود. ومع ذلك يصرون على الاقتحام. هذه هي الفوضى بعينها.

تميز صوت، من بين الأصوات الكثيرة للباعة المتراصين فوق الطوارين الضيقين، ووسط الطريق بالذات، عارضين بضائعهم، غير مبالين سوى بالنظرات التي تعار إليهم وإلى بضائعهم من حين لآخر.

كنت أجد صعوبة كبيرة في شق الطريق خلفه، وكان هو يحسن التوغل، بين الأشياء والناس، بشكل عجيب.

التفت إلي مرة يستحثني أن لا أبتعد عنه، فوجدني أتأمل كومة من قمصان نسائية، وجوارب

وثدايات، ومناديل، وأحذية. ابتسم وسألني:

– هل راقك شيء؟

– هذه القمصان القطنية تليق للتطوع الصيفي القادم.

– هل سألت عن ثمنها؟

– بكم هذا القميص، يا سي محمد.

لم يرفع بصره إلي، كان منشغلا بإصلاح مذياع صغير. إكتفى بالتمتمة:

– أربعمائة.

– نعم؟ كم قلت؟

– إنه عند غيري بخمسمائة دينار. ضعي القميص في مكانه. ليس للبيع. بالفعل قذفت بالقميص بين يدي الرجل، وأسرعت نحو برهما، الذي وجدته يهمس:

– أول ما يفقد قيمته في الزمن الحراشي. العملة. إننا لم نقتحم بعد الزمن الحراشي. هذا مدخل وليس غير.

– هل تصورت ثمن القميص..؟

– أتصور فقط، أنه أغلى من سعره الحقيقي في أوروبا المنسوب إليها بمائة مرة على الأقل.

– فظيع. من سيشتري منهم بمثل هذه الأسعار؟

– من يبيعون بمثل أسعارهم. أو المحرومون من رخص الخروج من الشباب والعمال والكادحين، المعرضين لضغط المودة الغريبة، التي تقيم لها البرجوازية، هذه السوق الموازية.

– ومن أين تأتي هذه البضائع؟ أين الرقابة؟

– لا تستبلهيني.

تخلصنا من جدار الشارع الضيق المثقل، واستقبلنا على يسارنا السفح المثلث القائم تحت الجسر. بدا أكبر بكثير مما كنت أراه من فوق، وأهدأ بعض الشيء مما كان يصل لأسماعنا. سألته فرد على الفور:

– هكذا دائما تعاش القضايا الجادة. إنه الامتزاج.

واصلنا السير في صمت، وسط الغبار الذي تتناثر فوقه، أكوام من البشر والخردوات، على جميع أصنافها، ومن مختلف العصور والأزمنة.

هنا بقايا أحذية. هناك بقايا أفران ومطابخ، إلى جانبها بقايا مفاتيح. ثم بقايا مجلات وكتب، بكل لغات العالم. يأتي بعدها صف من الحلاقين، يقفون خلف صناديق، يجلس عليها رجال من مختلف الأعمار، تواجههم صناديق أخرى، عليها شظايا مرايا، وبعض أدوات حلاقة بدائية. وهنا وهنالك حلقات، تنبعث من وسطها أصوات وأنغام.

اتجهنا نحو واحدة. أطلنا أعناقنا، وأقحمنا رأسينا، لنتبين ما هنالك. كانت امرأة في الخامسة والعشرين، سمراء جميلة مكتحلة العينين مستاكة، تتسربل جالسة في لحاف أبيض متسخ، وتمسك بيد شاب في التاسعة عشر أو يزيد.

– فتح وانو. وقل يا سيدي عبد القادر.

استخرج الشاب قطعة دينار. رمقتها بنصف نظرة باسمة. ضغطت على يده. مررت اليد الأخرى على معصمه.

كانت يداها مخضبتين بحناء جديدة. لا شك أن الدفء والحرارة ينبعثان منهما.

– صلي على النبي المختار، وفتح، وقل يا سيدي عبد القادر.

استخرج الشاب قطعة، بخمسة دينارات. قدما لها. كان يرتجف. كانت تضغط بيدها أكثر على كفه وتسحبه نحوها.

أعاد الشاب، القطعة إلى جيبه، ليستخرج مرتجفا أكثر، وفي عجلة من أمره، ورقة بعشرة دينارات. اختطفتها المرأة الجميلة. أدنت وجهه من وجهها، وراحت تهمس في أذنه، وتواصل الدلك في كفه. بينما هو يرتعش كالمحموم.

– هكذا يعيش الإنسان روعة الشيء، في الزمن الحراشي. هيا نمر.

اقتحمنا حلقة أخرى، يتوسطها كهل ملتح، أمامه كرسي يجلس عليه فلاح، ومنضدة صغيرة، عليها قنينات ذات ألوان مختلفة، وأسنان وضروس مهشمة، وفي يده كلابة متسخة.

– هذه التي توجعك؟

– لا. الأخرى.

– أية أخرى؟.

– في الحقيقة. فمي كله يوجعني.

– الضرسة بخمسين دينارا. والمسؤولية مسؤوليتك. عد نقودك، وعين لي الضروس التي تريد

اقتلاعها.

جذبتنا حلقة أخرى وأخرى. وتوقفنا قليلا عند كل واحدة منها، ثم واصلنا طريقنا، تاركين الحكماء وباعة العقاقير، والشعراء رواة حكايات الصحابة، وأبطال الإسلام، وحكايات غدر النساء وكيدهن، منهمكين في شغلهم غير مبالين بالأتربة المتناثرة، والشعور المنفوشة المتطايرة مع الرياح.

– كل هذه البضائع المباعة هنا، هي بقايا مهشمة، لا تليق للاستعمال، فلماذا ينكب عليها الناس باعة وزبائن؟

سألته فبادر برهما وكأنما كان متهيأ للجواب:

– أهاه هذه هي إحدى حقائق الزمن الحراشي. الأشياء هنا تكتسب أهميتها من ذاتها، لا من قيمتها الاستعمالية. الطائرة التي مرت في الأجواء القريبة منذ برهة، هل تنبهت لها؟

– لا. أبدا.

– إنك فعلا موغلة في الزمن الحراشي. إنه لا أحد ينتبه إليها في هذا الزمن، إلا إذا سقطت وتهشمت. سيتسابقون إليها، وسنرى بعد أيام قطعها تباع هنا. تباع وتشتري وتلقى اهتمام الزبائن الكامل.

اقتربنا من الوادي. من حافته على الأصح. اختنق صدري. كانت الروائح العفنة قوية. قاتلة. ممتزجة بالدخان المنبعث من مئات الدراجات النارية المعروضة للبيع. والتي تدور محركاتها كلها في وقت واحد، مرسلة أزيزا حادا مستفزا.

– هذه المنطقة موبوءة.

– أنظري عند قدميك.

كنا. نحن، وجميع مجتمع الزمن الحراشي، نسير ونحيا فوق أكوام من الشعر والقمامة والروث، اعتراني الهلع. تناولت ذراعه. فعلت ذلك لأول مرة على ما أذكر. إنني أذكر جيدا فكل حركاتي وأقوالي، وكل حركات وأقوال برهما، أحفظها بجميع تفاصيلها. ذلك أنني قررت، وفهمت من أول وهلة، إنني أتعامل مع ضحية. مع شهيد مع «بابلو نيرودا»، في حركات وسكنات برهما.

رجوته أن نخرج من هذا الزمن الموبوء. ابتسم:

– تفكرين في الكوليرا. هذه إحدى حقائق الزمن الحراشي. الإنسان يفقد هنا كل خصائصه، وينزل إلى درجة الصفر. ثم إلى ما دونها. إذ ذاك يتحول إلى جرثومة مضادة للكوليرا.

– لا أفهم ما تعني بكلامك.

– ذلك أنك لم تزوري مدن وأرياف الهند. عندما نقتحم جناح بيع السيارات ستفهمين بعض ما أعني.

اقتحمنا رحبة فسيحة، مشحونة بسيارات من مختلف الأنواع والأشكال والألوان والأعمار. يقف على كل واحدة منها، جمع من الناس، يتبادلون أرقاما نقدية وزمانية وطاقية.

– وهل يفقد الإنسان هنا أيضا خصائصه؟

– بشكل أو بآخر. إنهم إطارات ولصوص الأمة. يأتون إلى هنا ليمتزجوا بالزمن الحراشي، وهو الزمن الوحيد، الحقيقي بالنسبة إليهم. أما ما عداه، فالجميع يشعر بأنه دخيل عليه، ومفروض من طرف قوة مجحفة، عليهم أن يزيلوه ولو مرة واحدة في الأسبوع.

مر القطار داويا قربنا. تفصله عنا في بعض مناطق مروره، أسوار من خشب متآكل، أو من أسلاك صدئة، مفتوحة في مواضع كثيرة منها. شددت على ذراعه التي لم أطلقها قائلة في تبجح:

– لقد انتبهت إليه. القطار.

– غيرك لا يفعل ذلك إلا عندما يدوس بعض المارة. وكثيرا ما يفعل. لا يستطيع الانفلات من الزمن الحراشي، إلا عدو هذا الزمن.

– والهواري في رأيك منفلت منه.

– إنه يقاومه، وعلينا أن نعينه بأقصى ما نقوى عليه، وهذا كل ما في الأمر. عندما ركبت السيارة إلى جانبه. كان القرف يملأ نفسي. وكان الصداع يشدد علي الخناق بينما ظلت صورة قارئة الكف عالقة في ذهني. تمنيت لو أنني أقرأ كف برهما ذات يوم،

«نهايتك نيرة تجللها الظلمات» [(1)] .

*** * ***

1 تألق جواكان موريتا لبابلو نيرودا.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

هتف اللاز عندما تمت عملية جمع الصناديق الخاوية، ووضعها على المقطورات، وبدأت محركات الجرارات، تدور، ثم انتصب على رأس الخط الذي كانت جميلة تبذره، وارتحل.

سافر. أكد جميع الفلاحين ذلك بما فيهم عبد القادر.

وبينما تسابق الجميع فلاحين وطلبة وطالبات إلى المقطورات، وسيارة الاندروفير، تخلفت جميلة. أسرعت إلى حيث يقف اللاز، وراحت تبذل الجهد لاستعادته.

– عبثا تحاولين يا جميلة.

– إنه ليس هنا.

– ولكن يجب أن لا نتركه في الحقل. هكذا على بعد عشرين كيلومترا من القرية. الصقيع يسقط، والدنيا موحشة. يمكن أن تفترسه الذئاب.

– المسافات غير معتبرة بالنسبة لأولياء الله يا جميلة.

– سنجده أمامنا في القرية ولاشك.

– بل لعله ينتصب الآن هنالك في مفترق الطرق.

– إنه لم يذق طعاما كامل نهار اليوم. حرام يا ناس. التفتت ثريا إلى k وخاطبتها في شيء من السخرية:

– مجنونة. جميلة مجنونة. لا تريد أن تتخلى عن اعتقاد، أن هذا هو اللاز الذي قرأته في الرواية. اللاز الذي عاش في الخمسينات وظهر في مطلع الستينات، كرمز لاختلال قوة إدراك الشعب.

– وما يمنع أن يكون هذا هو اللاز الحقيقي. اللاز الأول والأخير. القيمة الثابتة الواردة في الرواية. أنا لم أقرأها، لكن على ما حدثتني جميلة فإن كل شيء يدل على أنه هو.

ردت اليامنة فنهرتها ثريا:

– لا تكوني مثلها. إنها مجنونة بحسنها. مغرورة. لا تدري من تعشق، ولا ماذا تعشق. هذا الكون بما رحب، يبدو لها أصغر من أن تحويه عيناها. إنها تخلط بين هذا المجنون الذي يسميه سكان القرية اللاز، وبين مؤلف الرواية، الذي تسميه برهما، والذي هو أيضا مجنون على ما يبدو، يشتغل في حزب السلطة ويدعي الثورية.

– جميلة ثورية، عقيدتها صلبة واضحة، وهذا كل ما في الأمر. لقد خبرناها في ظروف جد صعبة، ولا يمكن إطلاقا، أن يتسرب إليها الشك، أو إلى ثوريتها، وصدق عواطفها، وقناعاتها، وهي جذرية غير ملوثة باليسارية.

– أنا اليسارية. أشكرك. جميلة عندما تهتف بحياة الإسلام ثورية، وأنا عندما لا أنتهز الفرص، يسارية في نظركم.

– ثريا. هل تغارين من جميلة إلى هذا الحد؟

هزت ثريا منكبيها في لا مبالاة، ثم التفتت تستجلي سر هتاف الطلبة يحيون قادما ما.

كان القادم، هو عيسى كاتب القسمة، يسوق دراجته النارية بيد ويرفع اليد الأخرى بأصبعين علامة الانتصار، شعار المتطوعين. رادا على التحية الحارة التي استقبل بها.

اتجه الى المقطورة التي يركبها، مصطفى والشريف وعبد القادر، وبعد ان حيا الجميع مبتسما، اقترب من الشريف وغمزه:

– مر على بيتي يا الشريف. أنت وعمي عبد القاء. لدي ما سأقوله لكما.

– خير ان شاء الله.

تساءل الشريف، فالتفت كاتب القسمة حواليه، ثم ترجل، وانسحب بدراجته بعيدا عن الجرارات، وغمز بعينيه مرة أخرى، وأومأ برأسه أن يتبعه الشريف.

– كيف حال الهند يا عيسى؟

سأله الشريف وهو يربت على كتفه فسارع عيسى:

– أخبار الهند دائما جيدة. الهند تحميها الروح الأعظم، والتسامح بين أهلها. تصور أربعة معابد متلاصقة. المسجد والكنيسة والمعبد البوذي، ومعبد القردة. هذا قليل من كثير جدا جدا.. لقد حدثتني في رسالتها الأخيرة عن..

راق له الحديث، ولم ينتبه إلى القلق الذي استولى على الشريف، فكان لابد من مقاطعته.

– هل لديك جديد دفعك إلى المجيء الى هنا يا عيسى؟

– آه ذكرتني. كدت أنسى.

– ماذا هنالك.

– لدي أخبار سيئة تتعلق بكم.

– تتعلق بنا. تقول؟

– نعم بكم، وبمصطفى، ومسؤول القسمة، ورئيس الدائرة وشيخ البلدية. هذا سر ينبغي أن يبقى بيني وبينك. تعال إلى بيتي وسأعطيك كل التفاصيل.

– سأكون عندك مع عمي عبد القاء بعد نصف ساعة.

– لا بأس إن أتت معكما واحدة من البنات خاصة جميلة. سأعد لكم شايا على الطريقة الهندية. لقد جاء في منوسمرتي «على العامل أن لا يطرد الضيف الذي يأتيه عند غروب الشمس سواء أتى في وقت الطعام أو وقت آخر».

– إلى اللقاء.

– إلى اللقاء. «إن من يخون في كلامه فهو خائن في كل شيء. لأن الكلام جذر الأمور كلها. وكل حال، تعرف به».

إتجه الشريف نحو الحقل، حيث ينتصب اللاز، في تأهب لطيران لن يتم، وتقف جميلة قبالته، تحدق فيه، مبتسمة، ومكشرة في ذات الوقت.

تغلبت على آلامها. آلام بطنها. كل بطنها. خصرها وسرتها وكليتها، هذه الآلام التي استيقظت معها منذ الصباح الباكر، ليضاف إليها آلام ظهرها، وكتفها، وذراعيها، وعضلات فخذيها وإليتيها، التي انجرت من العمل اليدوي المتواصل، أو بالأصح العمل البدني الشاق الذي أبت إلا أن تشارك فيه.

إن عملية بذر البطاطس، وتغطية البذور بالتراب، والتقدم في الصف، بطريقة تتطلب الانحناء التام والمستمر، ليست بالعملية السهلة، على من لم يتعود ذلك كامل السنة فما بالك بطالبة تفكر وتعمل وتحيض وتتشبث بالنجوم متغنية بأشعار «بابلو نيرودا واراغون».

غالبت. كابرت. وتوقفت تواجه اللاز.

ثديي في فمك. بين شفتيك. أنت تلهس. أنت رضيع بين يدي. انت جنين في رحمي.

أنا نفسك. أنا رئتاك. أنا روحك.

الشعاع ينطلق من عيني: أخضر. أزرق. أحمر. أنت تتذاوب. تتجاوب وتتذاوب.

أنت لا شيء وأنا كل شيء.

أنت أنا وأنا أنت. هيا اتبعني. إنك تطيعني. ليس في إمكانك سوى ذلك. هيا معي.

الهس حلمة ثدي ونم. نم. استسلم واستسلم.

كانت تتأمله، وكانت تفسر تأملها، بما قاله لها برهمن ذات مرة. لكن اللاز كان مستسلما، لقوة، لابد من تقدير، أنها تفوق قوة جميلة المريضة التعبة ألف وألف مرة.

الشعوب، لا تنتصر أو تنهزم بأوامر يا جميلة. واللاز الآن منفلت من يديك، ومن كل يد وعبثا تحاولين جره أو السيطرة عليه.

لكي يتم لك ذلك، ينبغي أن تكوني أنت بالذات، اللاز، وهذا لن يتم إلا بسريانك التام في كامل جسده.

إنه لأمر صعب. بل إنه لأمر مستحيل. بل إنه مستحيل. لا يتآتى إلا لمن ينهض ضد الزمن الحراشي قبل أن يتأمله. ذلك أنه زمن استلابي لعين. تكتسب فيه الأشياء قيمتها من ذاتها، لا من فعاليتها وإلا ما ضرورة أن يعرض للبيع مقبض المفتاح دون بقيته، وبسعر يفوق سعر المفتاح الجديد، ومع ذلك يكون هناك من يشتريه.

فهيا عودي، واركبي الاندروفر، فالطالبات المتطوعات: ثريا وفاطنة واليامنة ودليلة وغيرهن ينتظرنك قلقات تعبات.

وثقي تماما في أنهن لسن سوى متطوعات.

ادركي بكل عمق، بكل الأعماق أنكن متطوعات. و «أن من لا يغمض عينيه قصدا كي لا يرى الحقيقة، لا يمكنه أن يظل...».

ادركي يا جميلة أن التطوع، مهما كانت قيمته، ودون أي استنقاص لقيمته، ليس أبدا أداة لاقتحام الأزمنة.

إنه ليس سوى مد العون. وإلا أصبح تعويضا ثوريا دونكيشوتيا.

هذا كل ما في الأمر، وكل محاولة لكسب الانتصار، بمد يد العون، لا تعني سوى التطفل، والانتهازية. مع العلم أن «الانتهازية الشريفة هي أخطر الانتهازيات».

برهما قال ذلك، قال لك: علينا أن نعينه بأقصى ما نملك، من جهد، ولم يقل أكثر من ذلك.

فهل تفهمين ما عناه برهما.

إنك مريضة، ولن تنتصري عليه، اللاز. هذا اللاز المصلوب طولا وعرضا.

– جميلة، وراءنا أعمال أخرى هامة جدا. فهيا بنا. يخال من يراك من بعيد بأنك راهبة في

كنيسة بأمريمكا اللاتينية.

انتفضت جميلة، هزتها رعشة طويلة.

– أية أعمال يا الشريف؟

– حادثة الصباح لم تكن عفوية. يبدو أن هناك مؤامرة دقيقة.

– تقول؟

– عيسى كان هناك. ونحن مدعوون لشرب شاي عنده على الطريقة الهندية.

– أي عيسى؟

– عيسى بوعين، كاتب قسمة حزب جبهة التحرير الوطني. تعرفينه. عاشق الهندية المسكين. سيحدثنا عن أخبار قال إنها ليست سارة بالنسبة لنا.

امتثلت جميلة للشريف. كانت منكسرة الروح.

لقد انهزمت أمام اللاز. وكان انهزامها في نظرها، داخلا في صميم معركتها الأنثوية ضد برهما. حاولت أن تعطيه تبريرات إيديولوجية، لكنها مع ذلك لم تقنع نفسها.

إنهزمت ووجدت نفسها في الاندروفر في المقدمة، إلى جانب بلقاسم، الذي صمم على أن لا يجلس في هذا المكان غير جميلة.

وقبل أن تنطلق السيارة تمتمت «أصمت أيها البحر، وليصل الزبد في صمت».

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

* * *

عيسى بوعين، أسمر اللون، دقيق الأنف، عريض الفم، أحمر الشفتين، مصاب بالبرص في موضع واحد من جسده، هو جفنا عينيه العلويان، لذا يتحرج كثيرا من إغماض عينيه، فيبدو أنه يحملق باستمرار، في حين تظل شفتاه العريضتان الحمراوان ترسمان بسمة منسجمة جدا مع سعة عينيه.

طرد من المدرسة في السنة الثانية، ولسبب ما وجد نفسه في المدينة المجاورة يتابع دراسته، في مدرسة خاصة، مقيما عند خالته.

نال الشهادة الأهلية، وواصل التعليم بعدها سنتين، ثم انقطع عندما لم ينجح في شهادة البكالوريا، كممتحن حر.

قالت له أمه، أبوك يشكو من المصاريف الباهظة التي ينفقها عليك، ولم يبق أمامك إلا أن تتزوج وتبحث عن شغل.

رفض أن يتزوج رفضا قاطعا. لم تنفع فيه الرقي والأحراز، ولا الأبخرة المضادة للتوابع وللعين. رغم أنها استنزفت الكثير من مدخرات الأم المسكينة.

انخرط في شبيبة الحزب، فترة، ثم انقطع عندما اختير كاتبا إدرايا للقسمة، بعد أن أعجب في المستويات العليا للحزب، بخطه الجميل، أيما إعجاب.

قام بوظيفته أحسن قيام، ثم تعرض لمؤامرة دنيئة، كما يقول، استطاع أن يتغلب عليها بعد سنتين كاملتين من الكفاح المرير.

لقد كتب ما يزيد عن مائة تقرير إلى الهيئات العليا للحزب، يشرح مأساته بخط يراعي أن يكون أجمل في كل تقرير. ثم أنصف أخيرا، لا بسبب تقاريره وشكاواه، وإنما بسبب تغيّر عضو الاتحادية الذي أوقفه عن العمل.

كان عضو الاتحادية مداوما سياسيا بالقسمة، مستواه الثقافي ضعيف جدا، ولكنه يستميت في الإصرار على أنه اعظم مثقف، ورجل سياسة، لا في القرية فحسب، بل في الناحية كلها.

استعار من عيسى بوعين، مرة مبلغا زهيدا، لا يصل الثلاثمائة دينار، ليستعين به على شراء كبش العيد. كتب وصلا في ذلك لعيسى، وكانت المسألة تبدو جد عادية.

إلا أنه بعد أن اختير، ليدعم الاتحادية في المدينة المجاورة للقرية، انتظر أن لا يتذكر عيسى موضوع الاستعارة من دراهم الاشتراكات بالمرة. وأي ضرر في ذلك. بل إنه من واجب عيسى بوعين

اعترافا منه بأحقية المداوم السياسي في الترقية، أن يدفع من جيبه المبلغ ممتنا.

وعندما حان أوان تصفية الحسابات في أخر السنة بين القسمة والمحافظة، نبّه عيسى منسق القسمة، وسلمه الوصل، فلم يجد هذا بدا من الكتابة إلى عضو الاتحادية.

كانت الرسالة لطيفة وموجزة، لا تتعدى الثلاثة أسطر، أو الأربعة، بما في ذلك جملة التحية الأخيرة، إلا أن عضو الاتحادية، اغتاظ كثيرا. اعتبر ذلك إهانة كبرى له وللاتحادية وللمحافظة ولكامل حزب جبهة التحرير، ومسّا بالثورة وبالمبادئ، لأن الأمر، كما قدر، يتعلق أولا وأخيرا بسمعة مسؤول سياسي في الحزب.

اقترح على الاتحادية، تجديد انتخاب مكتب ولجنة القسمة، وانتدب هو بصفته مسؤولا عن التنظيم للإشراف على عملية الانتخاب.

وبسرعة عجيبة تغيّر المكتب برمته وجزء هام من اللجنة، وبرزت قيادة جديدة للقسمة، كانت مهمتها الاولى، إحالة الكاتب الإداري عيسى بوعين على لجنة الطاعة.

مرت الأمور، في استعجال تام، حيث لم ينتبه أحد إلى أنها مؤامرة إلا بعد فوات الفوت وإلا كان في إمكان المكتب القديم، أن يدافع عن نفسه، إن لم يكن في المستويات العليا مستعملا خط عيسى بوعين، فعلى الأقل في وسط المناضلين، بشن حملة مركزة على عضو الاتحايدة، وحتى بكشفه وسط الجمعية العامة.

ترأس مجلس التأديب عضو الاتحادية نفسه، وشورع عيسى بوعين بتهمته المس بمبادئ الثورة، وحكم عليه بالتوقيف التام عن عمله، وبالطرد النهائي من صفوف الحزب.

كان أعد مرافعة قيمة، سهر لإعدادها ليالي عديدة، كما أنه أوكل الدفاع عنه إلى حمو، منسق قسمة المجاهدين، إلا أن العملية تمت في غيابه، ولم يعلم بها سوى من خلال القرار الذي تلقاه كتابيا، والذي يتهمه أكثر من ذلك بأنه رفض تلبية الاستدعاء ثلاث مرات، لذا صدر الحكم غيابيا.

انكفأ مع جملة المنكفئين، وانزوى في المخزن الذي خصه له أبوه، مسكنا، يكتب التقارير والعرائض، إلى الجزائر العاصمة والرسائل الغرامية إلى الهند.

لقد عشق، وهو في شبيبة الحزب، بالمراسلة، هندية، فأخلص لها، وأقسم أن لا يحب وأن لا يتزوج غيرها.

يكتب لها في الأسبوع الواحد عدة رسائل، يؤلف الكثير من معانيها، وينقل أيضا أجزاء هامة من

رسائل الرافعي لمي. خاصة من كتاب أوراق الورد. وينتظر رسالة واحدة في الشهر. تبثه فيها لوعة الشوق وتحدثه فيها كثيرا عن عادات الهند وتقاليدها ودياناتها. وترجوه أن لا ينفذ قراره بالسفر إلى هنالك فالامر ليس بالسهولة التي يتصورها. إن أحسن مكان للقاء تقول له، هو أوروبا وأبوها يسعى إلى الالتحاق بإحدى السفارات هنالك. وإذا لم يتم اللقاء في هذه الحياة الفانية، فسيكون لا محالة في الدار الخالدة.

وعندما لا يتلقى رسالة جديدة، لا يحزن كثيرا، ولا يعتريه القلق أيضا. يكفيه أن يعود إلى الرسائل السابقة، والتوقف عن كل كلمة من كلماتها، خاصة الهندية التي تضمنها الحبيبة في كل واحدة من رسائلها، حتى أنه صار يحفظ ما يقارب الثلاثمائة كلمة يعرف معانيها كلها، وينطق بها أيضا نطقا سليما. بدءا من كلمة الحب، إلى كلمات النار والهواء والظلمة والنور، والبرق والصواعق والغيوم وقوس قزح والرعد والشهب الثاقبة، ونجوم القطب وكل أنواع الأضواء السماوية.

كانت عشيقته مسلمة، ابنة تاجر كبير في حيدر أباد، ومع ذلك تميل، كما تقول له، إلى غير الاسلام من العبادات.

قالت له مرة: كل الديانات الكثيرة في بلادنا، معقولة، من يعبد القرد، إنما يعكس تمجيده لآبائه وأسلافه، على ضوء نظرية «داروين». من يعبد الجاموس، إنما يعبد اللبن ومصدر الغذاء في أرضنا الفقيرة الملآى بالبشر والمعرضة أكثر من مرة في السنة، سواء إلى الجدب أو إلى الطوفان. وكذا من يعبد النار والثعابين، والإوز، والغربان. خاصة الغربان، وما أكثر الغربان في بلادنا يا حبيبي. إن الناس يقدسونها، لأنها تستر موتاهم الذين لا يلحقون لحرقهم. إن جثث من لا أحد لهم يقوم بحرقهم مبعثرة في كل شبر من مدن وقرى وأرياف بلادنا.

أما نحن. فماذا نعبد، وبماذا نفسر أن نكون هنا في الهند مسلمين؟. إنني أتساءل وأنا أستغفر الله العظيم كثيرا. يبدو لي أننا تخلينا عن هذه الحياة الدنيا، وتعقلنا بأمل أن نجد كل شيء معدا لنا في الدار الآخرة. وحالنا الاقتصادية نحن المسلمين في الهند هي أسوأ حال جميع الهنود على الإطلاق، وإن اهتديت إلى سبب ذلك فسأحدثك عنه في المستقبل.

لا أخفي عليك يا حبيبي، حتى إذا ما قدر والتقينا، لا تندهش، إنني صرت أميل كثيرا إلى العبادة الهندوكية، وإنني أردد في سري «اون» كلما شرعت في الكتابة إليك أو انتهيت منها حتى لا أنساك. كما أن رسائلك لا أفتحها إلا بعد أن أتطهر الطهارة الهندوكية، وأجلس على حصير مصنوع

من عشب كشا واستقبل المشرق.

و«اون» يا حبيبي إذا لفظها الإنسان وهو متطهر، يحفظ من كل شر، ومن يقرؤها يوميا ثلاث سنوات متتاليات، فإنه يندمج في برهما بعد موته، ويصبح طليقا في حركاته، كالهواء، ويتمتع بقالب أثيري.

يعلق عيسى في غرفته، مايزيد، عن ألف صورة لفنانين وفنانات وزعماء ومهراجات، ورجال اديال قصها من مختلف المجلات والجرائد التي لا تبخل السفارة الهندية في تزويده بها. كما يملك صناديق من اسطوانات الأغاني الهندية، يؤكد عيسى أنه يحفظها كلها عن ظهر قلب، وأنه يفهم مجمل معانيها.

إنها كلها تغني الحب النوراني، كما تغني الآلام البشرية، وتروي حكايات الحقرة والظلم.

ولو لم ينقطع عيسى بوعين عن الشغل في السنتين الآخيرتين، بسبب حرصه على المبادئ وعلى أموال الشعب كما يقول. لوصلت مجموعته من الأسطوانات إلى الألفين على أقل تقدير.

لكن هاهو قد عاد، منذ سنة، وأحواله الآن على أحسن ما يرام، كما أن أحوال الهند أيضا لا تثير أي قلق، حسب آخر الأخبار.

– كيف حالك خويا عيسى.

– بخير الحمد لله وأنت كوسالا [(2)] .

– هذه جميلة ديالنا. طالبة متطوعة، وهذا عمي عبد القاء تعرفه أكثر..

– ناماسكار جميلة ناماسكار جميلة [(3)] ، جميلة أيضا أعرفها. لقد تطوعت في قريتنا كثيرا. وكل الناس في الحقيقة يعرفون جميلة. إنها أشهر من جميلة بوحيرد، وجميلة بوعزة وغيرهما من الجميلات. هل لك صلة بهن يا جميلة؟

– ضحكت جميلة، وأشارت إلى صلة الإسم لا غير، وراحت تتأمل معه الصور، المعلقة في الجدران مركزة نظرها على واحدة كبيرة. قال عيسى إنها لخطيبته دنيازاد الهندية، وإنها تشبهها إلى حد بعيد، خاصة في حدة النظرة.

– أعطني سيجارة يا عمي عبد القاء.

– قالت جميلة تغالب الحياء الذي استولى عليها، فأسرع عبد القادر يبحث في جيوبه:

– تستحقينها بكل جدارة يا جميلة. لقد صبرت عنها طيلة النهار. كنت أراقبك وأنت تطاردين

بأنفك دخان السجائر التي تنبعث من حولك. هاك.

– شكرا لك يا عمي عبد القاء، واسمح لي أن أدخن في حضرتك. أنت صديقنا وتعرف كل أسرارنا، وكل شيء عن أحوالنا.

– لا تخجلي من عمك عبد القاء. أنت لست امرأة عادية. إنك طالبة، وعما قليل تصبحين عالمة كبيرة. وفوق هذا وذاك فإنك تفهمين بالسياسة، وتحملين مثلي ومثل كل المستفدين في قلبك هما كبيرا. آه يا الهواري يا ولد أمي. لو أنك تعرف ما نعاني ونقاسي.

– ماهي أخبارك يا عيسى؟

– نهض. أسرع إلى الباب ذي الدفتين، شقه وأطل برأسه، يمنة ويسرة، وعاد مطمئنا.

– هاكم القهوة أولا. «اون». إن إستقبال المشرق عند تناول الطعام، يطيل العمر. واستقبال المغرب..

– يسبب الغنى. واستقبال الشمال، يبعث على الفلاح. واستقبال الجنوب يؤدي إلى الشهرة.

– قاطعته جميلة، ففتح فاه مشدوها وراح يقارن بينها وبين الصورة الكبيرة المعلقة في الجدار مرددا تعويذته: اون اون. كان الشريف وعبد القادر يضحكان وكانت جميلة تواصل ترديد بعض المقاطع من كتاب ديانة الهندوك.

– ناماسكار جميلة ناماسكار. إنك فعلا، دنيازاد خطيبتي. أنت أيضا خلقت من روح ريح الحياة. إن روحك وروحي وروح دنيازاد، توائم في التناسخ مع الروح الأعظم. ناماسكار. جميلة ناماسكار. هل تتفضلون بسماع آخر أغنية هندية وصلتني. سأشرح لكم معانيها الذهبية.

– لا ياسي عيسى نحن مستعجلون وتعبون. نريد أن نسمع ما عندك.

– أهاه كدتم تنسونني الموضوع.

– أدخل الموضوع مباشرة يا بوعين.

– أضاف عبد القادر في لهجة قلقة، فما كان من عيسى إلا أن نهض وأسرع إلى الباب فتحه وراح يطل هل هناك من ينتصب. عاد ليهمس:

– الكلام يبقى بيننا. إنه سري جدا وخطير جدا.

– تعرفنا ونعرفك يا عيسى.

– البارحة تخلفت في المكتب. أصفي حسابات الإشتراكات وإذا بمنسق القسمة يعود على غير

عادته. سألني هل جاء طالب متطوع يسأل عنه، ثم دخل مكتبه بعد أن أوصاني بإدخال الطالب، حالما يحضر. لم يمر وقت طويل، وإذا بصاحبكم مصطفى يقتحم المكتب. أدخلته إلى المنسق الذي رحب به كثيرا، على غير عادته مع من يستقبلهم من المناضلين وخاصة المجاهدين والعمال.

– وبعد ذلك؟

تساءلت جميلة فبادرها، موجها الحديث إليها ومتأملا عينيها:

– دار بينهما حديث خطير. خطير جدا. يتعلق بكم وبالهواري وبالثورة الزراعية.

– ماذا قالا؟

تساءل الشريف وعبد القادر معا:

– انتظروا. لقد استطعت بطريقة هندية محضة، أن أنقل كل كلمة تفوها بها. هاهي المسجلة هنا. استمعوا جيدا:

«كيف حالك سي منصور. بخير. الحمد لله، ولو أن الأشغال كثيرة. العمل في إدارة الضرائب، ثماني ساعات كاملة، ثم العمل في الحزب. الاجتماعات متواصلة. هنا. في البلدية في الاتحادية. في المحافظة. في كل مكان... أرسلني إليك سي رضوان. سي رضوان الذي كان معك في السجن... أهاه. سي رضوان. الشيخ. كيف حاله. ماذا يشتغل. لقد كان يصلي بنا في السجن... الآن هو أستاذ بتكميلية في العاصمة.. ماشاء الله. أعز صديق. لم أره منذ سنوات طويلة.. قال لي اسأله هل نسي كش.. لا. لا أبدا. لم أنسه الشيوعي الكلب. كيف أنساه وقد كانت لنا ضده، أنا وسي رضوان معارك مشهودة. مرة كتفناه، ومددناه وأشبعناه ضربا، ثم تغوطنا على وجهه، أنا وسي رضوان بالتناوب. سي رضوان قال لك، الأفعى لم تمت. المتطوعون الذين تعودوا الحضور إليكم، حمر كشيون. والخطر يهدد بلادنا.. هذا أيضا ما أكده مسؤول الدائرة ونائب المحافظ. إننا لهم بالمرصاد.. لا. هذا لا يكفي. قال لك سي رضوان.. وماذا يجب أن نفعل تجاههم؟. إسمع يا سي منصور، أنا والإخوان الذين معي، وعددنا سبعة، وسي رضوان وكثير من الجزائريين النزهاء نظمنا تجمعا سياسيا، إسمه حزب الله، قائما على قهر الشيوعيين وإقامة حكم الكتاب والسنة. حزب آخر غير حزب جبهة التحرير الوطني الخالدة؟ وهل تعلم السلطة الثورية بذلك؟.. لا. إنما في إطار جبهة التحرير. إن السلطة منقسمة على نفسها. شق منها معنا. أو على الأقل لا يعادينا، وشق ثان لا يحظى سوى بتأييد الشيوعيين.. من على رأس هذا الشق؟.. إنك تعرفه. صاحب بدعة الثورة

الزراعية.. تقول ذلك؟. سي رضوان أمرني أن لا أخفي عنك شيئا.. بصراحة أنا لم أهضم هذا الذي يسمى بالثورة الزراعية. أما كرهي للشيوعيين الملحدين، فيعلمه سي رضوان. لقد كان عندنا في السابق، واحد اسمه زيدان تسلل إلى صفوف الثورة، حتى تمكن من الاستيلاء على موقع قيادي هام. لكن الثورة أراحتنا منه، حالما اكتشف أمره. لقد نحر من قفاه كالجمل الأهوج. لكن في السنة الأخيرة، برز عندنا واحد أخطر بكثير من زيدان.. من هو؟.. مدير التكميلية. كان في قريته مدير مدرسة ما يزيد عن عشرين سنة، وأحد العناصر العالمية المرتبطة مباشرة بموسكو. تصور. يحكي لنا، أنه لم يكتف بصبغ داره وسيارته باللون الأحمر بل، توصل إلى حفر المطرقة والمنجل، على شاهد قبر أخيه.. الكلب.. الكلب. وتركوه حيا..؟ إنه يسيطر على سكان القرية هنالك سيطرة عمياء. لقد نقلته الأكاديمية، بل الوزارة، بتدخل من الحزب. لقد نقل إلى هنا بقرار سياسي على ما قيل لنا... الكلب، الكلاب، انهم ينتشرون في كل مكان خاصة في أوساط الطلبة والعمال.. ما الثورة الزراعية إلا من تخطيطهم. صاحبنا واقع تحت أسرهم. استطاعوا بهذا المشروع الجهنمي، أن يستولوا عليه، وأن يفصلوه عن أصحابه. إن مسؤول الحزب شبه موقف عن العمل كما تعرف. وهو ضد الشيوعية والشيوعيين، والثورة الزراعية، والنظام الحالي مائة بالمائة.. هذا صحيح.. نعم صحيح كل الصحة. وعلينا كما يقول سي رضوان، أن نسارع وننتظم لإنقاذ الشرف.. أنا معكم قلبا وقالبا. مادام سي رضوان معكم، فأنا واحد منكم. لن تضيع السنوات التي قضيتها في السجون والمحتشدات هباء. جبهة التحرير، يجب أن تظل كما كانت. وطنية إسلامية جزائرية.. المهم يا سي منصور أن ننفذ خطة سي رضوان. لقد جمعنا أنفسنا نحن الطلبة المعادين للشيوعية، في كل الجامعات واسطعنا أن ننظم تطوعا موازيا لتطوع الحمر، وانتشرنا في كثير من المناطق، وعلينا، بإعانتكم أنتم أن نطردهم، ونستولي على الميدان.. ولكنكم قلة بالنسبة إليهم..؟ هذا صحيح. لكن في وسعنا أن نضايقهم، ونستفزهم، وإذا ما استطعتم أنتم أن تتدخلوا، سواء بالدرك، أم بالمناضلين، أو بالشعب، يمكن تهريبهم بسرعة...

جانيتو.. يا جانيتو تيدا موسكي.. ايبي هني..

– أعتذر، لقد انقطع التيار الكهربائي لحظات، فتوقفت المسجلة. إنها آلية تتوقف بمجرد إنتهاء الشريط، أو إنقطاع التيار الكهربائي.

– في هذا كفاية. نشكرك كثيرا يا عيسى.

– قال الشريف، وهو يصوب نظرات عميقة إلى جميلة، التي طلبت سيجارة ثانية من عبد القاء.

– هذا ما فهمته في الصباح حين هتفت معهم بحياة الإسلام، قالت جميلة بصوت خافت فعقب عبد القادر يحدث نفسه:

– طل علينا يا الهواري طل. الضرب حرش.

– إنهي سيجارتك يا جميلة. يجب أن ننصرف.

– إسمعوا. لا تعرفونني، ولا أعرفكم. سأمحو الشريط حالا. لم تسمعوا أو أسمع أي شيء.

– كيف تمحو الشريط؟ أرسله إلى الهواري مع جميلة.

– «إن إطعام برهمن واحد، عالم بأحكام الويد الخاصة بتقدمة الأجداد يساوي من الأجر، إطعام مليون برهمن جاهل بها». كل واحد، يا عمي عبد القاء يعرف كيف يدفن أباه. العمل الحزبي شغلي أنا. سأجد طريقة هندية، لإعانة جميلة وأصحابها. تصبحون على خير. ناماسكار جميلة. عودي مرة ثانية نستعرض أحكام الويد.

– تصبح على خير عيسى بوعين. ألف شكر.

* * *

[2] كوسالا: سؤال عن الصحة.
[3] ناماسكار: أنني انحني أمامك.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

كان ينتصب في باحة التكميلية تحت شجرة الخرنوب الكبيرة، موليا ظهره إلى الجناح الذي تسكنه الطالبات المتطوعات، كأنما يقوم بنوبة حراسة.

– قلت لك إننا سنجده أمامنا. اللاز يحل مشاكله بنفسه.

– ردد عبد القادر، ومر مع الشريف نحو جناح الطلبة في الجانب الخلفي للتكميلية. لم تجد جميلة الفرصة لتبدي رثاءها للاز، أو أسفها لوضعيته، أو أي تعليق آخر.

– تصبحون على خير.

– ردت عليهم، ومررت يدها على رأس اللاز. كان شعره مبتلا، وكانت جبهته مع ذلك مرتفعة الحرارة.

– لاتدع أحدا يقترب منا يا اللاز. نحن في حمايتك فاحرسنا جيدا فإننا خائفات. تصبح على خير يا اللاز.

ودت لو أنها تحدثت إليه كثيرا، ولكن يأسها من أنه لن يفهمها، بل لن ينتبه إلى ما تقول إليه، في مثل هذه الوضعية التي يوجد عليها، جعلها تمر دون أن تتوقف أكثر.

أوقدت النور. كانت البنات مستلقيات في الأسرة الضيقة. وكان الدخان يملأ القاعة، لقد تعودن على مثل هذه الأسرة منذ كن في الثانويات. كما أنهن تعودن على الانتقام من التدخين في الليل وفي مضاجعهم، حيث لا ترقبهن إلا أحلامهن وهواجسهن.

علقت في نفسها. فتحن أعينهن بإجهاد. تأملنها لحظات صامتات، ثم كأنما استفقن رحن يسألنها الواحدة إثر الأخرى.

– أين كنت؟

– لقد تأخرت!

– هل تعشيت؟ المقرونة في الخزانة.

– وماذا هناك؟. ماذا يريد عيسى بوعين.

أسرعت إلى حقيبتها. إستخرجت علبة السجائر، أشعلت واحدة. سحبت نفسا طويلا، تركته لحظات في صدرها، ثم راحت تنفثه رويدا رويدا.

– لماذا لم تنتظرن..؟

– لم نكن نائمات. مستلقيات، وهذا كل ما في الأمر.

– ظهري مهشم.

– أصحابنا مصممون على إثارة الشغب. إنهم يخططون من أجل طردنا، وضرب التطوع نهائيا.

– وماذا في وسعهم أن يفعلوا، وهم ليسوا سوى سبعة.

– قولي خمسة فقط، فقد انضم منهم اثنان إلينا. تفرد بي أحدهم في الحقل وقال لي، لقد غرر بنا. مصطفى متخلف، يعمل لحساب عناصر مضادة للثورة. يبيت الشر.

– إنه يفكر في تشويه وجه جميلة بالحامض. طلبت منه أن لا يظهر هو وصاحبه الاختلاف مع مصطفى، وأن يظلا معه للاطلاع على كل مخططاته. قال. لقد كان المخطط اليوم، أن يحصل اصطدام بينكم وبيننا، وبين الفلاحين الذين سيثورون من أجل الإسلام، ويتدخل الدرك الوطني، ويلقي القبض علينا جميعا. لقد مرت بالفعل في الصباح، عندما كنا منهمكين في العمل، وإثر حادثة يحيا الإسلام، مباشرة تقريبا، كوكبة من الدرك مدججة بأسلحة الميدان نبهني الطالب إلى ذلك.

سكتت ثريا برهة، ثم أضافت، في حين كانت جميلة تتلمس وجهها:

– معك حق يا جميلة. ليسوا وحدهم. كما كان يخيل إلينا.

– منسق القسمة انضم إليهم. ويبدو أن مسؤول الدائرة لم ينس لنا الأربعة هكتارات التي أخفيت عن التأميم، وكشفناها في التطوع الصيفي.

– تعشي أولا يا جميلة.

– لقد تعشيت مع الشريف في دار عمي عبد القاء.

– هنيئا لك. كرهنا المقرونة...

– لم نأكل شيئا ذا أهمية. كالعادة كسكس بالماء الساخن والملح. المستفيدون لم يتقاضوا المنح منذ ثلاثة أشهر.

– الكلاب. هذا أحسن أسلوب لتخريب الثورة الزراعية. التجويع. الكلاب. حتى الإنسانية منعدمة فيهم.

– المهم.

قالت جميلة فبادرتها ثورية، وهي تشعر بعطف كبير نحوها، كأنما تكفر عن مشاعر الغيرة التي

ثارت في نفسها قبيل ساعات. وفي نفس الوقت، تحاول أن تبعد عن نفسها التهمة التي كثيرا ما توجه إليها، كونها يسارية متطرفة تخدم أهداف الرجعية:

– نعم المهم. وما هو المهم الآن؟ ماذا قرر جماعتنا؟.

– لم يتقرر شيء لحد الآن. ربما سافر الشريف الليلة، إلى المدينة. اتفقنا على إجراء أولي. عمي عبد القاء من جانبه، وجماعتنا من جانبهم، ونحن من جانبنا، ننصب جميعا فرق حراسة في الليل. مع تفادي أي إصطدام.

– لماذا لا يحرسونهم وكفى. إنهم يسكنون بجوارهم.

– ومنسق القسمة. وباقي العناصر الذين معهم والذين لا يدري أحد من هم وأين يتواجدون؟

– صحيح.

– أنا وجميلة نقوم بالحراسة.

قالت فاطنة فبادرتها اليامنة.

– لماذا أنت وجميلة فقط؟ نقوم كلنا بالحراسة ما عدا جميلة.

– لماذا استثنيتني أنا؟

– كلنا نساء يا جميلة. إنك مريضة. عيناك. صوتك. كل شيء فيك. يتحدث على أنك.. آه. لو كان برهما –كما تسمينه– معنا، لوجد تعبيرا أدبيا ثوريا لحالك.. سيقول لا محالة. جميلة في حالة الاكتمال. الاكتمال الأنثوي. في حالة الخصوبة والإستعداد لمد الثورة برفيق صغير. سيؤلف، ولا شك رواية خاصة بهذا الموضوع.

– دعينا من الشعر يا طالبة كلية الآداب التي لا يتطوع منها سوى البنات.

– قالت ثريا، ترد على اليامنة فابتسمت هذه وغمزت جميلة التي كانت أشعلت سيجارة جديدة، وتمددت بثيابها وحذائها فوق السرير، تتأمل شقوق السقف، المتشعبة، في خطوط منكسرة تلتقي وتتوازى، وتتباعد.

لم تكن تفكر في شيء.

أكيد أنها لم تكن تفكر في شئ إطلاقا باستثناء، طعم تبغ سيجارتها، الأسود، الذي له الآن نكهة خاصة.

– ارتدت ثريا بسرعة فائقة ثيابها، استخرجت من حقيبتها، خنجرا يستعمله صيادو السمك.

علقته في حزامها. أطفأت النور، بعد أن اعتدلت على كرسي، بجانب الباب.

– الحراسة الليلية، كامل الليلة، حتى بزوغ الشمس. لثرية. لطالما انتظرت مثل هذه الليلة. سأبقر بطن خنزير رجعي، وسآكل كبده.

– عندما يداهمك النوم أيقظيني.

قالت فاطنة فلم ترد عليها. ساد الصمت والسكون القاعة. ولم يبق يشق الظلمة سوى بصيص السجائر الملتمع، هنا وهنالك، مؤكدا وحده، أن المستلقيات، يقظات، وإن كل واحدة من هؤلاء، المتطوعات، اللائي وهبن شبابهن لقضية ما، سابحة في عالمها الخاص.

فاطنة تفكر في زوجها يوسف.

عمل على إسقاط نفسه في الإمتحان. عز عليه أن يتخرج ويفارق الجامعة. قال: تطوع هذه السنة والسنة القادمة حاسم. لن أغادر الجامعة قبل أن تقوم الأسس الصحيحة للتطوع. إنه أول مكسب ثوري تحصل عليه بلادنا بعد الثورة الزراعية، كأحد نتائجها الإيجابية.

البرجوازية الصغيرة تتخوف منه، والرجعية تعمل على ضربه، وأنصاره يحاولون أن لا يندفعوا فيه ويجعلوه معركة مصيرية، منشغلين عن المعارك المصيرية، بالفعل، بالنسبة إليهم وبالنسبة للثورة.

مهمتنا العاجلة تتمثل، في تحقيق الشرعية للتطوع، وفي خلق قيادات طلائعية، تضمن له الاستمرارية والفعالية والصفة النضالية.

هذا كله يحتم علينا، التحلي بالروح الوحدوية، وبعدم إحراج أنصارنا.. لن يتسنى ذلك بيسر، بل، بمشقة وبمعاناة، وبإعادة النظر في خطتنا، مرات عديدة في اليوم الواحد.

استراتيجيتنا واضحة وصحيحة. دعم وإنجاح الثورة الزراعية. ولا غير. لا غير. يجب أن نقنع جميع الناس بهذا. وهنا تنطرح علينا مسألة الخطة الثورية الصحيحة. لا بالنسبة لأعدائنا وحدهم، بل وبالنسبة لحلفائنا، ولجميع أنصار الثورة الزراعية. وبالنسبة لنا نحن أيضا.

ليس المهم أن نغرق في الحركية، محاولين البرهنة على أننا أكثر الفئات الإجتماعية ثورية، واقتناعا بالثورة الزراعية. إنما وقبل كل شيء. أن نضمن التجنيد الواسع، لكل أنصار الثورة الزراعية.

علينا أن نعمل في واجهتين، في الوقت الواحد. واجهة أمامية تقود، وواجهة خلفية تدفع. وعلينا بين هذين المتناقضين، أن نجد الخطة الصحيحة.

رفاقنا. بعض رفاقنا. لا يقدرون حق القدر موازين القوى وقد غرقوا بسبب ذلك، أما في اليسارية الطفولية، وأما في التعنت الدوغمائي. وقد يقع البعض الآخر في المستقبل القريب في الانتهازية اليسارية. الانتهازية الشريفة، والتي هي أخطر الانتهازيات.

الثورة الزراعية. مطلبنا. نعم. لكن ليس مطلبنا المجرد بل إنه نابع من الاعتبار الصحيح لمصلحة الجماهير الكادحة. ولمصلحة الثورة العليا. وهذا أيضا لا يعني أنها، معركتنا وحدنا.

هنا يكمن السر. سر إيجاد الخطة الصحيحة، للعمل الوحدوي التجنيدي.

يوسف. أسقط نفسه، ورفض شهادة الطب. فضل أن يظل طالبا جامعيا. وفرض علي أن أسقط الجنين الذي نما في بطني طيلة ثلاثة أشهر كاملة.

– وإذا ما أنجبناه في مثل هذه الظروف، ماذا سنفعل به؟

– نضيفه إلى مسؤولياتنا التارخية.

– ولكنه ليس مسؤولية عاجلة. أننا لم نعثر على سكن بعد. وعندما يعود موظف شركة البترول من بريطانيا، بعد ستة أشهر، سنجد أنفسنا في الشارع من جديد. قد يكون كاتب ياسين المسكين لا يزال في المركز العائلي بابن عكنون، فنسكن عنده أسابيع، ثم يسكر ويطردنا، وقد نعود إلى الأحياء الجامعية، كل في حيه، في انتظار أن يعتبرونا، مثل جميع الطلبة المتزوجين، ويعطونا شقة زوجية. لقد حاولنا ذلك دونما فائدة ثلاث سنوات كاملة. ثم أن عليك أنت أن تنهي دراستك أولا وآخرا. وعلى ما أعتقد فإنك لن تتمكني من ذلك، إلا إذا غادر الأستاذ الشرقي الرجعي كلية الحقوق. وفوق كل هذه الاعتبارات يا زوجتي العزيزة، هنالك الخدمة الوطنية التي تنتظرني والتي يبدو أنك أهملتها تماما من حساباتك، ومن مسؤولياتنا التارخية.

أسقطناه. أسقطنا الأول. أسقطنا الثاني أيضا. ونعمل جاهدين على أن لا يخلق الثالث.

تعودنا أن نتطوع معا. لكنه هذه السنة، فضل أن نفترق. علي أنا أن أعود إلى هنا، لضمان الاستمرارية، ولدفع جميلة وثريا إلى الصف القيادي، وعليه أن يصطحب أفواج السنوات الأولى التي تضم كثيرا من المعربين، هذه السنة.

اليامنة غرقت في تفاصيل الحياة الطلابية.

«الطالبة! ما هي الطالبة الجامعية؟ من هي؟

في ظاهر الأمر تبدو تلك المرأة الجزائرية، المتميزة، التي تلقت في الثانويات نصيبا من العلم،

وقدمت إلى الجامعة لتصير «عالمة كبيرة» ولتتخلص نهائيا من السيطرة.

نظرتهم إلينا أحادية تشبه نظرة السائح الأوروبي الذي يركز مصورته على امرأتين، واحدة سافرة، وأخرى تلتف في اللحاف والخمار. يضعوننا في قناة وحيدة، تمتد من القرية، وتنتهي إلى الجامعة، تقذف فيها، البنت، القروية، ملفوفة في تعاويذ أمها، وفي آمال وثقة أبيها المنتزعة، لتخرج من الجامعة في آخر سنواتها، طبيبة، أو مهندسة، أو أستاذة، ملفوفة في الوقار والجلال، والشرف، ونور العلم.

ولكن من هم؟

من هم آباؤنا وإخواننا وجميع أقاربنا الذين تتشكل منهم هذه القناة؟

هذا ما يتجاهلونه جميعا. ولا يريدون اعتباره بحال من الأحوال.

الجامعية، هي تلك الأخت، لثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو أكثر من ذلك بكثير، التي استطاعت، أن تلفت لأول مرة في حياة الأسرة، من الإخفاقات المتتالية، وتنال شهادة البكالوريا.

لو لم تكن آهات أمها وراءها لما نجحت في الامتحانات. بل ولما واصلت دراستها. ولو لم تكن شاذة، جدا جدا، لاستسلمت لإغراءات عروض الزواج.

إنها أول من تكتشف في القرية بعد أن تنال الأهلية.

الحلاق يترك زبونه، ليقف في الباب عندما تمر. والعاطل الذي لم يستطع مواصلة تعليمه، يسير خلفها كالظل ويرسل لها مع أخته أو أية قريبة له، عشرات الرسائل الغرامية، والشرطي يتظاهر بصداقة أبيها أو أخيها، ولا يتوانى في تقديم الخدمات للعائلة، وتاجر القماش يرسل لها مع العجائز السلامات ملفوفة في قصاصات حرير، أو قمصان نوم، مخضبة بقنينات عطر نادر. مسؤولو الحزب يعرضون عليها المشاركة في المؤتمرات النسائية بالولاية أو بالعاصمة. المهم بعيدا عن القرية، ويطلبون منها التوظفت في مكاتب المنظمة النسائية. شيخ البلدية، لا يتلعثم، لا يلف ويدور كثيرا، إنه يتقدم مباشرة طالبا يدها من أبيها، عارضا عليه إعانة هامة في إطار البناء الذاتي. مسؤولو الأكاديمية، لا يفتأون ينبهونها، إلى المناصب الشاغرة في الأكاديمية أو في المدارس.

كل ذلك، منغما مع تهديدات أخيها بالقتل إن هي انحرفت عن الطريق. وفي نفس الوقت يحملها رسائل الغرام إلى البنت التلميذة التي تضاهيها في الصفات، في الذكاء والنجابة.

المسكينة، تظل تطبق على فرجها بكلتا يديها، حتى تنالهما معا: الثانوية العامة، وثقة أبيها في أنها أشرف بنات القرية، لتحصل على تأشيرة اقتحام الجامعة.

تلتحق بغرفة في سكن يضم أكثر من أربعة آلاف طالبة، وبفصل من فصول كلية من الكليات يجمع أكثر من تسعين طالبا وطالبة، ويشرف عليه شبان معيدون، لا هم لهم، إلا قص شواربهم، وتبييض أسنانهم، واختيار مودة بدلاتهم، يعملون في مساعدة دكاترة شرقيين، لم توف الوزارة بالتزامات العقود التي أبرمتها معهم ومع دولهم، ولم تعطهم سكنا لاصطحاب عوائلهم.

في العاصمة، كما في غيرها، من باقي مدن الله، كل شيء بثمن. ليس هناك أي شيء بلا مقابل.

تتأخر المنحة الطلابية، الأشهر الأربعة أو الخمسة الأولى. تدخن الطالبة، السجائر الأولى، نفثا للمرارة، واحتفاء بأولى مظاهر حريتها وسيادتها.

عليها بعد ذلك، أن تشتري الكتب المبرمجة، عليها بعد ذلك أن ترتدي الثياب اللائقة بها، عليها أن تمتلك أثمان العقاقير الأولية اللازمة للحد الأدنى من زينتها. عليها بعد ذلك أن تحتذي حذاء يلائم هيكلها وقدمها، ومتطلبات تحركها السريع. عليها أن تحتفظ بعلبة سجائرها عامرة. عليها أثناء كل ذلك أن تتغلب على الجوع الذي تتعرض له يوميا. عليها أكثر من كل ذلك، أن تدفع ثمن الاشتراك في الحافلة الجامعية، أن تجد الحافلة في الوقت المناسب، أن تصل إلى الكلية أو إلى الحي السكني الجامعي، في الوقت اللازم.

عليها. عليها. عليها.

عليها أن تتخذ موقفا من نظرات وهمسات زملائها الطلبة، ومن ابتسامات المعيدين واستفزازاتهم. عليها أن تتخذ موقفا صارما، أو على الأقل، نهائيا، من الهمسات التي تبلغ أذنيها مئات المرات في اليوم:

– النجاح في الامتحان، بالنسبة للطالبة ليس مجانا. حتى وإن كانت أكبر عبقرية.

عندما تقف الطالبة في مدخل الحي، تنتظر الحافلة، تهمس لها أكثر من واحدة:

– الشاحنة تتأخر كثيرا. سيفوتنا الدرس.

– الشاحنات لم تأت. عندي درس تطبيقي في المستشفى.

– هل تصحبيننا إلى الطريق العام. سنجد من يوصلنا لا محالة. يا أختي أنا لا أقوى على

الركوب وحدي مع أي كان. هيا نتعاون على هم الزمان.

تسأل في الأول عن أية كلية، وعن أية سنة تتواجد فيها، ثم تقدم لها عروض لتناول العشاء في مطعم على الشاطئ، أو لمشاهدة فيلم واستيرن بإحدى القاعات، ثم تقدم لها السجائر الأمريكية، ثم تستمع إلى درس في فوضى الأمور في البلد، وفي مساوئ الاشتراكية.

ثم. قد تتنازل، وقد لا تتنازل.

وبعد كل ذلك. قد لا تتطوع وقد تتطوع.

قد تؤمن بمستقبل الجزائر، ومستقبلها هي، وقد تكفر. قد تستسيغ مذاق الويسكي وقد لا تستسيغه.

قد تقبل بإسقاط الجنين الذي في أحشائها حالا، أم قد تنتظر سفرها إلى أوروبا، متواعدة مع أبيه المدير، أو الموظف السامي، الذي سيوفر لها كل إمكانيات الإجهاض، بعد أن وفر لها جواز السفر ورخصة مغادرة التراب الوطني.

لن تعود. لأن حبيبها لن يلحقها. ولأن الشرطة الفرنسية، ستضطرها بعد أسبوع إلى استظهار بطاقة التفرغ للعهر.

قد تكون محظوظة، فتعاد من مطار أورلي أو من مطار شارل دي غول، لتضعه في الحي بعد مكابدة طويلة، وتحمله بعد ذلك إلى دار أولاد الشعب بحي حيدرة الفخم.

هذه هي القديسة في مجتمع القديسين.

هذه هي الطالبة. هذه أنا. جميلة. ثريا، فاطنة، دليلة.سهيلة.

لسنا سوى حصيلة، لأبائنا وإخواننا، وأعمامنا، ولكل مجتمعنا في الأخير.

مع ذلك. البعض منا يتطوعن.

يتمكن من التمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل ويتطوعن، يتطوعن من أجل الثورة الزراعية. معرضات وجوههن الجميلة إلى التشويه بالماء الحامض وبروح الملح، وبشفرات الحلاقة.

من يجد نفسه؟ ويجد رؤيته؟ ويجد طريقه؟ إيه يا عمري. إيه

أيتها الجزائر الحبيبة. إنك تواصلين سيرك في ليل مجلل بالظلمات. وإن خطواتك إلى الأمام لمعجزة. معجزة خارقة. فهل تصلين؟

هل تصلين وهل نصل؟ إيه يا جزائر إيه.

ثريا. التي تمتشق خنجرها، وتربض عند الباب، قائمة بالحراسة، ضد ما لا تدري كنهه، لكنها مقتنعة بأنه خطر رجعي. ثريا لم تكن تفكر في شيء، وإنما، كانت تحلم.

أستطيع في كلية العلوم، أن أخترع صباغا، يستطيع من يطلي به جسده، أن يختفي عن جميع الأعين. حتى عن أعين تلك الآلات الإليكترونية الدقيقة..

أضع قائمة مطولة في معاقل قوى الظلام. في جميع معاقلها، التي تطال والتي يستحيل بلوغها.

أقتحمها واحدة واحدة. أصفي الحسابات مع القوى اليمينية. أضع حدا لكل من لا يؤمن بالثورة الزراعية.. «تشي غيفارا»، لم يكن يؤمن بالثورات السليمة. عندما يتعلق الأمر بقضاء طبقة على أخرى، فلا بد من العنف. لا بد من الدم. من التطهر بالدم. ستكون هناك بؤرة ثورية تتكون مني وحدي. سأحرر الإنسانية في هذا الجزء من العالم.

أقتحم بعد ذلك محيط الهواري بالذات. وأقدم له السند الفعلي. أجعل القطار، يتخلص نهائيا من خط الرجعة، ويندفع إلى الأمام. منطلقا. متحررا من كل العقبات والعوائق ذات الطابع البورجوازي. منطلقا سريعا، سريعا.

يأتي بعد ذلك دور كل تاجر جملة، وكل مقاول، وكل من يعمل على تخريب القطاع العام. أصفي حسابات كل دعاة إيقاف التاريخ عن متابعة مجراه.

بعد أن حرر «غيفارا» المجتمع الكوبي. انتقل إلى المحيط. الثورة لا يمكن أن تنجح، دون أن يكون لها امتداد كوني.

أناضل أيضا، على المستوى الخارجي. أنفذ المهمة التاريخية التي عجزت الأحزاب التقليدية الجامدة عن إنجازها.

أطيح بكل النظم الاستعمارية والامبريالية والرجعية.

آه. يا ملوك النفط، ويا مصاصي دماء الشعوب، ويا أيها العملاء. لقد حان أجلكم على يد الطالبة الجزائرية السمراء ثريا.

لقد صفا الآن الجو للثوريين. فلتنطلق الثورة العالمية الدائمة بلا معوقات. لتنطلق.

آه. «تشي غيفار». لو لم تكن متفردا في وقت كان يجب أن يكون فيه الآلاف من أمثالك. لحدثت الهزة الحقيقية ولا استقام العالم مرة وإلى الأبد.

جميلة. أشعلت سيجارة أخرى، وتساءلت:

– وما جميلة بوحيرد، ما كل جميلات الخمسينات، لسن سوى نساء بسيطات في مجتمع، بسيط. حملن مهام فقمن بها. حسب إمكانياتهن البسيطة. حمل قنبلة في الحقيبة اليدوية غير حمل فكرة عقائدية راسخة.

– برهما قال:

– لكل عصر لاز.

– لكل عصر جميلة.

الثورة التي تتوقف على لاز معين أو على جميلة معينة، هي ثورة جامدة، تدور في الفراغ.

وقال: من حسن حظي أن أتعرف على رفيقة تحمل اسم جميلة.

– لماذا؟

سألته، فأجاب:

– لتكتمل لدي الصورة.

صمت قليلا، ثم أضاف:

– لا أتصور اسما لتلك التي كانت تقود الجيوش منطلقة من الأوراس حتى مشارف ليبيا، حاملة أول لواء لرد غزو أجنبي بصفة منتظمة، غير اسم جميلة. كما لا أتصور أي بطل جزائري تمكن من لعب دوره التاريخي، بدون جميلة.

في أقصى الجنوب، على بعد ألفين وخمسمائة كيلومتر. ترقد الملكة تينهينان. وفي الشرق ترقد القائدة الكاهنة. وفي الوسط، تنام البطلة لالاّ خديجة. وفي الغرب ترقد لالاّ فاطمة بن يوسف وفي كل شبر من بلادنا تنام أو تستيقظ جميلة.

لست أدري هل قال برهما، أن دور جميلتنا، أخطر مليون مرة من دور جميلتهم. أم لا؟ لعله قال ذلك. بل لعه عبر عنه بأسلوب آخر.

لقد جعلني أفهم ذلك على كل حال. كما جعلني أعتز باسمي بعد أن كنت أتضايق منه.

جميلة الثورة الوطنية كانت تكافح في واجهة واحدة. بل. كانت تدافع عن نفسها، وعن إخوانها من بني جلدتها، لا غير. أما جميلة الثورة الديموقراطية الشعبية، فتكافح في واجهات لا حصر لها. إنها تهاجم. وهذا ما يميزها، ويقدسها عن باقي الجميلات. دون استنقاص للدور التاريخي الذي أدينه.

إن جميلة هي دائما وأبدا في هذه البلاد إمتداد لجميلة. حتى أنه ليصعب على المرء أن يميز بين تينهينان وبين باقي الجميلات.

ليس من السهل بروز، جميلة، حقيقية ناصعة كالشمس.

تمتمت جميلة، وتنهدت وأغمضت عينيها، تتأمل بعض فصول حياتها.

كانت أمي تمسك بيد ميت، سرقت لها من المقبرة بمبلغ باهظ، وتفتل في جفنة خشبية كسكسا، تعده خصيصا للضيف. وتذر عقاقير وأعشابا قائلة:

– من الجد للجد، وقريتنا معروفة «بمردودها». الخطيب الذي يأكل المردود لا بد أن يتزوج المخطوبة، ولو اعترضت زواجهما ألف تابعة وتابعة. الزوج الذي يأكل المردود، لا بد أن يعود إلى زوجته وإلى هذه القرية بالذات، ولو كان في بلاد الواق واق، وتفرق بينهما البحار السبعة. أنت أول من سيفرح به بيتنا يا جميلة بنتي.

– يا أمي أفهميني جيدا. لم يبق بيني وبين الانتهاء من الدراسة، سوى ثلاث أو أربع سنوات. دعوني أذهب إلى الجامعة وأتخرج، ثم افعلوا بي ما تشاؤون.

– لا. يا بنتي. هذا قرار أبيك. مصلحته ومصلحتنا جميعا، تحتم أن نتعاون على تنفيذ هذا القرار.

أبي وقتذاك. كان موظفا متوسطا، يعمل لحسابه أكثر مما يعمل لحساب الدولة. استطاع بإمكانياته الخاصة، أن يبني لنا منزلا ذا طابقين بالقرية. كان الثاني أو الثالث من ذلكم النوع. كما استطاع أن يشتري فيلاّ، في ضواحي العاصمة، أجرها لسفارة، وأن يحصل على شقة تابعة لأملاك الدولة وسط مدينة الجزائر. وأن يشتري سيارة، من أحدث طراز. وأن ينفق علينا دائما بسعة كبيرة.

منطقتنا لا تبخل، بدفع الرشى، لأتفه الأسباب. وأبي، لا يتمنع من طلبها، لأبسط الخدمات التي كلفته الدولة بأدائها.

هدفه العاجل أن يحصل على الشهادة البلدية المعترفة بالنضال أثناء الثورة المسلحة وعلى منصب أعلى بكثير، وأن يعمل ولو لفترات وجيزة في معظم المدن الجزائرية.

هادئ. يبدو عليه الخجل الدائم. لا يفكر بالصوت العالي إطلاقا، يتمتع بالثقة الكاملة لدى جميع الناس.

وعد قريبَ شخصية هامة، بتزويجي له بعد أن أنال البكالوريا. وها أنني قد نلتها وها هو ذا

قادم الليلة، ليتعشى المردود عندنا، ويتقدم لخطبتي بصفة رسمية، ونهائية.

– وماذا ستفعلين في الجامعة. إفرضي أنك نلت الليسانس، وحتى دكتوراه في الذرة. ماذا ستنالين من الوظيف العمومي. تتجاوزين السادسة والعشرين، وتتزوجين من يصادفك وتعودين إلى طبيعتك. امرأة تقوم بشؤون المنزل، وتنجب الأطفال.

بلادنا ليست أمريكا، أو ألمانيا، أو حتى فرنسا. ولن تكون كذلك بعد مائة عام. فماذا ستفعلين بالشهادة.

الزوج الذي اخترته لك. غني. يملك عقارات وأراضي، وفنادق في أوروبا. وهو فوق كل ذلك، قريب لسي أحمد، كما تعرفين.

سيشتري لك قبل الزواج سيارة مكشوفة رائعة، وسيثقل يديك اللطيفتين بالأساور، وباللؤلؤ والياقوت. سيطوف بك العالم.

هذا كله ليس مهما أمام ما أتنبأ به لزوجك. سيكون، طال الزمن أو قصر. وزيرا أو على الأقل كاتبا عاما لوزارة أو مديرا عاما رئيسا لشركة وطنية.

ترقيتي أنا إلى منصب أعلى واردة، بل مضمونة. لكن ليس هذا ما يهمني في الفترة الراهنة لأنه لا أحسن من العمل في الصفوف الخلفية، بعيدا عن أولاد الحرام، وانشغالاتهم. أولئك الذين ينامون، ولا يتركون غيرهم ينام. وما أكثرهم في هذه البلاد.

أعدت أمي المردود الذي فتلته بيد ميت. حضر الخطيب مع أبي، مصحوبا بسلة ضخمة، تحوي الخيرات، كما قالت أمي.

كان في الأربعين. أسمر. ممتلئا. أخضر العينين. غليظ الحاجبين. حيويا. طليق اللسان. يتحدث عن العواصم والمدن الغربية، أكثر مما يتحدث عن الجزائر التي تبدو له بعد هجرة الفرنسيين لها، مقبرة لا شيء يشد الإنسان، أو يجذبه إليها.

تزوج ثلاث مرات، ولم يفلح في زواجه.

– تلزمني امرأة مثقفة. تستطيع أن تحيا معي في لندن وبروكسيل وباريس. كل الزوجات الأخريات التي اقتناها لي أبي أميات جاهلات. لا يلقن إلا للرقص في الأعراس. هاهاه. عمي سي احمد، وافق على مصاهرتنا لكم. والعرس سيتم في أحد قصوره وبمحضره.

أعاد هذا الكلام أكثر من مرة. في كل مرة يستعذبه أبي أكثر ويجعلني أقترب من فهم كنه الرجل

الذي سيأكل المردود المفتول بيد ميت أكثر.

سمح له أبي بالخروج والتجوال بي. أينما شاء. وأشاع خبر خطبتنا، في كامل المنطقة وتقبلها الجميع بالرضا والسرور. ويمزيد من دفع الهدايا والرشى لأبي.

- هذا الرجل لا تليق به سوى جميلة.

- قل لن تقهره سوى جميلة.

- لن يأكل ثروته غير أبيها.

- الطيبات للطيبين والخبيثات للخبثاء.

أقنعته بعد أسبوع. أنني لن أتخلى عن مواصلة الدراسة وأنه إذا كان حقا، أحبني -كما قال- منذ كنت صغيرة. فليس أمامه سوى أن يتركني أتمم دراستي في الجامعة.

- إذا كنت راغبة حقا في ذلك، فسأعطيك حريتك، بشرط واحد.

- ما هو هذا الشرط؟

- ما يعز على كل البنات، منحه لغير أزواجهن.

- لحقت متأخرا. لقد أعطيتها لفلسطيني منذ زمن بعيد وهذه مناسبة لأصارحك بذلك حتى لا تصطدم. إنك شاب عصري غربي التفكير، ولا تهمك الشكليات على ما أعتقد.

- الفلسطيني الكلب. ولم فعلت ذلك؟

- أغواني. كان لا بد أن أعطيها لأحد. ففضلت مسافر جميلا، لن ألتقي به ثانية ولن يتبجح على إخواني.

فترت علاقتنا. دخنت من يده. ذقت الويسكي على يده نمت ليلة كاملة إلى جانبه.

سافر إلى أروبا على أمل أن يعود، لكن بعد شهرين، سمعنا خبر زواجه الرابع بشقراء. تأسفت أمي، على عدم مفعول مردودها. دخلت الجامعة.

سمح لي أبي بذلك عن طيبة خاطر.

* * *

ضجت القاعة، بالأشباح المتراقصة، وسط أضواء خافتة، متحركة، تنبعث من زجاج النوافذ.

فتحت البنات أعينهن، ورحن مندهشات، خائفات، يتأملن خيالات الثياب المعلقة، والصور المهزوزة المتشبثة بزجاج النوافذ، وأغصان شجرة الخرنوب، وهي تتحرك كلها في القاعة التي ينمن فيها.

بدت القاعة في الأول ترتج. سفينة عائمة وسط المحيط. سلطت عليها أضواء كاشفة من الخارج.

وثبت ثريا من مقعدها، بعد أن استلت خنجرها، وراحت تتأمل الوضع، في باحة التكميلية وحول شجرة الخرنوب.

لم تكن خائفة. ذلك أنها كانت بصدد اغتيال شخصية هامة أثناء أحلام يقظتها الثورية.

لحقتها جميلة ثم اليامنة، ففاطنة، وباقي البنات. استغرقن كلهن، يتأملن مشدودات الأنفاس، ما هنالك.

كانت عدة شمعات توقد وتوضع في أواني من طرف نساء في مختلف الأعمار. يلتحفن كلهن بالبياض، ويتشكلن مع الشمعات في حلقة حول الشجرة.

انحنت واحدة، وراحت تزحف، نحو جذع الشجرة. تمددت فوق التراب، وبدت كما لو أنها تقبل الأرض، أو شيئا ما كان على الأرض، وراحت تئن بصوت متهدج كالجريحة:

– يا سيدنا اللاز. يا ولد سيدي عبد القادر. جئت أقصد جاهك وعزك. جئت من بلاد بعيدة يا ولي الله ويا روح جميع الصالحين.

أعدني إلى فلذات كبدي. رابحة وصفية وسليمة ومباركة، وخدوج.

إنهن صغيرات. الوحدة منهن على رأس الأخرى. الكبرى لا تتجاوز السبع سنوات. كنت أستعجل الإنجاب، لعل الله يرزقني بذكر، فيطمئن قلبي وقلبه. لكن في كل مرة، كنت ألد أنثى وكان يبتعد عني أكثر.

صبرت للسب، والشتم، والضرب، والرفس، من طرفه ومن طرف أبيه وأمه وإخوته. لكن يا سيدي اللاز، يا حبيب الضعفاء المساكين. كيف لي أن أصبر على فراق ست..؟ فلذات كبدي يا سيدي الحنان.

انتزعوا الصغيرة. زليخة. من صدري. كانت ترضع. كان ثديي في فمها. كان الحليب على

شفتيها. أغلقوا علي الإصطبل يوما وليلة. لم أكن أفكر في جوعي أو عطشي. إنما كنت أستمع إلى صراخ فلذات كبدي وأصرخ. أصرخ كالمجنونة. لكن لا أحد أغاثني وأغاث الملائكة البريئة.

في صباح اليوم الثاني. أوصلني أبوه، إلى دار أمي، وأقسم بالإيمان القاطعة، أن لا تجتاز قدماي، عتبة داره ما دام على قيد الحياة.

أمي وحيدة. أرملة. أرملة شهيد. وأنا ابنة شهيد. يا سيد الشهداء، يا سيدي اللاز ولي المحقورين.

عادت المرأة إلى الخلف، منحنية، كأنها في حضرة ملك الملوك. لم يكن وجهها الملثم ليظهر، لكن المؤكد، أنه كان مبتلا بالدموع. وأن الغصة تملأ حلقها. وأن عينيها محمرتان كالجمر.

تقدمت امرأة أخرى، منحنية بدورها، في يدها مبخرة. طافت بها سبع مرات باللاز، وبشجرة الخرنوب التي كان يلتصق بها، ثم واجهته محافظة على انحناءتها.

قبلت أطراف قشابيته في شغف ثم راحت تتضرع:

– أبخر لك وأزيد. أبخر وأعيد. الليلة، والليلة القادمة، وكل الليالي، وطوال ما أنا على قيد الحياة. يا سيدي يا شفيع المغلوبين. الملائكة تسبح لك والروح. الجن والعفاريت، تخدمك مطيعة ذليلة، والنجوم والكواكب تنتظر كلمة منك، لتعلن عن ساعة الفناء.

يا من لم يكن لك أب أو ولد. ولا أم ولا سند، يا من خرجت من شعاب الخلود. جسدا يضم كل أرواح الطاهرين والصالحين.

يا ولد سيدي عبد القادر الجيلاني. يا سيدي اللاز. يا سيد الخير. يا مولى البرهان.

جئتك. قصدتك. وليس لي سواك من مقصد. أستغيث بك وأستجير. ألطف بي، وبالسبعة الذين ورائي يا سيدي اللاز.

هذه أربع عشرة سنة تمر على زواجنا. أعطيته خمسة أسود، ولبؤتين. كانوا جميعا خيرا وبركة عليه. يوم تزوجته كان مجرد بائع خضار في الشارع. أية خضار يا سيدي اللاز. صندوق بصل، وصندوق فول، عندما ينخفض سعره، الميزان يستعيره كل مرة من متجر جاره. متجر أبي يا سيدي اللاز.

فتحا لله عليه بسببي، وبسبب الأولاد، وبسبب الحرب. كان يتاجر مع ثكنة عسكر الفرنسيين. ولما صار بعد الاستقلال ما صار. هرب علي، وتركني أنا، والسبعة، للشر والبؤس يا سيدي.

لم يتزوج بعد. لكن بلغني أنه لا يخرج من دارها. زوجة الحركي الخائن، الذي هرب إلى فرنسا. بعد أن قتل ما قتل من إخوانه.

زوجها الخبيث هرب عليها دون أن يفك عصمتها، وزوجي الخسيس دخل عليها بلا فاتحة، ولا عقد.

هذه سنة لم أر فيها حذاء أو قميصا أو منديلا. وها أنني كما تراني عارية، لا يسترني سوى هذا اللحاف الممزق. أما أبنائي وبناتي يا سيدي العزيز.

آه يا سيدي. يا سيد العدل والحق.

لقد بدا يغريهم بالاستقرار في دار زوجة الحركي التي بدأت تزاحمني فيهم. وتتظاهر بأنها أمهم الحقيقية. أما أنا، فلست سوى ساحرة. هرب علي أبوهم خشية أن أسممه.

وكيل الدولة طردني يا سيدي. كنت أتحدث وكان ينظر إلى يدي، وعندما فرغت، قال اغربي ولا تعودي.

اعمها يا سيدي اللاز، أصبها بالجذري. بالجرب. بكل الأمراض الخبيثة. إجعل رأس شعرها ينسل شعرة فشعرة. تاركا خلفه القرح والقيح. إجعله ينفر منها ويعود لأولاده. وعدتك كبيرة. كبيرة يا سيدي اللاز. أذبح ثورا، وأطعم كل فقراء القرية، باسمك يا ولد جميع الصالحين.

أغثني أنصفني. ارحمني. لا تيتم أبنائي. وترملني في حياة الزوج والأب.

أنا ولية. ضعيفة ومسكينة.

أجهشت المرأة ووقعت على الأرض، تطايرت جمرات مبخرتها. سارع بعض النساء لإعادتها إلى موضعها في الحلقة. بينما كانت هي تتشبث بقدمي اللاز الحافيتين، تلثمهما.

تقدمت امرأة أخرى، تبدو عليها الحيوية والنشاط. ربعة ممتلئة. وقفت لحظات أمام اللاز. تأملته في نهم. ثم التصقت به، وراحت تتطاول على ذراعه اليمنى لتنزل يده. حاولت مرات عديدة، لكنها فشلت في إنزال اليد. فراحت تجهش.

– لماذا يا سيدي اللاز؟ لماذا؟

– المسكينة تحب الأولاد.

قالت عجوز فتساءلت امرأة بجانبها:

– مازالت صغيرة، ورحمة ربي واسعة.

– مر على زواجها سنة ولم تنجب بعد. تعرفين يا أختي ماذا ينتظر أمثالها خاصة عندما تكون حماتها معها في البيت. تجس بطنها عشر مرات في اليوم، وتراقب بولها كل صباح.

طلبت من زوجها أن يعرضا نفسيهما على الطبيب. البنت مثقفة. قربت الشهادة الكبيرة ولم تنلها. لم يمهلوها. تعرف تفاصيل كل الأمور. لكن زوجها، اكتفى، باصطحابها، هي وأمه وأختيه إلى حمام الصالحين.

تحلف و«تتكتف»، أنها لم تذق طعم ماء حمام الصالحين، ولم يلمس جسدها. منعتها حماتها من دخول الحمام، وأجبرتها على أن تظل في البهو، تحرس ثيابها وثياب ابنتيها. قائلة لها، قد تذيب حرارة الماء، الجنين الذي، قد يكون ابني وضعه في رحمك.

صبرت، وصبرت، وهاهي تغتنم، فرصة زيارتها لأمها، وتخرج في الليل البارد لتتبرك بالسيد الجليل.

– لكن في مثل هذه الحالات. زيارة سيدنا، تكون في مقامه وليس هنا. يكفي أن تتمدد المرأة إلى جانبه، عارية كما ولدتها أمها، سبع دقائق لا غير، لتصبح حبلى. هذه مجربة يا أختي. وكم من امرأة أشرفت على الطلاق، فأغاثها سيد الغوث والبركة.

كانت المرأة قد انتزعت اللحاف عن هيكلها، بدت جميلة عذبة مثيرة. لا تتعدى الثامنة عشر على أقصى تقدير.

رفعت بكلتا يديها قشابية اللاز، معرية فخذيه. أدخلت رأسها تتلمس شيئا. سارعت امرأة إليها راحت تعينها.

– هاهو هنا. تلمسي. البركة هنا. بمائة ألف. أمكنك من المبيت معه. خيرة وصالحة وهنية، لم ينجبن سبع سنوات كاملة وبمجرد ما أن نمن معه. امتلأت بطونهن.

كانت يدا المرأة منشغلتين، وكأنما هي تحلب بقرة. وكانت مصرة أن تنال مرغوبها في التو.

– مسكينة. يحسن عون الولية. العباد لا ترحم. ومن خانه الزمن، لن يرحمه أحد.

– علي وعلى ذراعي وعلى ربي وعلى سيدي اللاز أولا وأخيرا أوصلها إلى سريره ويعطيها أجمل طفل، وإلا ما كنت أنا.

– أطفأن الشموع.

– لتطفأ الشموع.

– سيدنا. نوره شعشع.

– النور شعشع. أطفأن الشموع. «ما يفيد ضوء القمر حين تسطع الشمس».

– البنت مباركة. سيدنا لطف بها.

إنطفأت الشمعات الواحدة بعد الأخرى. سادت الظلمة. عم السكون، عدا لهثات امرأة كانت تحتضن ملء قوتها، شبحا ينتصب مصلوبا تحت شجرة الخرنوب.

مرت لحظات طويلة، قبل أن تتراقص الأخيلة في القاعة، ويعم نور الشمعات الباحة، ويتجلى المنظر.

كانت النساء المتحلقات، يزغردن في صمت. كانت حركات أيديهن وألسنتهن، وحدها، تبين أن زغردات مكبوتة، تنطلق عالية، صادحة قوية. في مكان ما. لعله غرب الغرب، حيث لا تستطع شمس، ولا يتجلى نور. ولعله عين الشمس بالذات.

وكانت الفتاة السمراء المثيرة، مستلقية على الأرض عند قدمي اللاز. عارية الفخذين. تلهث مغمضة العينين، والبسمة تتراقص زاهية على شفتيها. بينما اللاز، لا يزال ينتصب مواجها الغرب، ذراعاه مفتوحتان، رأسه مرفوعة. رجلاه منفرجتان بعض الشيء. عيناه تتأملان عدما سائدا في مكان ما، من الكون الرحيب.

تقدمت فتاة أخرى ملتحفة. أخرجت قنينة عطر، صبتها على رأسه، ثم ركعت، وواجهته:

– يا سيدي يا عزيزي. خطبني وسافر. ركب البابور وشق البحور. لم يعد هذه أربع سنوات، ويكتب من حين لآخر، لكنه لا يذكر إطلاقا في رسائله، أنه سيعود.

يا سيدي يا عزيزي. وعدتك كبيرة، يسمع بها القاصي والداني إن أعدته، أو إن خصلتني منه. عمري ست عشرة سنة، وإن مرت علي سنة أخرى أو سنتان. فاتني الركب، وقضيت باقي حياتي عانسا.

أنا موافقة على كل شيء يا سيدي العزيز. يذهب بي إلى فرنسا، أو يتزوج علي رومية أو إنقليزية، أو يدخل علي، ثم يتركني ويهاجر. سأنتظره سنة وسنتين وعشرين.

المهم أن أخرج من دار أبي، مرة في حياتي، عروسة.

وعدتك كبيرة يا سيدي، عزيزي، يا سيدي اللاز. يا من لم يقصدك بئيس وخاب. أنا بئيسة ومستعدة لكل أنواع البؤس عدا أن أظل في دار أبي.

إرحمني يا من لا يرحم سواك. أغثني فإنني مستجيرة بك، ولا أحسن الدعوات، ولا كيف أتخلص، من خجلي وحيرتي.

تقدمت امرأة أخرى يبدو أنها غير مستعجلة، لا في مشيتها ولا في مطلبها. وضعت ورقة نقدية في قلنسوته، ثم واجهته:

– هو الذي أرسلني إليك. وهو قال توسلي إليه. وهو الذي أعطاني هذا المبلغ يا سيدي اللاز. يا ماسك حبال الخير والشر. ويا من تقوم على كاهلك رعاية قريتنا الصغيرة. المسكينة.

رفعت صوتها وهي تلتفت إلى باقي النساء. كأنما تخاطبهن هن، لا اللاز.

– قال لك. أعني في الانتخابات القادمة، إجعل قلب الوالي ورئيس الدائرة يلينان علي ويميلان إلى جانبي. واعم منسق القسمة، حتى لا يعترض، فيقسم الناخبين حولي.

يقول لك. سأعبد كل طرقات القرية، حتى الخلفية التي لا يسلكها إلا ساكنوها. سأنير القرية بأكملها، حتى أكواخ الحي القصديري. سأرأف بجميع الناس وخاصة المظلومين. سأقف إلى جانب كل صاحب أرض. وأقسم بالله العلي العظيم، أن أعتبر كل قطعة أرض تتعرض للتأميم أرضي أنا. أدافع عنها وعن صاحبها كما أدافع على أرضي وعلى نفسي. سأخلق ورشات عمل مختلفة، وسأجمع فيها كل من لا أرض له، أو انضم إلى تعاونية، حتى أحل المشاكل حلا صحيحا، يلائم الجميع.

لا يجوع الذئب ولا يغضب الراعي.

يقول لك. إذا نجح في الانتخابات البلدية القادمة. يفرش كوخك بالأجر، ويدخل إليه الماء والكهرباء ويسيج ألف متر تحيط به. ويغرسها بالأشجار والأزهار. ويجعل خادمة رسمية، على بابك حتى لا يضايقك أحد، غير الزوار المؤمنين.

يا سيدي اللاز. يا من كنت قبل أن تكون الأرض. وخلقت قبل أن تخلق الأعراش والبلديات. وقمت قبل أن تقوم التربة. زوجي المسكين. هذه المرة الثالثة، يترشح للانتخابات، وقد أعد هذه المرة ثلاثمائة خروف وسبعين بقرة وعجلا. وأربعة ألاف لتر من البنزين. ومائة سيارة، تنقل الناخبين، وعشرة قناطير من الكسكسي، فتلت أنا الكثير منها، وفتل الباقي قريباته.

نطلب منك الرحمة يا صاحب الرحمة. فلا تخيب طلبنا. وعدتك أكبر من جميع الوعدات. ستسير على الحرير، وستفرش الريش. وسيكون لك طباخة، وفراشة، وحارسة.

نحن أنت وأنت نحن. فكن في عوننا نكن في خدمتك. يا سيد النور والظلمة. لا نطلب منك سوى أن تجعل الوالي ورئيس الدائرة يقبلان هدايانا ويعطفان علينا.

ولسبب ما، رفعت المرأة يدها إلى فمها، وأطلقت زغرودة حارة طويلة. جعلت باقي النساء يتبعنها، ويطلقن الزغاريد الحيرى، تشوش سكون الليل المصقع.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

– انطلق اللاز، يعيد نداءه ثلاث مرات. اشتعلت أنوار الباحة تنيرها. نزل الشيخ مبارك مدير التكميلية يحمل بندقيته، ويقود كلبا ألمانيا أسود.

– تفرق الجميع، وظل اللاز منتصبا تحت شجرة الخرنوب، يواجه الغرب.

* * *

ما أن غادر الشريف وجميلة وعبد القادر عيسى بوعين، حتى قرر هذا، أن يقوم بعمل ما. ساءه، أن تتعرض جميلة، وأصدقاؤها، إلى الأذى.

مهما بدوا سعداء فلا شك أنهم أشقياء. المساكين يتركون منازلهم، والراحة من عناء الدراسة، ويأتون إلينا، ليقدموا لنا يد الإعانة، يزرعون معنا البطاطس والثوم والبصل، ويعيشون أسابيع شبه جائعين، ثم يعودون.

يعطونهم ثلاثمائة دينارا، إعانة، لكن يأكلون منها ويشربون ويدخنون. ولعلهم يوفرون منها ما يعوض لهم أحذيتهم التي يقضون عليها وسط طيننا وأوحالنا.

إنهم مجاهدون. حقا. ثوار. يستحقون الدعم والإعانة.

وحتى لو أنهم ليسوا كذلك. فمجرد قدومهم إلينا، هاتفين بحياة الهواري، يضعهم في مصاف المجاهدين.

من يحب الهواري في قريتنا؟

أبدأ بنفسي قبل غيري. أنا شخصيا أحبه، أمي أيضا تحبه. لكن أبي وكل تجار القرية يكرهونه.

عضو الاتحادية الذي أوقفني عن العمل سنتين كاملتين، هل كان يفعل ذلك لو أنه يؤمن بمبادئ الهواري، أويحبه؟ كلا وألف كلا. ذاك ليس سوى لص، منافق متعجرف جهول.

منسق القسمة الحالي. سي منصور وما أدراك ما سي منصور، من سي طز. همّه في إدارة الضرائب التي يشرف عليها، أن يتحايل على أن لا يدفع الأغنياء الضرائب.

الهواري انتزعها على الفقراء وهو رفعها على الأغنياء. لا يفعل ذلك لمجرد العطف عليهم فحسب. إنما لأنه يأخذ عليهم الرشى. استطاع وهو الموظف العادي، أن يبتني قصرا، لا يضاهيه سوى مقر الدائرة بالمدينة.

ترشح إلى انتخابات القسمة، وفاز قبل حمو المجاهد. اعتمد على العروشية التي تحرمها قوانين الحزب وتعتبرها من المخالفات الكبرى. واستولى على المسؤولية السياسية الوحيدة في القرية.

هل يحب واحد من هذا النوع الهواري؟ محال. محال. ألف محال يا عيسى بوعين.

يتظاهر بالدفاع عن الإسلام، ويتآمر على الطلبة باسمه، إنه أبعد ما يكون عن الإسلام. لا يصلي. ولا يعطي صدقة. يسكر. نعم يسكر. عرفت – بالطريقة الهندية، أنه دعا مسؤول الدائرة إلى العشاء في بيته. مخبرا إياه بأنه احتفظ له، بذخيرة محترمة من الويسكي الجيد. كان ذلك قبل

الترشيحات للانتخابات البلدية الأخيرة. وكان بلا ريب، يعمل على تزكية مرشحه الذي أقسم حمو، على أنه ابتز منه رشوة، يفوق مبلغها المليون.

إذا لم أفعل أي شيء من أجل إنقاذهم، فلن أكون غير خسيس، معادي للاشتراكية غير ملتزم بمبادئ الهواري.

نعم. ثم إن جميلة. هذه الرائعة، ذات العينين الساحرتين، والبسمة القاتلة، والتي تحفظ أحكام الويد، لن تكون إلا هندية. لا بد أنها منحدرة من أصل هندي، أو متناسخة مع دنيا زاد خطيبتي، من روح برهمن صالح. جميلة. يتحتم علي أن أكون في عونها وعون أصدقائها.

هذا التسجيل، يجب أن أستنسخه، في نظائر كثيرة، وأرسله إلى جميع المسؤولين، بدءا بالهواري.

«إن إطعام برهمن واحد عالم بأحكام الويد الخاصة بتقدمة الأجداد، يساوي من الأجر إطعام مليون برهمن جاهل بها».

فإما أن أقضي على سي منصور، وإما أن يقضي علي «هاون.هاون».

أُطلع حمو منسق قسمة قدماء المجاهدين أولا، ثم أتدارس معه الوضع. يجب أن نجد طريقة ذكية، نقضي بها على سي منصور الخبيث.

علق آلة التسجيل في كتفه، وامتطى دراجته النارية، وانطلق يشق أنهج وشوارع القرية المظلمة، صعد إلى الأعلى، فوق رحبة الأغنام، وتقدم من الحمام سائلا عن حمو.

– تعود أن يسهر هنا. لكنه الليلة لم يأت. لعله في منزله.

واصل طريقه إلى الأعلى، نحو الحي القصديري الذي، نبت قبل الاستقلال بصفة فوضوية وتضاعف بعده، مكتسبا إلى جانب صفة القصديرية، صفات أخرى. فهو بالإضافة إلى أنه عرف، دورا حجرية، وأغطية قرميدية، وبعض الأبنية الترابية، عرف، أو بالأصح عاش قضايا متعددة مقعدة، أكسبته نعوتا كثيرة أهمها، حي شيكاغو، وحي طانجة، وحي الهنود الحمر وغير ذلك.

شق أكوام قمامات، ومجاري مياه نتنة، وأحمرة وأبقار وأغنام ودجاج، وأطفال يلعبون، وبنات يغنين، وعجائز يتبادلن أخبار وأسرار الحياة.

وصل أخيرا إلى كوخ زيدان، حيث أضاف، حمو جنبه، غرفة حجرية مغطاة بالقرميد، ومطبخا، ترابيا مغطى بالصفائح، قبل أن يتزوج يخوخة، إبنة صاحب الحمام السابق الذي سقط شهيدا هو

وابنتاه، ليلة هرب اللاز وقدور.

كان العسكر، قد صمموا على الاعتداء على البنات الثلاث، وكن قد عقدن العزم مع أبيهن الشيخ، على الدفاع عن الشرف، حتى الرمق الأخير.

لجأ الشيخ إلى فأس، حملها وهوى بها على رأس عسكري، كان يصارع علجية. سقط العسكري مفجوج الرأس. سقط بعده الشيخ بقذفة مطولة من رشاش. اختطفت مباركة الرشاشة، حيث كانت واقفة إلى جانب العسكري وراحت تطلق النار كما صادف.

تحول بهو المنزل الصغير، إلى ساحة معركة حامية، مات فيها خمسة عساكر، واستشهد الشيخ وابنتاه، بينما استطاعت خوخة أن تتسلل إلى الخارج، وأن تختبئ وسط الزبل في فرن الحمام حتى مطلع النهار، حيث التحقت بأقاربها في البادية، ثم بالجبل، لتعمل ممرضة في صفوف جيش التحرير وفي المنطقة التي كان بعطوش قائدا لها.

إلتف أبناء زيدان وبناته، وكثير من أطفال وعجائز الحي، بما في ذلك أم زيدان وحمو وزوجة زيدان. إلتفوا حول عيسى ودراجته النارية، وراحوا كلهم يهتفون قبل أن يبادر بالسؤال:

– عمي حمو ليس هنا.

– سي حمو لم يعد بعد. تعشى وخرج.

– ركبني معك.

– أعطني دورة. إنني أحسن سياقتها. إن عاد أبي من فرنسا فسيصطحب معه واحدة أجمل من هذه.

– هل تسير بالبنزين، أم بالكاربير؟

– يماها هذه. يماها.

– لا. إنها فرنسية وليست يا بانية.

إضطر عيسى إلى الترجل، والهروب بدراجته، حاملا إياها على كتفه، قبل أن تخبره خوخة أين يمكن أن يتواجد حمو، في مثل هذا الوقت.

– أعرف. أعرف.

قال وهرب. ركب دراجته، وانحدر حتى الحمام. استدار قبل أن يصله يمينا، وراح مرة أخرى يشق الحفر والنتوءات في غير ما عجلة. استدار مرة أخرى يسارا، ثم انعطف إلى اليمين، وتوقف عند أول

باب، يبدأ به الشارع الضيق.

– حمو لا يكون إلا عند عمي الربيعي المسكين.

قال بالصوت العالي، وضرب بيده الباب طارقا.

كان حمو بالفعل هناك، كعادته هذه أربع سنوات كاملة، فما أن يجد متسعا من الوقت حتى يقصد منزل الشيخ الربيعي، تارة وحده، وتارة يصطحب أمه أو خوخة زوجته.

يفتح باب الحوش بالمفتاح الذي يحتفظ به دائما معه، ويقصد مباشرة الغرفة التي يتمدد بها الربيعي مستسلما، للحمى وللهذيان ونهش السرطان لعظامه، وللأوساخ من كل نوع وللذباب.

«الطائرات تجيء هذه المرة من المغرب، خبروا المجاهدين بذلك. الحركة والقومية هم الذين يسوقونها، إعلموا ذلك. إن الفرنسيين يركبون الأحمرة، في حين يقود القومية الطائرات. موريس يركب حمارا، وجون جان يسير حافيا، والحاج الطاهر يحمل على ظهره حمارا أجر».

إنني أراهم. هاهم، هنا. ها هم هنا.

قولوا لرئيس المجاهدين، إتق شر من أحسنت إليه. وإياك من المختار ولد داده. إنني أراه الآن يحمل خنجرا ويهاجم الثوار. خذوا حذركم منه، لقد أحسنتم إليه فإياكم منه.

إنني أرى ألف ألف مختار ولد داده، فإياكم من مختار هذا.

إعطوني الدواء آه يا إخوتي. أغيثوني بالدواء. النار تتقد في ظهري وذراعي. حيزية يا حيزية. هات الدواء. هل أخرج بعطوش الراعي العجول أم لا يزال نائما. قولوا لبعطوش عمك سمح لك. سماح الدنيا والآخرة.

الوحيد في القرية الذي أخطأ وعرف خطأه ودفع ثمنا غاليا له.

كلكم اندفعتم بأخطاء غيركم أما بعطوش ابن أخي فقد اندفع بخطئه وحده. إنه إندفع يدفع ثمن خطئه.

سماح الدنيا والآخرة يا بعطوش، با ابن أخي. سماحي وسماح خالتك. زيدان وقدور، والحاج فرحات. وكل الشهداء يشيرون إلي الآن من الجنة، إن بعطوش مجاهد. مجاهد، يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب.

حمو يثق في كل كلمة يقولها الشيخ الربيعي الطريح، منذ أكل السرطان كل شيء فيه، ولم يُبق سوى على وجهه، ورأسه وعينيه. إنه أشد وعيا من جميع الأصحاء رغم غيبوباته المتتالية

عشرات، بل مئات المرات في الساعة الواحدة.

قال له مرة، المجاهدون يرسلونك إلى العاصمة، فلم يمر أسبوع، حتى انتخب مندوبا لمؤتمر المنظمة وسافر. ليظل طيلة غيابه يفكر في الربيعي، وفي حاله، وفي الغيب الذي يطلع عليه، وصمم أكثر على أن لا يتخلى عنه، حتى يتم الوعد الذي قضى به المولى.

مرة أخرى قال له، اتركني واذهب إلى دارك. خوخة تعاني المخاض. لا تفارقها حتى تمام الرابعة. سم ولدك هذا قدور ياحمو.

كان الأمر كذلك.

مرة قال له. بلغ تعازي إلى أبناء احمزي. قل لهم إنني لا أستطيع أن أمشي في جنازته.

كان أحمزي يلف ويدور في القرية، سالما معافى، تأمله حمو ولم يقل له شيئا، ورثاه في قلبه، عندما سمعه يرد على سؤال شخص، بأنه بخير وعافية يحمد الله على صحدة البدن. تأمله جيدا، كأنما يقيس القبر الذي سيضمه عما قريب. ثم استغفر الله. فالربيعي المسكين، رجل مريض وليس كل ما يقوله صحيحا. الموت، علم غيب، لا يعلمه إلا الله عز وجل. لكن مع ذلك ظل واثقا من أن جنازة احمزي قريبة.

نام احمزّي في الليل ولم يستيقظ في الصباح. مشي في جنازته وبلّغ أبناءه، تعازي الربيعي واعتذاره عن عدم المشاركة في الجنازة.

مرة أخرى قال له: دع الباب مفتوحا فإن ابن أخي قادم على كتفيه نجمات رتبة جديدة. لم يمر نصف ساعة، حتى دخل بعطوش كما وصفه الربيعي. يحمل أدوية ويصطحب طبيبا.

كانت الصلة بين بعطوش وحمو قد توطدت، خلال السنوات الست، التي قضياها معا في الكفاح المسلح. كلاهما يعجب ببطولة الآخر.

تحفظ حمو في الأول منساقا وراء العاطفة التي نمت عنده كما نمت عند الكثيرين ضد بعطوش، ثم وجد نفسه ينساق إلى محبته شيئا فشيئا، متأكدا مما قاله زيدان، رحمه الله ذات مرة، من أن الثورة ليس فيها أسبقية، وإنما المهم، هو الاستمرارية.

ازدادت محبته لبعطوش أكثر عندما راح يحدثه عن زيدان قائلا، إن موته ظلم وجهل. وإنها مكيدة لاشك أن الاستعمار شارك في تدبيرها.

لقد كان بعطوش، يكسب محبة كل من معه بشعبيته وبساطته، وبتعبيره المباشر عما يفكر فيه.

يحس كل واحد في محيطه، أنه شديد الصلة به، وأنه لن ينقلب عليه إطلاقا.

قال له مرة، عندما حدثه عن أفكار زيدان. هذا هو الصح وإلا كنا نعدها لغيرنا. ثم ضحك وواصل «أخدمها يا التاعس للناعس. كلها يا الراقد بالنوم». إذا لم نكن رجالا فحولا. أكلنا الأغنياء وأولادهم. أفكار زيدان، هي، هذا الذي نفعله كله.

فترت العلاقة بعض الشيء بعد الاستقلال، ففي حين غرق بعطوش بالمدينة في مهام وطنية كبرى، تشبث حمو بالبقاء في القرية، قانعا بعمله فراشا في دار البلدية.

لم يستطيع أن يسلم في أبناء أخيه، وعز عليه، أن يهجر قريته، وقرية خوخة، وقرية اللاز، وذكريات الطفولة والشباب التي تتحول شيئا فشيئا إلى نوع من الأحلام، رغم تهرب المرء من تفاصيلها فإنه لا يسعه إلا أن يستعذب، صداها في نفسه.

وبعد مرض الربيعي، توطدت العلاقة من جديد، بينهما. كان بعطوش يزور عمه مرتين في الشهر، وأحيانا أكثر، وفي كل مرة كان يصادف حمو، يقوم بخدمته، وحده، أو مع أمه وزوجته.

يغيره من فراشه. يغير الفرش المبتل. يغسل أوساخه. يحلق ذقنه، ويطهره، يأمره بالشهادة، ويطرد الذباب والبعوض بعد أن يرش الحجرة بالدواء المضاد لهما. يطعمه ويسقيه الأدوية المسكنة للألم، ويضع علبها عند رأسه، ويطلب منه العذر، ويغادره على أمل أن يجده حيا في نهار الغد.

كان قد انتهى من عمله، عندما طرق عيسى الباب. خرج وبادره:

– عرفت صوت دراجتك. لا شك أنهم كنوك بوعين، نسبة لعينها.

– عندي معك حديث خطير إنه هنا في المسجلة.

– هيا ادخل، فلا أحد هنا غير الشيخ المسكين.

– لا بد لي من الكهرباء. البطاريات ميتة.

– هيا بنا إلى الغرفة الثانية. قد يكون بها موصل.

استمعا إلى التسجيل. تبادلا النظرات كثيرا. طلب حمو أن يستمع مرة ثانية. سر عيسى لذلك أيما سرور. سأله حمو أخيرا:

– أنت المتعلم في المدينة. ماذا تسمي هذا؟

– حركة مضادة للثورة وللهواري. الطلبة المتطوعون يسمونها الرجعية.

– بارك الله فيك يا خويا عيسى. كان زيدان أخي رحمه الله ورحم جميع الشهداء كثيرا ما

يستعمل هذه اللفظة، وكلما سألته عن معناها، يقول لي، ستعرفها إن أطال الله عمرك.

– لا شكر على واجب. أنت مسؤول المجاهدين، ومن واجبي أن أطلعك على كل ما له علاقة بالهواري.

– أعطني التسجيل مع المسجلة. أطلع عليه بعطوش الليلة القادمة.

– لا. إلا هذا. هذا سر البرهمن. يجب أن لا يفلت من يدي.

– ولكن.

– إن شئت، حضرت بنفسي الليلة القادمة، لأسمع سي بعطوش التسجيل. سأعد له نسخة خاصة به يحملها للهواري هذا ما في وسعي أن أفعله.

– سأتصل بك غدا.

– إن لم تجدني في القسمة تجدني في مسكني. تصبح على خير حمو.

– تصبح على خير وعافية.

دار محرك الدراجة النارية. انبعث ضوؤها الوقح، يشق الظلمة، والأنهج الضيقة. إنطلق عيسى، فوقها، راضيا مطمئنا.

* * *

جمع مصطفى، أصحابه الستة، قبل الغروب، وأمرهم، باتباعه إلى المسجد لأداء صلاة المغرب، وصلاة العشاء. تردد بعضهم، فهددهم بنظرات مخيفة، ويربر:

– لم تقولوا إنكم شيوعيون. المسلم يجب أن يكون مسلما كاملا، وترك الصلاة من الكبائر. بعض الأئمة، لا يقبل توبة تارك الصلاة، ويأمر بقتله حدا، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين. ثم إنه كيف يتسنى لكم العمل السياسي، وسط الجماهير المسلمة، إذا لم تحرزوا على ثقتها.

إن ثورتنا المسلحة، لم تتمكن من تجنيد الشعب إلا بالإسلام. لقد كان الثوار يحملون لقب المجاهدين ولا يزالون. المعارك كانت تبدأ بالتكبير، تبدأ بالله أكبر، تماما مثلما كان الأمر في معركة بدر أو أحد، أو اليرموك. بذلك فقط انتصر الشعب الجزائري المسلم العربي، على الكفار.

لو كان المجتمع الجزائري ممزقا، مثل المجتمعات العربية الأخرى، بين مسلمين ومسيحيين، وصابئة. بين سنيين وشعبة، وما إلى ذلك لما استطاع أن يتوحد.

نحن أشبال المجاهدين الذين حرروا الوطن، عميروش، بن بولعيد، بلمهيدي، الحواس. بوقرة، وعلينا أن نتحلى بجميع صفاتهم، وبجميع قيمهم. والمثل العليا التي استشهدوا –رحمهم الله – من أجلها.

إن صرخة الإمام ابن باديس: شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب، ستظل داوية عالية حتى يوم الدين.

إلى المسجد. أمامي. يا إخوان. نلتحم في «بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه».

– لم أصل يوما في حياتي، ولم يطرح علي هذا الموضوع قبل اليوم. لا أعرف حتى كيف أتوضأ أو أؤدي الصلاة. يا له من مشكل.

– قال بوزيد طالب العلوم السياسية الذي أعلن في النهار عن ولائه لثريا، وأنه غرر به فخرج مع مصطفى في تطوع مشبوه. وإنه هو وعلوان، مستعدان للانظمام إلى التطوع الحقيقي والتخلي عن جماعة حزب الله.

قال ذلك في سره، وخطر له أن يمسك بخناق مصطفى، ويسنده إلى الجدار ويشبعه ضربا، ويكشف كل أوراقه بالصوت العالي، وبشجاعة الرجال. ويقول له إنك ضد الثورة الزراعية، ضد أن ينال الفقراء والمساكين، قطع أرض يفلحونها، ضد أن يحصلوا ولو على الحد الأدنى من قوتهم،

وقوت عيالهم، وإنك بذلك تخدم أهداف المالكين المحتكرين، والأغنياء وكبار التجار. تريد أن تبقي على نظام الخماسة والرعي، وعلى الجهل والأمية، وعلى الفساد الاجتماعي.

إنك ضد وحدة الشباب والطلبة في أعمال، تسهم في بناء الوطن، تريد فصلهم عن قضايا بلادهم، وصرفهم إلى تفاهات حياة المدينـة، أنت يا سي مصطفى، تفضل أن ترى جميلة وثريا، وفاطنة، خادمات في منازل الأسياد، أو ساقيات بكاباريهات، على أن يلتحقن بالجامعة، وعلى أن يكن إلى جانب الفلاحين، يزرعن البطاطس ويحيين الأرض.

أيها الرجعي الخسيس. إنك تتآمر مع الشياطين، ضد الوطن وضد مصلحته.

اقترب منه وهم أن يفعل كل ذلك، إلا أنه تذكر أن عليه أن يلزم الهدوء التام، وأن يكسب ثقته، حتى يتسنى إفساد خططه. غمز علوان، وانطلق في المقدمة نحو المسجد.

كان علوان، طيلة الطريق، يفكر في ثريا. لقد أحبها. أحبها لسبب لا يدريه.

إنها بالنسبة لجميلة، تبدو قبيحة فلا القامة هي القامة، ولا الشعر هو الشعر، ولا العينان هما العينان، ولا البسمة هي البسمة.

ثريا ضاربة إلى السمرة. نحيلة، لكنها قوية العضلات. وجهها طويل، وأنفها دقيق، شفتاها تبدوان في جميع الحالات مفتوحتين، ذلك أن باطنهما، لا يختفي إطلاقا. عيناها رغم صغرهما الملحوظ، فإن سوادهما القوي، يجعلهما رهيبتين. يجعل نظرتها ولو كانت تبتسم جادة عميقة مهددة.

إنها عكس جميلة تماما. جميلة تفتن. تذيب المرء. تحذره. أما ثريا فترعبه. تذكره في كل لحظة، بأن السماء ستسقط على رأسه، أو أن جدارا سميكا ينتصب، بينها وبينه.

ثريا مستفزة. استفزتني وأنا أحبها. ترى كيف يمارس الحب مع ثريا؟ لا شك أنه بالملاكمة أو بالمصارعة اليابانية، أو بالعض.

سأكتب إليها رسالة. ضحك. ماذا يفيد الكلام معها، طالبة الفيزياء؟ سأخترع لها قنبلة نيوترونية. ضحك مرة أخرى.

غدا أحادثها، وأعرف في أية موجة هي.

قصدوا الصف الأمامي والوحيد تقريبا. فقد كان المسجد شبه فارغ. الإمام بعمامته الصفراء وجبته الزرقاء، يواجه المحراب الخشبي، ويتمتم في سره بالذكر. شيخ البلدية، الذي لم يقصد

المسجد إلا عندما تأكد له قرب إجراء الانتخابات البلدية. خلفه. بعض التجار، هنا وهناك، يتخللهم شيوخ، يبدو أنهم لم يغادروا أمكنتهم منذ صلاة العصر على أقل تقدير. حلاق القرية الذي لا يصلي في المسجد إلا صلاة المغرب، جالس بمفرده، مشكلا صفا لا يتكون إلا منه وسط المسجد.

همس بوزيد في أذن إبراهيم طالب السنة الأولى بكلية الآداب:

– أين الجماهير الشعبية؟

كان إبراهيم، طالب الآداب وخريج أحد المعاهد الإسلامية متشبعا بالعلوم الدينية، لكنه لم يتخذ موقفا بعد من الكلام الحماسي، الذي يسمعه، هذه الأيام من مصطفى.

أبوه ريفي، لم يستطع أن يضمن له التعليم في الصغر، ومع ذلك لم يتخل عنه. لقد استغل حفظ ابنه للستين حزبا، وراح يسأل في الميدنة جميع معارفه، حتى هدوه إلى المعهد الإسلامي الذي فتح حديثا، والذي داهمته السنة الدراسية، قبل أن يجمع العدد الكافي من التلاميذ.

عكف على الدراسة ونجح، نال الأهلية بتفوق. اجتاز الثانوية دون صعوبة كبيرة، وها هو في الجامعة. في كلية الآداب، ولو كان يحسن اللغة الفرنسية، لالتحق بكلية الطب، نكاية في الجهل الذي خيم طويلا على الريف الجزائري.

مع أن أباه يملك قطعة صغيرة من الأرض، يحرث نصفها، ويربي في النصف الآخر بقرة وشويهات فإنه فرح كثيرا بالثورة الزراعية، لا لشيء – كما يؤكد أبوه – إلا لأنها جعلت أغنياء المدينة، ينكفئون، ويفقدون سيطرتهم على الريف.

– هذه الأرض التي تحيط بنا، كلها، لا يملكها فلاح. إنها حين لا تكون لتاجر، تكون لطبيب، أو لموظف كبير. يرحم والديه، الهواري بعلمه هذا. سمعت مرة واحدا من أغنياء المدينة يقول إن القيامة ستقوم، لأن الريفيين اتجهوا إلى تعليم أبنائهم. تصوروا من سيرعى الأغنام في المستقبل أو يحلبها، أو يعد الفريك، أوينسج الحصر والزرابي. إذا كان ابن الريفي معلما أو موظفا أو طبيبا فماذا سيكون أبناؤنا نحن؟ لقد قال ذلك أمام جمع كبير من الريفيين دون أن يشعر بأدنى خجل.

يعلم أن أباه لم يتخذ هذا الموقف من الثورة الزراعية، لأنها ضربت مالكي الأرض الأغنياء فحسب، إنما، وهذا ما لا يشاء أبوه أن يصرح به، لأنها أيضا شملت إخوته الثلاثة، الذين استقروا في المدينة.

أحدهم يشتغل حارسا في المستشفى، والثاني يشتغل بسيارة أجرة غير مصرح بها، عاد بها من

فرنسا، فلم يجد ما يفعل بها أو بنفسه، سوى هذه المهمة السرية المخالفة للقانون. يوما يحصل على خمسين دينارا، ويوما يظل يلهث وراء الدرك الوطني، حتى يعيدوا إليه أوراق السيارة، أو حتى يسرحوها من المحبس بعد خطية باهظة.

أما الثالث فيعمل عند تاجر جملة، صاحب الأرض المجاورة لنا بأجر زهيد، لكنه يعوض عن ذلك بما يسرقه من حين لآخر، من سكر أو قهوة، أو صابون، وببعض الرشى المتواضعة من تجار التجزئة، الذين يحابيهم بالمواد الشبه مفقودة من السوق، أو بعدم تسجيل كل الأسعار على الفاتورات حتى يتسنى لهم التهرب من دفع الضرائب.

اضطروا إبان الحرب التحريرية، أن يدخلوا المدينة، لكنهم لم يغادروها بعد ذلك. يدّعون أن تعليم أبنائهم، هو الذي يمسكهم لكن، لا أحد من أبنائهم نال الشهادة المتوسطة، أو حتى دنا منها. نساؤهم، هن اللائي استعذبن الحمام وحياة الدعة، وتسقط أخبار المدن.

تعوّدوا أن ينزلوا علينا كل صيف لمراقبة عملية الدرس، وإحصاء كل كيس حبوب يتجمع ومحاسبة أبي محاسبة عسيرة، عن كل ما يعود من الأرض. حتى التبن يأخذون ثمن حصتهم منه، حتى الأرض العطيل، يأخذون ثمنها، يقول أبي:

– لا نستطيع أن نفلحها كل سنة. تعرفون هذا.

فيردون عليه:

– لكنك رعيت فيها أغنامك. بارك لك الله فيها.

– كان لا بد من ذلك.

– نعم كان لا بد من ذلك، ولو لم يكن العطيل من أرض أبينا رحمه الله ووسعه عليه، لما ملكت أغناما. أو لاضطررت إلى كراء أرض أخرى. إفرض أننا هنا معك. كم نعجة يستطيع كل منا أن يرعى في عطيل أبينا؟

– سأبيعها هذه الشويهات المنحوسة السوق القادم. وأستريح منها ومنكم.

– لا. لا قدر الله. إننا لا نطالب بالكثير.

– وماذا تريدون. أنتم في المدينة تنعمون بالدفء، ويقرأ أبناؤكم في المدارس وأنا هنا أشقى مرتين، مرة في العمل، ومرة في التحاسب معكم.

– إفعل مثلنا. دعنا نبيع الأرض، فنحن أحوج ما نكون إلى ثمنها.

– لا. هذا ليس بكلام إخوة. نقتسم الصوف. والأرض أرضنا جميعا. ونحن دائما إخوة. ولا داعي للغضب أو للقلق. إذا لم نتدلل على أخينا الكبير فعلى من نتدلل.

– اشتريت قماشا لمطارح. وكلما قلت له اشتر لنا الصوف، يقول سيعطينا أخي صوفا جديدا.

تقول إحدى زوجات أعمامي، فتعلق الأخرى:

– فتحت مطارح أولادي لأغسل صوفها، لكن عندما نفتشها، ظهرت لي قليلة، طاف كل ذلك بذهن إبراهيم، وهو يفكر فيما سيرد به على بوزيد، ثم تمتم:

– نزل غريبا، وسيعود غريبا.

مع ذلك لم يتوان، في الهمس، لطالب يجلس بجانبه:

– أين الجماهير الشعبية التي يتحدث عنها مصطفى؟.

– إنها في حقول الثورة الزراعية. إنها في المقاهي تلعب الحجر والورق.

رد عنه جاره، وراح الجميع، يتابعون مصطفى الذي ما أن فرغ من أداء ركعتين، حتى جلس يحاذي الإمام، وانحنى يطلب منه بصوت مرتفع:

– سيدي الشيخ، هل تأذن لي بإلقاء درس. أنا من الطلبة المتطوعين المسلمين.

– السياسة ممنوعة في المسجد يا ابني. خطب الجمعة تأتينا مكتوبة. نقرأها على المسلمين، كما تجيئنا، وهذا كل ما في الأمر.

– لو ناصرتم الشيخ عبد اللطيف لنجح في تمرده، ولما أقدم الملحدون على إيداعه السجن.

– إن الله يأمر بطاعة أولي الأمر.

– ولكن عندما يكونون مسلمين. مسلمين صالحين.

– ماذا تنوي أن تدرس؟

– أشرح سورة والعصر.

– هذه ليست سياسة. تستطيع أن تلقي درسك.

– قدّمني أولا. أنا مصطفى. طالب. تطوعت أنا وأصحابي الستة، لنكافح الكفر والإلحاد. تستطيع أن تعلن هذا أيضا.

– سأفعل.

قبل أن تفعل ذلك أريد أن أسألك، عما إذا وصلك كتاب الشيخ. معي بعض نسخ، هل أستطيع

بيعها هنا في المسجد.

– لا شيء يمنع من ذلك. على فكرة. لم أستطع فهم كتاب الشيخ جيدا. لقد غرق في شرح كلمة مزدك في أكثر من ثلث الكتاب.

– في إمكاني أن أشرح ذلك لك ولغيرك، بسهولة وإيجاز.

– لكن ليس هنا. في بيتي أحسن، إنني أدعوك أنت وأصحابك للعشاء عندي مساء غد. ننطلق بعد صلاة العشاء جميعا من هنا سيكون أعيان القرية كلهم حاضرين.

– هذا يكلفك كثيرا. لا نريد أكثر من الكسكسى، أو ما يشابه ذلك، مما لا يخل بميزانيتك. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. نعرف أن راتبكم ضعيف، أنتم أسرى، ولستم أيمة في دولة تدين بالإسلام.

– فضل الله كبير يا بني وخيره كثير. ستأكلون خرافا مشوية. وكسكسا بالعسل، ألسنا عربا؟.

– بلى. نحن عرب مسلمون، حب من حب وكره من كره. كثر الله خيرك.

– كثّر الله خير أهل الخير يا بني، شعبنا ما يزال – والحمد لله مسلما يعطي رجال الدين حق قدرهم.

– قدّمني أيها الأخ الكريم.

التفت الإمام إلى الحاضرين. حياهم، وقدّم لهم الأستاذ مصطفى كما قال، بكل إطناب، ثم أمرهم بالاستماع إليه جيدا.

مرر مصطفى لسانه على شفتيه مرات عديدة. امتص ريقه أكثر من مرة، قبل أن تتقلص عضلات وجهه، وتحمر عيناه، ويصفر لونه، ويزرورق، وتنتفخ أوداجه.

كان واضحا أنه لن يتكلم فحسب، وإنما سينفجر بكليته، ليعلن عن الشيء الخطير الذي في نفسه، كما فهم الحاضرون ذلك.

وجد الجميع بما في ذلك بوزيد وعلوان، وباقي الطلبة، أنفسهم يستسلمون إليه استسلاما يكاد يكون كليا. لا تشوقا لما سيقوله أو يعلن عنه، وإنما مقاسمة للعبء الذي يشعرون بأنه يحمله. لقد اكتسب إشفاقهم قبل أن ينطق، وقلما يحدث مثل هذا في المساجد في هذا العصر.

«والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

تلا السورة ثلاث مرات، بعد أن تعوّذ وبسمل كثيرا، وانهمك في الشرح. كان يزعق ويضرب يديه بالأرض أو ببعضهما. وكان الحاضرون يتتبعون حركاته أكثر مما يتتبعون كلماته، عدا بوزيد، الذي راح يتشرب كلماته، واحدة فواحدة، ويحاول أن يجد ما بينها، وبين ما يسمعه من إذاعات غربية، أو من بعض زملائه أو التجار، من صلة فكرية وسياسية.

تأكد من أنه في وضع غريب وشاذ. أمام اكتشاف جديد مثير، لا محالة.. لقد كان يحيا اللامبالاة بما تعنيه الكلمة. تجاه مختلف شعب الحياة وقضاياها.

الجامعة لا يهم منها سوى التخرج. الدروس لا يهم منها سوى ما يمكن من النجاح في الامتحانات الأنشطة والتظاهرات التي ينظمها الطلبة، لا يهم فيها سوى ربط علاقة جديدة بطالبة ما.

الحكم. الحكومة من أعلاها إلى أسفلها. لا تعني أكثر من توفير الأمن وبناء المدارس، وتقاضي الضرائب، والأسفار إلى الخارج، واستفادة الموالين والأتباع. هذا ناموس الحياة. كل ما عدا ذلك ليس سوى مجرد مظاهر ممارسة السلطة. إخراج مسرحي، لا أكثر ولا أقل. وليس هناك أي حكم في العالم وفي جميع مراحل تاريخ الإنسانية، يختلف عن الآخر مهما تغيّرت الأسماء والصفات.

الاشتراكية أو الرأسمالية أو أي نظام اقتصادي يتحدث عنه، ليس سوى حديث يومي عابر، لا تأثير له في مجريات الحياة الحقيقية. حياة كل مواطن ومواطنة. هذه التي تتميز بالتبلد والجمود، وسيطرة التقاليد عليها. الحياة الحقيقية التي ليس في قعرها سوى، ما يناله الأفراد من أنصبة.

لكن ها إنني في لعبة الحركة.

لعبة المد والجزر. لعبة التقدم والتأخر. لعبة السير إلى الخلف.

إنها لعبة جادة وخطيرة.

لعبة يقدم الناس فيها أعناقهم للموت. للمشانق وهم لا يبالون.

الأمور ليست – كما كان يخيل إلي – متروكة على العواهن. إنما هي أخذ ورد، بين أيدي مختلفة.

كل ما كان هناك. هو أنني كنت خارج الحلبة، مغمض العينين.

– الحق أيها الناس. الحق الذي يتواصى به المسلمون. الذي يتشبثون به، ويدخلون بسببه الجنة، يستثنون به من الخسر؟ ما هو؟ إنني أسألكم.

إنه ما جاء به كتاب الله العزيز. إنه ليس كل ما نحياه ونشاهده من حولنا.

هل حرم الله الكسب؟ هل أمر الله، بأخذ أرزاق الناس بالباطل؟ ألم يقل سبحانه وتعالى وفضلنا بعضكم على بعض في الرزق درجات..؟ صدق الله العظيم.

أمن الحق أن تفقد المرأة، ما ميزها الله به، وتدوس على الشرف، والرجولة، والكرامة، والأمومة والأخوة، وتخرج إلى الشارع دابة ضائعة، عرضة للنهش والافتراس، الرجال قوامون على النساء. الرجال قوامون على النساء، صدق الله العظيم.

إننا في غير الحق. ولقد صبرنا على غير الحق. ولكن أي صبر يتحدث عنه عز وجل؟

* * *

بعد منتصف الليل، توقفت سيارة. أنزلت الشريف، في الطريق المتفرغ عن قلب القرية، وانطلقت تواصل طريقها. كان بداخلها ثلاثة شبان وصندوق بيرة، ما يفتأون يفتحون منه قنينات يصبونها في أفواههم ثم يرمونها من النوافذ لتحدث انفجارات غير مسموعة خلف السيارة.

عندما استوقفهم الشريف، خارج قرية أوصلته إليها سيارة أجرة، بثمن مضاعف، لم يتوقفوا في الأول ولكن عادوا بعد أن قطعوا بضع مئات الأمتار.

– عيب أن نتركك في هذا الليل الشديد. أين أنت ذاهب؟

– أوه، فضلكم كبير لولاكم لبت هنا. مرت أكثر من مئة سيارة قبلكم لكنها تجاهلتني كلها. القرية الأتية، أنزل هناك. جئت بالقطار وعلي كي أعود فيه أن أنتظره حتى الساعة العاشرة من صباح الغد.

– تشرب بيرة؟.

– لن أقول لا مع الإجهاد الذي أنا فيه.

– وماذا تفعل في القرية؟

– ألتحق بمجموعة من المتطوعين، تسوقت لأنجز لهم بعض أغراض.

تردد في أن يعلن لهم صفته، ثم قرر أن يفعل. عملنا مشرف، وينبغي أن لا نخجل منه أمام غيرنا. ليفهموا على الأقل، إنني طالب ليس في وسعي أن أدفع لهم أجرة، وأنهم لن يجدوا معي ما يستولون عليه، إذا مافكروا في ذلك.

ضحك إثنان ملء أعماقهما، بينما ظل الثالث صامتا. كانت ضحكتهم ساخرة، ما في ذلك من ريب. تمنى الشريف أن تقف المسألة عند هذا الحد. فكر مع ذلك دون أن يسألهم عما يثير الضحك، لكن رفع قنينة البيرة إلى فمه وراح يعب منها.

– كنت أعتقد أن الجهلة من الشعب هم فقط المضللون.

قال السائق فأضاف الشاب الثاني:

– ماذا يجعلكم تساندون هذا النظام؟ إنه غير شرعي. مجهول الهوية. لا هو بالملكي ولا هو بالجمهوري ولا هو بالامبراطوري أو بالعسكري. لا دستور. لا برلمان، ولا أي قانون. إذا كانت مثل هذه المخالفات الفظيعة، تخفي عن نخبتنا الجامعية، فالشعب المسكين معذور والله.

– لكن لماذا لم تسألوا عن نظام الحكم قبل الثورة الزراعية، أم أن اتجاهه نحو الديمقراطية

الشعبية هو الذي بدا يثير مخاوفكم. من كان يساند هذا النظام قبل خمس سنوات؟

قال الشريف في هدوء محاولا أن لا يستفز أصحاب السيارة، فصدق الثالث الذي ظل يلتزم الصمت والحياد بكلامه:

– أصحابنا هؤلاء بالذات كانوا قبل أشهر يدافعون بحرارة كبيرة عن النظام ولا يرون فيه أي نقص أو سلبية.

– إسمع أيها الطالب المثالي. هذا النظام أعرف دخيلته أكثر من أي واحد آخر. لسبب بسيط جدا، هو أنني جزء منه. أنا شخصيا اشتغلت أربع سنوات كاملة مسؤولا عن وحدة اقتصادية، وسنوات رئيس دائرة، لكن في الأخير فضلت الخروج إلى الأعمال الحرة، لأبني مستقبلي ومستقبل أولادي – كما يفعل جميع الناس– إنني أعرف من الأسرار، ما لو تعرفه المعارضة لأطاحت بالحكم بسهولة. إن شعبنا حر. خلق حرا، يحب الحرية والديمقراطية، ويكره القيود والأوامر. أقول هذا وأؤكده. وحكاية الاشتراكية هذه كلام فارغ، لا أحد يحب السماع إليه.

– راح يعب من قنينة البيرة بيد، ويسوق السيارة باليد الأخرى، بينما واصل صديقه:

– نعم. الحكومة أنجزت الكثير. خاصة في ميداني التعليم والصناعة. لا أحد ينكر ذلك. بل يستطيع المرء أن يتحدث حول هذه الإنجازات يومين كاملين دون أن يوفي الحكومة حقها، وهذا ما يسحر الطلبة وعامة الشعب. لكن أين المردود؟ لا أحد يريد طرح هذا السؤال. إن الخسارة مست حتى شركة النفط. شركة النفط، يا عباد الله كيف تخسر؟. تستخرج من قاع الصحراء مادة تبيعها ومع ذلك تخسر. الزيت من الزيتونة والحوت من البحر، ولا رأسمال، ومع ذلك الخسارة ملازمة. لولا الإهمال، لولا السرقات. لولا التهريب. لولا التبذير باسم الاشتراكية، لما كانت شركاتنا تخسر أبدا. إن الجزائر لم تتهيأ للقطاع العام بعد. إنها لم تقم الدولة بعد. فكيف لها أن تقيم رأسمالية الدولة. لو أوكلوا الأمر على القطاع الخاص وحده، وفتحوا الباب بيننا وبين فرنسا. فرنسا خاصة – لأننا نعرفها وتعرفنا، وتعودنا على بضائعها، وعلى التعامل مع آلاتها، لازدهرت الأوضاع، ولزالت الرشوة والمحسوبية، والتعسف في السلطة.

– لكن المافية، الكابوني، يا أخي هو الذي يأمر وهو الذي ينهى.

– قطع السائق تسلسل حديث صاحبه، وفكر الشريف، جيدا في الرد. هل يترك العنان لعواطفه، وبالتالي، ينفجر فيهم يلعنهم ويلعن اللحظة التي استوقفهم فيها ويطلب النزول. لم كل هذا؟ لقد

تعودنا مثل هذا الكلام، وأكثر منه. ثم من يدري من يكون هؤلاء الغرباء؟ أحقا هم من القطاع الخاص أم هم لصوص. أم ربما رجال مخابرات يستنطقونني. لا. إن حقدهم واضح. واضح جدا. والغريب في الأمر أن المستفيدين من السلطة بمختلف الأشكال، هم أول أعداء هذه السلطة. وإذا ما حدث أي صدام بيننا وبين هؤلاء الأعداء السافرين، فقد نجد أنفسنا وحدنا، بينما يجدون هم السلطة إلى جانبهم.. من يدري. من يدري. يجب أن تنحصر المعركة في قضية واحدة.

الثورة الزراعية.

الآن معركتنا هي الثورة الزراعية وهذا كل ما في الأمر.

– لماذا سكت؟ ليس لديك ما ترد به. آه.

– كنت أفكر في تونس وفي المغرب وفي باكستان وأفغانستان. كان ممكنا أن تكون أوضاع بلادنا مشابهة أو قريبة من أوضاع هذه البلدان. وكان ممكنا أيضا أن تكون في بلادنا، ثلاث ممالك وخمس أو ست جمهوريات. وكان..

– لكن المؤكد أننا سنكون في سنوات قليلة مثل ألبانيا أو كوبا الأرجل في القمامة والرأس في السماء يصدح بالغناء. هاه هاه مثل الديك.

– قلت لك. إنهما في موجة خارجية تماما.

علق الثالث الذي يجلس إلى جانبه يحتسي البيرة في هدوء، فلم يرد عليه الشريف. عاد مرة أخرى إلى خواطره. لقد غرق في حديث عميق مع نفسه.

الشيوعية هي عقدتهما. خوفهما الكبير ينحصر فيها. المؤكد أنهما ينطقان باسم رأي عام برمته، ويعكسان الذعر الذي يسيطر عليه. مع أنه لا أحد يطرحها في المرحلة الحالية، ولا حتى يطرح الاشتراكية بأبعادها الكاملة، فإن الشق الآخر يعمل منذ دهر طويل، على التلويح والتهديد بها مثيرا الرأي العام ضدها وضد القطاع العام، مفسرا كل نقيصة بأنها نتيجة حتمية للاشتراكية. الإقطاع، والرأسمال الخاص، مع أن هذا الأخير مستفيد كثيرا من معاداة الاستعمار ومن التحرر الاقتصادي، يحاولان منذ الشروع في تطبيق الثورة الزراعية، أن يستوليا على البرجوازية الصغيرة، وحتى الفئات الكادحة.

علينا أن نركز جهدنا الكامل، على إفهام الفلاحين الذين نتصل بهم، بأن القول بأننا في مرحلة الاشتراكية، خطر يضر أساس الاشتراكية. وعلينا أن ننبه أصدقاءنا إلى ضرورة، التراجع عن الخطأ

الاستراتيجي، الذي تجرنا إليه الرجعية، ألا وهو التباهي والتأكيد بأن الجزائر طبقت الاشتراكية، وهي تحياها، يجب أن ننبههم أيضا إلى ضرورة فصل الثورة الزراعية في المرحلة الحالية، على الأقل، عن باقي القطاع الإقتصادي الخاص. إن المهم أكثر، هو كسب أكبر عدد ممكن من مساندي الثورة الزراعية، وعزل الإقطاع، وفصله عن الرأسمال الوطني.

سأناقش ثريا، حتى أقنعها. يجب أن أطهرها من يساريتها، أو بالأصح – حتى لا تغضب كثيرا– دوغمائيتها وينبغي أن تفهم أن الثورة الحقة، تحتم علينا، أن نعمل، في حكمة، وتواضع، وأناة، هادفين أولا وآخرا، إلى إنجاح الثورة الزراعية، وبالتالي إلى القضاء على الإقطاع، لا غير. نعم لا غير. وإلا خسرنا كل شيء. الأخضر واليابس. وضعنا في متاهات سياسية. نغرق في المزايدات الكلامية عن الثورة وحدودها، ونخلي المجال للرجعية، متيحين لها ضربنا في اللحظة الحاسمة.

– من منكم يخاتل صاحبه. أنتم أم الهواري؟

سأل السائق متبجحا بما يبديه، من اطلاع على الأوضاع وعلى مكنونات السياسة. لم يجبه الشريف. وقال في نفسه «تجاوزنا مرحلة التحرشات من هذا النوع». فكر أن يشغلهم بموضوع آخر، بعيد عن السياسة، فكر أن يسألهم، كيف يطيقون شرب كل هذه الكميات من البيرة مع أنهم يسافرون وفي الليل. كما فكر، أن يبدي لهم استغرابه لعدم وجود نساء معهم مع أن ذلك من مكملات البيرة والسفر في الليل لأمثالهم. كما فكر أن يسألهم عما إذا كانوا كلهم من رجال الأعمال، أم أن بعضهم خاصة الثالث الذي يجلس إلى جانبه، من إطارات الدولة.

أخيرا، أنقذته أنبوبة الضوء الوحيدة المتدلية في مدخل القرية.

– لقد وصلت. ضعوني قرب المسجد. شكرا جزيلا على معروفكم. وعلى البيرة بصفة خاصة، فقد أزالت عني الوحشة التي كانت تسيطر علي.

– أوه. زد ثانية. معنا كما ترى صندوق كامل.

– إنك سياسي ماهر عليكل حال.

– هل معكم طالبات؟

– نعم فوجنا مزدوج.

– هنيئا لكم. عيشوا فترة شبابكم كما ينبغي، على الأقل. هذا ما تربحون من صاحبكم.

– أنزل هنا. تصبحون على خير.

– وضع جرابه على كتفه وانطلق صاعدا، في حين واصلت السيارة طريقها بالرجال الثلاثة نحو هدف لم يسألهم عنه، ولو أنه يبدو أن طريقهم لا تزال طويلة، وأنهم سيشربون ويثرثرون كثيرا، قبل أن يصلوا، إذا ما قدر لهم أن يصلوا، على أية حال.

– الشريف. هذا أنت؟ عدت؟

– كيف الحال عمي عبد القاء؟ أهلا بحمو. أنت هنا.

– نعم أنا هنا. كان لا بد أن أكون إلى جانب الشيخ عبد القاء. في مثل هذه الليلة.

– الحالة بخير حتى الآن، أصحابنا كانوا في المسجد، ولقد ألقى مصطفى درسا مطولا، نال به رضا الحاضرين. غدا يسمع بأمره كل التجار والأعيان، ولا بد أن يكتظ المسجد في الليل.

لم يعلق الشريف، ولم يعر أي اهتمام لذلك. لعله رأى أن من الطبيعي أن يلجأ مصطفى إلى المسجد، بعد أن فشل نهار اليوم في الحقل. لكن لم كل هذه العجلة؟ إنهم – على ما يبدو – واثقون من أنفسهم أكثر من اللازم. هل يبيتون شيئا أخطر من ضربنا نحن المتطوعين؟

الرفاق في المدينة، قالوا إنه حدث في كل ناحية، شبه ما حدث عندنا هنا. لكن بشكل أقل حدة. لعل مرد ذلك إلى أن عددهم لا يتجاوز الأربعة في أحسن الأحوال، وبعضهم ليسوا حتى بطلبة. لعلهم يختبرون إمكانياتهم ومدى استجابة الفلاحين لهم.

لعل الرفاق لم يحصلوا على المعلومات الكافية بعد، عن تحركاتهم كلها. لعلهم اختاروا مناطق معينة، تنطلق منها حملتهم.

مصطفى هذا مصمم كل التصميم على خوض المعركة، رغم أنه لا يعرف إمكانياته. لا شك أنه يعد نفسه لغزوة مظفرة.

– سي بعطوش يكون هنا، غدا أو بعد غد، على أقصى تقدير. لقد اتخذت مبادرة إطلاعه على الوضع.

– أفلعت ذلك؟

– نعم. كان لا بد أن أفعل ذلك. أطلعني عيسى على ما في تسجيله، فتلفنت لسي بعطوش، لقد سرته مبادرتي، وأشار إلى أنه سيعلم الهواري.

– يعلم الهواري؟ هل قال ذلك. لم توسع الخرق يا حمو؟

– يجب أن يعلم الهواري بكل مشاكل الثورة الزراعية. أرى أن حمو، أحسن صنعا. قال عبد

القادر متحمسا، فلم يجد الشريف بدا من الابتسام في الظلمة.

هؤلاء الناس. هذا الشعب. ينتظرون كل شيء من الهواري. ويبدو أنهم غير مستعدين لتقديم أية مساهمة. هل ماتت روح المقاومة فيهم، أم هل خمدت؟

هذه ثورة سلبية. في حين تخلق الرجعية المشاكل بيدها، مستعينة بحياديتهم، يقفون هم مكتوفي الأيدي في انتظار، ما سيفعله الهواري المسكين، يجب أن يتحرروا، أن يستوعبوا الخط السياسي للهواري وأن يقفوا صامدين فيه.

أنت نفسك، هذه لحظات يا الشريف، وقفت موقفا جبانا من محدثيك في السيارة، لأنك لم تكن تتأكد مما إذا كانت السلطة ستكون إلى جانبك أم إلى جانبهم.

لا. إننا لم نصل إلى حالة أولئك المريخيين، الذين يتحدث عنهم «ألكسي تولوستوي». الحالة الرمادية حالة عدم حب الحياة في ضراوة وشغف، ويحمية.

رفع بصره، إلى السماء المتلألئة بالنجوم المتوهجة، تحاول عبثا التغلب على الظلمة الحالكة التي تضرب أطنابها. كانت السماء صافية، جليدية محضة، وكانت الأرض والأشجار قد أخذت بعد تتغطى بالجليد.

– على كل. بعطوش طلب أن يجتمع بكم كلكم في بيتي. لماذا أنت ساكت.

– يا عمي عبد القاء. نحن هنا. لنعين الثورة الزراعية. لنعينكم ونعين الهواري، والبلاد كلها، على حل المشاكل، وليس من المعقول إطلاقا أن نخلق مشاكل أخرى. إن الهواري يتوقع كما نتوقع نحن، أن تصادفنا مشاكل من هذا النوع، وأكثر تعقيدا منها، وهو ينتظر منا، أن ندفع الثورة الزراعية إلى الأمام، بأن نعلمكم، كيف، تخوضون الصراع عن وعي، وبنظام، لحل مشاكلكم، ولإعانته على حل مشاكل الثورة. مشكل مصطفى، هذا بسيط، وعلينا أن نجد له حلا محليا، بيننا وبينه وبينكم.

– ولكن إذا كان مسؤول الحزب، ومسؤولون أخرون معهم، ماذا في وسعنا نحن أن نفعل.

– في وسعنا أن لا نقع في لعبهم. أن نتفادى جميع استفزازاتهم. وأن نقنعهم هم بالذات، بأن تصوراتهم علينا وعلى الهواري، وعلى الثورة الزراعية، خاطئة. إنهم خائفون يا عمي عبد القاء وعلينا مسؤولية إزالة الخوف عنهم.

كانوا قد بلغوا التكميلية، لفت انتباههم، النور المنبعث من قاعة الطالبات، وقاعة مصطفى،

وجماعته.

اعتراهم الخوف. تصور عبد القاء، أن مكروها بشعا، وشؤما، قبيحان قد حصل، وأنه لا مرد الآن لذلك،. لقد حدث ما حدث، وكان عليه هو عبد القادر رئيس التعاونية، وصديق الطلبة والطالبات، والمخلص في حبه للثورة الزراعية وللهواري، أن لا يدع ذلك يقع. لكن، الأمور شيء لها أن تجري بسرعة فائقة. تساءل حمو في سره، عما يمكن أن يكون قد حصل، ولماذا هذه الأضواء منارة في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل.

وتراءى للشريف، وجه جميلة الساحر. مشوها بالحامض. لقد طلب من ثريا في النهار، أن لا تخبر جميلة بما يبيت لها، وأن تسهر هي وباقي البنات، على حراستها.

ترى لماذا هذه الأضواء اللعينة، تنبعث الآن في عز الليل.

* * *

فشل إضرابنا في معمل التبغ «جوب»، انهزمنا شر هزيمة رغم الصمود البطولي الذي أبداه جميع العمال. هزمنا رئيس الحكومة الفرنسي «دلاييه»، بقراره القاضي بطرد كل العمال المضربين طردا نهائيا. كان ذلك سنة 1939، وفي بداية الحرب العالمية الثانية.

– ماذا بقي لك أن تفعله في الجزائر العاصمة، يا المكي بعد أن فقدت فيها كل أسباب العيش. هذه حرب، ومن يدري.

أقنعت نفسي بذلك بعد تردد، وقصدت الأوراس، وبالتدقيق توجهت إلى أخوالي بدوار عابدي. هنا بعيدا عن المشاكل، أستطيع أن أستقر فترة ولو قصيرة بعيدا عن المضايقات.

لكن ما أن انقضت أيام قلائل، حتى استدعى الحاكم، «فابيي» جميع القواد التابعين له، أو بمعنى آخر جميع قواد منطقة الأوراس. كان غاضبا في حالة جنون – كما قيل لي – يمشي ويجيء في القاعة ويهذي:

الشيطان الأحمر. اللعين، لم يجد مكانا يتجه إليه غير منطقتي، غير الأوراس. ماذا يبيت الشيطان الأحمر أيضا. المرة. هذه المرة. أقضي عليه. أريح منه فرنسا. أتدرون من هو..؟ الشباح المكي. أخطر مشوش على الإطلاق. اصطدم بشيخ العرب بن قانه، نعم تجرأ على اصطدام بشيخ العرب بن قانة وما أدراك. الأمر الذي اضطر شيخ العرب إلى معاملته بما يستحق. أتدرون ما فعل به. لقد ربط، حبلا في عنقه، وأمر «دائرة» بجره خلف حصانه، من بسكرة إلى أولاد جلال. الكلب لم يمت استطاع أن يتحمل الموت طوال الخمسة والسبعين كيلومترا. ووجدوا فيه من الطاقة والقوة، ما أجبرهم على الزج به في السجن.

هل تظنون أنه تاب، بعد ذلك، وبعد سنوات السجن؟ الشيطان الأحمر لا يتوب. لقد طرد من مدينة الجزائر بعد أن قام بعمل تخريبي في معمل التبغ الذي كان يشتغل فيه. جنى على نفسه وعلى مئات من العمال.

أبدا لا. لقد سكنه شر أحمر، لن يخرج منه إلا بخروج روحه اللعينة. لا أريده في منطقتي.

– سيدي الحاكم هل تأذن لي بالتدخل.

– تفضل. ماذا لديك.؟

– سيدي الحاكم الشباح المكي، يوجد بدواري. وله علي قبل اليوم فضل فقد استضافني بداره عندما ذهبت إلى سيدي عقبة، ولم يبد نحوي أي تحفظ، رغم أنه يعرف أنني قائد، والحق أنه ترك

في نفسي وقتها أثرا طيبا، ولعل سيدي الحاكم هناك بعض مبالغة في الأخبار التي وصلتكم عنه. إنه عند أخواله، وأنا أتحمل وجوده.

– أتتحمل مسؤولية وجوده..؟ إنك تعرض نفسك للخطر.

– أضمن به سيدي الحاكم. وإذا ما رأيت منه ما يخل بالنظام فسألقي القبض عليه بنفسي، وآتيك به.

– هكذا دافع عني القائد صالح كثر الله خيره، وهكذا ضمن لي البقاء عند أخوالي الذين تربطه بهم صلة مصاهرة.

– لكن إقامتي لم تطل. جعت. جاعت زوجتي. جاع أولادي الأربعة. كان أخوالي بدورهم جياعا ومنذ عهود طويلة. لم أجد أي عمل، ولا إمكانية أية تجارة كنت في منفى اختياري بأتم معنى الكلمة. أسفت على مغادرتي لمدينة الجزائر، فهناك يستطيع الإنسان، على الأقل، ومهما كانت الأحوال، أن لا يبيت خاوي البطن. يستطيع حتى أن يشحذ. أن يكلف أحد أبنائه بالقيام بذلك. أما هنا فكلنا في مستوى واحد، من الفقر والجوع.

سمع بي الرفيق علي بن إبراهيم، فدفعه التضامن الرفاقي إلى الإهتمام بأمري. أرسل يعرض علي الانتقال إلى قريته «أوملطان» لأشتغل معه في تجارة التمور. وعندما ترددت في ذلك، أتى لزيارتي بنفسه، وأقنعني بالانتقال معه إلى «أوملطان» في ظل قائد آخر غير القائد صالح صهر أخوالي.

لم تنقض عشرة أيام كاملة، حتى فوجئت ذات ليلة، بطرق شديد على باب كوخي. نهضت مذعورا لأصطدام بطلعته. الحاكم «فابي» بطمه وطميمه، مرفوقا بعدة دوائر، مدججين بأسلحة حربية، ومعهم القائد والشامبيط وبعض الأعوان.

– أنا مسيو «فابي». أين السلاح..؟

– تفضل أنت ومن أعلمك بوجود السلاح. خذوه. خذوني معه أيضا.

– أين غرفة رقادك؟

– قصري يا مسيو «فابي» لا يضم سوى غرفة واحدة. تفضل هي ذي.

– بينما صعد أحد الدوائر، فوق الكوخ، يقلب القش والتراب، تقدم الحاكم بنفسه، نحو زوجتي يهم بتفتيشها. نهرته بعنف، وهربت منه لتحتضن أحد الأطفال. إغتاظ مسيو «فابي» والتفت إلي

يلوم:

– زوجتك قبيحة مثلك.

– أنت الصفيق. ألا تعلم أننا معشر المسلمين، لا نسيغ لأحد منا أن يمد يده لامرأة ليست من حريمه. ما عليك إلا أن تحضر امرأة لتقوم بتفتيشها.

سكت. انهمك يفتش الغرفة. عثر على حقيبة فيها بعض مجلات وجرائد الحزب، وبطاقات النقابة فاستولى عليها، ثم أخذ يعيث في محتويات الغرفة فسادا. أفرغ ما لدينا من مؤمن أرضا، القمح فوق الدقيق. العدس فوق الشعير، والكل تحت نعيله، وهو يتميز غيظا.

أحضروا فؤوسا، وراحوا يحفرون الغرفة والباحة وما حولها. طيلة ثلاث ساعات كاملة. ولما لم يعثروا على السلاح الذين زعموا أنه في حوزتي، راحوا يعتقلون كل من يجدوه في ضواحي كوخي. وكان بالقرب منا، مقهى وبائع فول.

ألقوا القبض على بعض من كان هناك، يتسلى بلعب الورق أو الحجر. ولشد ما كان سرور السيد الحاكم بالغا، عندما عثر على مسدس عند أحدهم، وعلى خنجرين من النوع البوسعادي عند شابين.

أخرجوني مقيدا بالسلاسل، وكان عدد كبير من أهل القرية متجمعين أمام كوخي، يستطلعون ما هنالك. تأملهم الحاكم مليا، ثم سألهم:

– أتعرفون من هذا؟

أجابوا كلهم بالنفي. اغتاظ الحاكم، وتوجه بالحديث إلى محمد الصغير، مدير المدرسة، وكان يعرفني جيدا. كان الحاكم في ذروة الانفعال:

– كيف لا تعرف من هذا، وأنت من منطقة بسكرة؟ أتعلم ما فعل – هذا – بشيخ العرب بن قانه؟ لقد جاء هنا إلى الأوراس، يفعل بنا ما فعله هناك.

ساقونا إلى (آريس) راجلين، بينما القائد والدوائر، الذين يصطحبوننا يمتطون أفراسا وأحصنة، كنا أحد عشر معتقلا. وكان السير قد أتعبنا كثيرا. وعندما بلغنا قرية منعة. كنت قد أقنعت أصحابي بالقرار الذي اتخذناه. لقد أعلنا الإضراب عن المشي.

– اكتروا لنا سيارة، أو انزلوا ودعونا نركب. لن نتقدم خطوة أخرى، وإن قتلتمونا.

تحققت نتيجة إضرابنا بسرعة. تنازل القائد، واكترى لنا سيارة، ولعله في قرارة نفسه شكرني

لأنني أرحته من الحصان، ومن البرد اللاسع، ومن مشقة الطريق الوعرة، وأكثر من ذلك، من إمكانية الهروب فمن يدري. فالأوراس ينطوي على كل شيء.

ما إن وصلنا، حتى أحلنا على التحقيق، كان الحاكم «فابيي» بنفسه هو الذي تولى استنطاقنا:

– أين كنت تقيم؟

– بدوار عابدي عند أخوالي. إنك تعرف هذا.

– ولماذا وجدتك بأملطان؟

– اضطررت إلى بيع وشراء التمور، مع صديقي بومعراف. لقد جاع أولادي هنالك.

– وأنت لماذا تسمح بالقمار في مقهاك مع أنك مقدم؟

– عجزت عن الإشراف على المقهى. لذا كلفت ابني بذلك.

– وأنتم لماذا تقامرون؟

– لا نقمّر بالدراهم. إنما بالفول والقهوة لا غير. نتسلى في الحقيقة.

– وأنت لماذا تحمل هذا المسدس؟

– أسكن بعيدا عن القرية يا سيدي الحاكم، وأخشى اللصوص ليلا.

– أنتما أيضا ستقولان في شأن الخنجرين ما قاله صاحبكم هذا.

– نعم يا سيدي الحاكم.

– لقد لقنتكم الشيطان الأحمر في الطريق. سترون.

أودعنا السجن في الحال، وأفهمت أصحابي، أن المستهدف الوحيد في اللعبة، هو أنا، ورجوتهم أن يشهدوا ضدي زورا.

واقتنعوا بذلك، عندما اطلعوا على فحوى ما دار بين الحاكم وبين سي عبد الباقي شيخ الزاوية، الذي جاء يحتج على إلقاء القبض على مقدمه، صاحب المقهى.

لقد أفهمه الحاكم، بأن الأمر يتعلق بالشباح المكي. وأن شهادة المعتقلين ضده هي شرط إطلاق سراحهم الوحيد. إطمئن يا الشيخ عبد الباقي.

– طمأنك الله. هذا أمر سهل. سيشهد المقدم وبائع الفول، ومن معهما وكل الأوراس إن شئت، ضد هذا المشوش، الذي تسعى الحكومة لاعتقاله منذ مدة. والذي جاء ينغص علينا عيشنا في الأوراس.

دعاني ضابط الجندرمة، بعد أسبوع للتحقيق، مرة أخرى.

– لماذا تقول إنك أتيت لشراء وبيع التمور، وأنت تملك في أملطان مقهى وحانوتا دون ترخيص.

– المقهى والحانوت لم يصيرا ملكا لي إلا بعد دخولي السجن.

– لا أمزح معك.

– أنا أيضا لا أمزح. واسمح لي أن أشرح لك الأمر.

– لا حق لك في الكلام إلا حين أسألك.

– إنني رجل سياسة. إذا كنت متهما بما يستوجب السجن، فأنا مستعد لذلك، أما ما عداه من التهم الملفقة، فإنني لا أعترف بها. لقد وجدتموني نائما في كوخي، وليس بالمقهى، أو بحانوت الفول.

– هل يعقل أن نصدق واحدا، ونكذب عشرة؟

سألني أحد الدركيين المكلفين باصطحابي إلى سجن باتنة:

– ما لديك من أمتعة؟

– حقيبة تحتوي على بعض المجلات والجرائد.

– كلا. السيد الحاكم يقول بأن معك مسدسا وخنجرين.

– أترك المسدس والخنجرين لدى الحاكم.

بذلك، تدخل ضابط الجندرمة – مشكورا – لصالحي، وفهمت من ذلك، كما فهمت من ذي قبل أن الفرنسيين، الذين يتواجدون على رأس مؤسسات الحكم ومصالحه في الجزائر، يعكسون بوجه أو بآخر، التناقضات التي يتخبط فيها المجتمع الفرنسي.

جاء أولا، الرفيقان، كوسو، والبشير بن غزال لزيارتي في السجن. وبذلا جهدا مع المدير ليحسن وضعي، ومعاملتي، ثم جاء ثانيا، شيخ العرب، أو فرعون العرب، كما أسميه، بن قانه، لكن ليس لزيارتي أنا، وإنما لزيارة مدير السجن، مرفوقا بوفد كبير من قُيّاد بسكرة، وخاطب المدير بكل عنجهية:

بلغني وجود شخص شرير وخطير عندكم. يدعى شباح المكي. وصيتي لك أن تأمر بتقييده بالحديد، وبإلقائه وحيدا في الزنزانة، وإلا فإنه، سيثير عليكم السجناء ويحطمون السجن.

استدعاني المدير، وأطلعني على وصية بن قانه، ثم سألني:

– ألست أنت من أرسل ابن قانه إلى السجن من بسكرة إلى أولاد جلال، موثوق اليدين في ذيل حصان.

– بلى. وأنا أيضا، من صدر طابع عالمي يحمل صورتي للتضامن معي.

– أوصيك باجتناب المناقشات مع المساجين، لأنهم سيرسلون من يتجسس عليك. وسأوصي الحرس بعدم تشغليك.

شكرته، كما شكرت من قبل ضابط الجندرمة والقائد صالح، واستسلمت للسجن ستة أشهر كاملة. دون أي بحث أو تحقيق. إلى أن جاء ذات يوم كاتب المحكمة صحبة ترجمان، وأعلمني بمثولي القريب أمام قاضي التحقيق في باتنة.

ولما تم ذلك، سألني القاضي، هل اكتفي بالبحث القديم، أم لدي ما أضيفه، قلت فورا:

– أرجو، معرفة التهمة الموجهة لي.

– أنت متهم بفتح دكان ومحل قمار دون رخصة.

طلبت إذ ذاك، استدعاء من اعتقلوا معي، لتجديد البحث معهم. جاؤوا بالفعل، واعترفوا أمام القاضي بالحقيقة كلها. تحت ضغط اللائمين عليهم من الشعب شهادة الزور، ضد سجين سياسي.

أمرني محامياي السيد جوزي، والسيد غريب بالتزام الصمت أمام المحكمة، لأن الأكثرية الساحقة من الشيوعيين، اعتقلوا دون تهم، وأرسلوا دون محاكمة إلى السجون والمنافي.

عشرة أشهر سجنا وخمس سنوات نفيا. نطق رئيس المحكمة بذلك. لم أعترض. عملت بنصيحة مدير السجن، الذي أكد لي أن محكمة الجزائر، بعيدة عن نفوذ بن قانه، وهناك ينبغي أن أستأنف الحكم. كان الأمر كذلك.

طرح محامياي المكلفان من طرف المساعدة الشعبية للدفاع عني، المسيو ديرلاد والسيد ابن باحمد، الملف كاملا من جديد، ولما اطلع الرئيس عليه قال:

– لا حاجة للمرافعة، لأن الشباح المكي الأوراسي – حسب رأي المحكمة – بريء.

– انتهى الفصل الرابع.

قال الشيخ مبارك، مدير التكميلية، وأغلق الكراس، وأمر زوجته وابنته بالنهوض.

– هل أجبتك عن سؤالك يا جميلة، هل أقنعك الفصل الرابع بأن الاضطهاد كان ولا يزال من

نصيب التقدميين؟

– كان ذلك مجرد سؤال، أملاه الموقف. إنما أسألك الآن لماذا اخترت الفصل الرابع بالذات؟

– حتى يكون الجواب شاملا. فليس المهم أن يتعرض التقدميون للمضايقة، إنما أن يتصدوا إليها بأسلوب ثوري، خال من سيطرة العواطف.

– والحماقات.

– أضافت جميلة، ابتسم الشيخ مبارك، نحنحت ثريا، لتشير إلى جميلة بأن رسالتها، اللطيفة هذه قد بلغتها في أحسن الظروف.

– لننصرف الآن. الوقت متأخر، وأنتن تعبات.

– أعرني الكراسة يا رفيق. لن أصبر على عدم قراءتها.

– نعم نعم.

– نقرأها الليلة، وغدا تكون عندك.

علقت البنات على طلب جميلة، تردد الشيخ مبارك قليلا ثم سلمها لجميلة قائلا:

– أنت المسؤولة عنها إنها النسخة الوحيدة الموجودة على وجه الكرة الأرضية.

سأحافظ عليها مثل ما أحافظ على وجهي.

ضحكت. ثم تبعت زوجة الشيخ كمبارك حتى الباب وهمست في أذنها:

– أريد نقيعا أو أي مشروب ساخن. أنا مريضة يا خالتي.

سمعتها ثريا مع ذلك فبادرت:

– وقهوة يا خالتي عيشة. إنني سأسهر حتى الصباح. سآتي معك، لأحضرها بنفسي.

فتح الشريف الباب. ألقى ببعض علب تبغ، وهمس لهن ببعض أوامر، ثم التفت إلى الشيخ مبارك يسأل عن أحواله، والتحق عاجلا، بحمو وعبد القادر. ليقصدوا جناح مصطفى وصحبه.

عاد السكون من جديد إلى التكميلية. البنات استغرقن في التدخين والاستماع إلى مذكرات الشباح المكي الأوراسي، ويحتسين القهوة والشاي والنقيع.

الشيخ مبارك، أطفأ الأنوار، واستسلم إلى النوم بينما كلبه طوني يرسل من حين لآخر إنذارا في الفضاء الليلي.

اللاز، تحت شجرة الخرنوب في وضعه لا يزال يواجه الغرب منتصبا مصلوبا، بعينين لا تطرفان.

* * *

- غدا. اليوم أعني. فالساعة تجاوزت منتصف الليل، نحسم الأمر، بصفة نهائية. حسب البرنامج، فاليوم يوم شرح وتوضيح، كما يقولون، بعبارة أخرى يوم بث الأفكار المسمومة المستوردة.

علينا أن نتصدى لهم. نسفههم، ونؤلب الرأي العام ضدهم. المهم أن نثير معهم معركة. نصطدم بهم وهذا أهم دور نقوم به نحن.

أتفهمون. إننا قلة. كذا كان الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام في غزواته. نحن سبعة وهم قرابة السبعين. واحد مقابل عشرة.

غزوة بدر. فلتكن كذلك، وسننتصر في المعركة بإذن الله وبعون منه. لأننا مؤمنون، عامرو القلوب بالإيمان وبالثقة. ولأنهم جبناء، عملاء للخارج، معقدون بذنب تعاطي الحرام الممنوع.

إن اللصوص دائما جبناء وهؤلاء لصوص يريدون أن يسرقوا منا شعبنا، ويعطوه لموسكو.

أحيطكم علما بأن الحزب معنا. منسق قسمة جبهة التحرير سينجدنا في الوقت المناسب. سينجدنا بالمناضلين وبالشعب، وبالدرك الوطني إن اقتضى الأمر.

اتفقت معه، على محاصرتهم في الثانوية من طرفنا، حتى تحضر الحافلة فتعيدهم إلى العاصمة. قد تعيدنا معهم، نحن بدورنا، وقد تعيدهم وحدهم، حسب تطورات الوضع على كل حال. سيخلو لنا الميدان، إن اليوم وإن غدا. وسيلتحق بنا بعض الأنصار من شبيبة الحزب. لقد كان اتفاقنا في العاصمة على هذا.

من منكم يتولى أمر العاهرات الضالات؟ لقد أحضرت قنينات الاسيد. ينبغي أن تصب كلها على أوجههن وأشعرهن.

جميلة. جميلة الفتنة. بقرة إبليس. هي التي تغويهم بالتطوع. يجب أن تنال القدر الأكبر من الحامض. أريد أن يتشوه وجهها كله.

من هو الفدائي؟ من منكم حمزة؟ أين خالد بن الوليد، سيف الله المسلول من بينكم؟ إن ضرب البنات هنا، معناه إنزال الرعب في قلب كل الجامعيات. لن تفكر إحداهن مطلقا في التطوع مرة أخرى.

- أنا أتولى أمر البنات.

هتف بوزيد، متظاهرا بالحماس. فابتسم مصطفى منتصرا، وتقدم يقبله.

كنت واثقا منك. بارك الله فيك. المادة في حقيبتي، وسأعطيكها، منذ اللحظة. ها هي هنا. واحدة إثنتان. ثلاث. تكفي هذه الكمية. ضعها في جرابك، وإياك أن تفتحها قبل الأوان. إنها من النوع القوي جدا جدا.

كان يضحك بانفعال شديد. حتى بدا وكأنه على وشك البكاء. بل إنه ليتمالك بالكاد، ويوشك أن يسقط. وجهه محمر. عيناه مغرورقتان. أوداجه منتفخة. صدره يعلو وينخفض. يداه ترتعشان.

لعله الآن يخيل إليه، أن العملية تمت. أنجزت. وها هي الجثث، منبطحة، وهاهو وجه جميلة الصبوح، يتعرى من اللحم. عظامه تبدو في بشاعة متناهية، عيناها الخضروان الزرقوان، مفقوءتان، شعر أهدابهما وحاجبيهما، متآكل.

ها هي جهنم. تنفتح بأبوابها السبعة، وتلتهم، كل كافر، يناصر الحكم الملحد. ها هو طوفان نوح، يغرقهم وسط الأرض الحرام التي يسطون عليها. لا نبقى سوى نحن. في جنة خضراء عرضها السموات والأرض. «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا».

هكذا ودفعة واحدة يقضي عليهم جميعا هم ورئيسهم، وموسكوهم، وهافانهم، ويتطهر العالم.

يتطهر بالدم والنار وبالأسيد. يتطهر مرة وإلى الأبد.

هأ هأ. قهقهة.

وجمد فجأة. كان واضحا أنه في حالة صرع. استند إلى الجدار، وراح يتأوه متوجعا، كأنه جريح. وبعد لحظات، هدأ دفعة واحدة واستأذن في الانصراف إلى دورة المياه.

كانت مقدمة سرواله مبتلة، وكان البلل بلغ فخذه اليسرى. عجب أصحابه للأمر، وتساءل علوان بصوت منخفض:

– أية جنية كانت تركبه..؟

كتم بوزيد ضحكة، عندما تصور، أنه قد أمني هذا المساء في المسجد عدة مرات منفعلا وهو يفسر سورة والعصر إن الإنسان لفي خسر.

عاد من دورة المياه بعد أن اختلى لحظات خلف سريره، يرتدي جبة بيضاء، مبقعة، بالأصفر في مقدمتها وفي مؤخرتها، وفي مواضع عديدة.

كان هادئا يبتسم في خجل بيّن. كأنما يعتذر عن خطيئة أتاها. جلس على كرسي يواجه زملاءه

المستلقين فوق أسرتهم، ينظر إليهم الواحد تلو الآخر، كأنما يتعرف عليهم من جديد، ويحاول أن يثير معهم، موضوع حديث ما، لا يعنيه منه على ما يبدو، سوى أن يكون بعيدا عن السياسة، وعن الكتاب والسنة وتاريخ الغزوات.

التفت الجميع إلى الباب. كانت هناك طرقات خفيفة. وثب علوان مسرعا لفتحه دون أن يستشير أحدا. لقد خيل إليه، أن اليد التي تدق، ألطف ما تكون، ولعلها يد ثريا، ولعل شبحها هو الذي ينتصب الآن خلف الباب، وتحت الصقيع.

ملأ الشريف، وعبد القاء وحمو، الباب، وتقدموا يحيون. رد عليهم مصطفى في مودة عجبوا لها، وقام مسرعا وصافحهم واحدا واحدا. ليتبعه باقي زملائه.

– إجلسوا. تفضلوا.

خاطبهم في رقة فاعتذر الشريف، بتأخر الوقت، وراح يفتح جرابه، ويستخرج كتبا ونشريات وعلب السجائر.

هذه ذخيرة لحقتنا الساعة من اللجنة الوطنية للتطوع. في انتظار أن تصلنا المنحة المعطلة. ليس سوى التبغ في الوقت الحاضر، وهذا الكتاب، التعاون والثورة الزراعية. حصتكم نسختان فتداولوها فيما بينكم. غدا ليس لنا أعمال يدوية، وعلينا أن نقوم بعقد اجتماعات مع الفلاحين لنتعرف على مشاكلهم، ولنحاول توعيتهم. حملتنا هذه السنة، ترتكز على شرح التعاونية الزراعية البلدية المتعددة الخدمات. الصفحة مائتان وتسعة وعشرون وما يليها.

لماذا لا تسكنون معنا. قاعتنا لا تزال تتسع لأكثر من عشرة؟

لم يجبه أحد. تناول مصطفى الكتابين، بينما اختطف الآخرون علب التبغ، وراحوا يفتحونها في لهفة. كان واضحا من تصفح مصطفى للنسختين، أنه لم يطلع على الكتاب، بعد، ولربما لم يطلع على أية كتابة تتعلق بالثورة الزراعية، بما في ذلك المرسوم الرئاسي المتعلق بها.

لاحظ عبد القادر، والتفت إلى حمو يغمزه. لفتت حركة عينه، انتباه إبراهيم، طالب كلية الآداب، فلم يتمالك من الابتسام، ولكي يبرر ابسامته على ما يبدو، تقدم من الشريف يعيد إليه علبة التبغ:

– أنا لا أدخن. أعطها لواحد من الأولاد أو البنات. أو إلى عمي عبد القاء.

لا حظ الشريف، كما لا حظ بوزيد أن إبراهيم، قد يكون تعمد ذكر البنات. فالعرف الجاري في أوساط الرجال من هذا النوع هو تجاهل المرأة، خاصة في مثل هذه الأمور، واستنكار ذلك عليها،

كلها سنحت الفرصة. ثم إن نعت عبد القادر رئيس التعاونية بهذه الصفة العائلية، واختصار اسمه، كما يفعل باقي الطلبة الذين ترددوا قبل اليوم على المنطقة له ولا شك – دلالته.

– إبراهيم هذا ليس سيئا إطلاقا.

قال بوزيد في سره، في حين راح مصطفى يحاول تركيز ذهنه، مستجمعا قواه. لكنه كان خائرا، وكان أكثر من ذلك يستشعر الخجل.

«لقد رأوني. رأوني ما في ذلك من شك، كما رأوا أيضا، ابتلال سروالي. إنني ما أزال أشعر بالابتلال، وبالتصاق فخذي ببعضهما.

عليه اللعنة الشيطان الرجيم.

لو كان هناك ماء ساخن لاغتسلت. ليس أفضل، حاليا، من النوم. من إطفاء الأنوار والاستلقاء في السرير، استعدادا للغد.

لا بد من تنفيذ التعليمات، والقيام بالمهمة على الوجه الأكمل.

نعم.

لكن ليذهبوا الآن. لماذا هم لم يذهبوا بعد. آه ليذهبوا حالا وإلى الجحيم الأسود».

ظل يحدث نفسه، وهو يحدق في صفحات إحدى النسختين بين يديه. في حين استغرق الباقي في الحديث.

كان الشريف يسأل عما إذا سبق لهم أن تطوعوا وعن الحي الجامعي والسكن والنقل وقضايا الدراسة، والامتحانات وتوفر الأساتذة.

وراح حمو عبد القادر، يرد عن أسئلة بعضهم، حول عدد التعاونيات، وعدد المتعاونين، ونوع التعاونيات، وما إذا كان الناس، قد هضموا فكرة العمل الجماعي، والملكية الجماعية.

وراح حمو يحدث بوزيد، عن ابن أخيه زيدان الطالب في الجامعة، وعضو لجنة التطوع.

– يقولون إن النار تلد الرماد. لكن فيما يتعلق بابن أخي، الأمر على العكس تماما. كان أبوه. زيدان أخي، رحمه الله، ورحم جميع الشهداء، رجل سياسة بارز. شعلة من نار. حتى أن الإستعمار يطلق عليه نعت الشيطان الأحمر. وسبحان الله العظيم. ابنه نسخة منه، رغم أنه لم يربه. لقد كان المسكين دائم الأسفار. دائم التهرب. حتى اندلعت الثورة. عاشوا أيتاما في حياته. لكنهم ورثوا عنه النار. إنه في الجامعة معكم، ويهتم كثيرا بالتطوع. لا شك أنكم تعرفونه. أخ اللاز. اللاز ولد أخي

زيدان أيضا. لكن قصة اللاز طويلة جدا جدا. ترك عشرة في كفالتي. ثمانية وأمهم. وأمنا. قل أحد عشر. باللاز. ولو أن هذا الأخير في كفالة الشعب كله.

– أهذا هو العمل السياسي الذي تقومون به؟

تساءل مصطفى، فأدرك الشريف على الفور مغزى سؤاله. كان ينتظر منذ دخوله هذا السؤال، ولعله من أجل ذلك، أطال المكوث، رغم أن الإعياء يكاد يطيح به، إلى جانب ما يشعر به من برد يسري في كامل عظامه.

ها هو السؤال يخرج من فمه أخيرا.

– وماذا غيره. المراسيم. القوانين. الميثاق. اتحاد الفلاحين. التعاونية الاستصلاحية. التعاونية الانتاجية. التعاونية العائلية. المرحلة الأولى. المرحلة الثانية. التعاونية البلدية المتعددة الخدمات. الفوج. الاتحاد البلدي للفلاحين. وفي المستقبل، في السنوات القادمة، المرحلة الثالثة. هذه محاور عملنا السياسي.

نظر مصطفى إلى عبد القادر، كأنما يستفسر عن صحة وصدق كلام الشريف. فبادر هذا:

– ومع ذلك يقول الرجعيون، إنكم تفسدون عقولنا.

قفز مصطفى من مقعده، وتقدم من عبد القادر، يسأل في انفعال محتجا:

– أي رجعيين؟ أي رجعيين؟

– الذين يكرهونهم. البيرقراطيون، وملاك الأراضي الكبار، وتجار الجملة.

عاد إلى كرسيه مطمئنا بعض الشيء. «إنهم اعتبرونا فعلا، مجموعة واحدة. كما اتفقنا على ذلك قبل أمس. هذا جيد. الحمر في غفلة من الأمر إذن. يبدو أنهم لم يعلقوا على حادثة الصباح، التي لولا تدخل جميلة الكلبة، لتطورت، ولحسمت صراعنا. المهم.

لقد أفسدوا عقلية هؤلاء الفلاحين، المساكين، وتركوهم، ينطقون كالببغاوات، بكلام لا يفقهون له معني».

غرق في الصمت وتصفح الكتاب من جديد. انتظر عبد القادر والشريف وباقي الطلبة، أن يعلق، على رد عبد القادر، لكنهم سرعان ما يئسوا من ذلك. تبادلوا نظرات خاطفة، ثم شعروا كلهم بضرورة وضع حد لهذه السهرة الفاترة.

– تصبحون على خير.

– تصبحون على خير.

شعر مصطفى بالارتياح، وهو يغلق الباب بنفسه، لانصراف ضيوف الليل الثقال، وقبل أن يمد يده لإطفاء النور، كي تتم العزلة عن العالم الخارجي ومشاكله وهمومه، صعقه إبراهيم:

– غدا ألتحق بهم.

– بمن؟

– كيف بمن؟ بالجماعة. ألا تعرف أن يد الله مع الجماعة. إنني لا أفهم تصرفنا الشاذ هذا؟ لقد اتفقنا على أن نتوحد، فلماذا نخل نحن بالاتفاق، بينما هم يتشبثون بتطبيقه.

تغير لون مصطفى عدة مرات. ارتعدت فرائصه. زاغ بصره بعد أن طرفت عيناه كثيرا وبسرعة خارقة. اصطكت ركبتاه، قضقضت أسنانه. تقلصت ذقنه.

– أنت. أنت؟ تلميذ المعهد الإسلامي، وابن الريف النقي، طالب كلية الآداب تلتحق بالش.. شو.. شيوعيين؟؟ أنت؟

– من أين لك بهذه المعلومات عني أولا وقبل كل شيء.

– إننا نعرف، كل صغيرة وكبيرة عنكم وعنهم جميعا. وإلا كيف اخترناكم؟

قفز إبراهيم من سريره. كان في أوج غضب، يحاول أن لا يظهره. لاحظ بوزيد وعلوان ذلك. فاستعد للتدخل في اللحظة المناسبة.

قصد جرابه. حمله وراح يعفش أشياءه البسيطة. صابونة صغيرة، آلة حلاقة صدئة. ديوان بشارة الخوري، وكتاب دعاء الكروان لطه حسين، وديوان اللهب المقدس لمفدي زكريا. قميص واحد. سروال واحد، وجبة للنوم.

– ماذا تفعل؟

– لا دخل لأحد في شأني. أنا متطوع ولست مجندا لأي نازي.

– ولكنك كنت معنا.

– لقد اتفقنا، أول أمس بمحضر السلطات المحلية، على أن نلتئم في تطوع واحد. كانت معركة، خضتها وحدك دون إشراكنا، فاوضت وبعت واشتريت، ووصلنا إلى قرار التوحيد، ثم ها إنك تستهين بنا، وتقرر وحدك خيانتهم وضربهم. إبق وحدك أو مع من شاء أن يبقى معك. أما أنا فذاهب. أنا متطوع، من أجل دعم الثورة الزراعية، وهذا كل ما هنالك.

– والدين الإسلامي الحنيف. أيها المخدوع. لا شك أن جميلة هي التي أغوتك. هذا هو أسلوب الشيوعيين في كل مكان وكل زمان.

كان ممكنا أن يتوقف الأمر عند هذا الحد. ولعل ذلك كان لصالح مصطفى، فقد بدا غضب إبراهيم يتضاءل، بعد أن تفقد محتويات جرابه، وفكر في أن الخروج في مثل هذا الوقت لا داعي له ويمكن تأجيله إلى نهار الغد. إلا أن مصطفى هاله أن يخان بمثل هذه السهولة والبساطة، من طرف أحد العناصر التي كان يعلق عليها أهمية كبرى. سيتبعه الأخرون، لا محالة، إن لم يكن الليلة فغدا. لا لن يرضى بالهزيمة قبل بدء المعركة. لن يتعرض لمصير الإمام علي بن أبي طالب. لن يخذله أنصاره قبل أن يهزمه أعداؤه.

هجم لينتزع الجراب من بين يدي إبراهيم. دفعه هذا بكتفه دفعة قوية. أعاد الكرة في حماسة أكثر. دفعه بقوة أكبر. ارتمى عليه يريد عضه. ألقى إبراهيم الجراب فوق السرير، والتفت إليه، أمسك بخناقه جيدا. ضغطت اليد اليمنى بكل ما تملك من قوة. أسنده إلى الجدار. هم أن يصفعه، لكنه تردد:

– أتعرف الدين؟ أيعرف الدين واحد مثلك أيها الوغد مثلما أعرفه؟ إنك مجنون. دموي. جبان. أناني. إذا ما تعرضت. – مرة أخرى بسوء لواحدة من الطالبات، كسرت عنقك.

تخبط مصطفى، محاولا التخلص. عض شفته السفلى حتى أسال دمها. ضرب برجله اليمنى ثم اليسرى، كان إبراهيم قويا، ثابتا، وكانت ذراعاه في منتهى الطول.

أنّ مصطفى. تأوه. توجع. ارتعدت فرائصه. أدخل يديه إلى جبته، وأسرع بهما إلى فخذيه. صرخ كالمطعون:

– فك خناقي. أطلقني.آه. آه.

كان علوان وبوزيد، خلال كل ذلك، ينتظران ما ستفسر عنه المعركة الصغيرة. ولقد حاول أحد زملائهما، أن يستفزهما مع باقي الطلبة، لوضع حد للاشتباك، إلا أنهما نصحا الجميع بعدم التدخل.

– إبراهيم عاقل، ولن يتجاوز الحدود. دعونا نر، الحقيقة كما هي.

– لم تطل المعركة أكثر. لقد قذف مصطفى بنفسه على الأرض مغمض العينين، وسط ضحك الطلبة الصاخب.

– لم يجد إبراهيم بدا من الايتسام بدوره. انقضت لحظات غير قصيرة. قام على إثرها مصطفى

ليسرع إلى الكنيف. أشعل النور. أغلق على نفسه الباب. تجرد من ثيابه. فتح الحنفية، وترك الماء البارد ينساب على كامل بدنه.

– إصبر الليلة، وغدا ننضم كلنا.

قال علوان، فأيده آخر، بينما قال ثالث:

– أنا أفكر في العودة إلى دارنا.

– لن أتخلى عن مصطفى مهما كان الأمر. أنا معه حتى الموت في مكافحة الخطر الأحمر.

قال رابع، في حين كان علوان يتأمله، متعرفا على هويته. هذا الذي لازم جانب الصمت طوال الوقت الماضي.

– لم أهتم سابقا، إطلاقا بالشيوعية، لكنني ومنذ اليوم سأنكب على دراستها وإن وجدت فيها ما يليق بمجتمعنا، أؤمن بها، دون تردد. من منكم إطلع على الفكر الشيوعي.

قال إبراهيم موجها سؤاله إلى الجميع، لم يجبه أحد. بل أن بعضهم رفع حاجبيه مؤكدا عدم إطلاعه على أي شيء من هذا القبيل.

ساد الصمت. سكت الجميع. بما في ذلك بوزيد، الذي هم أن يعلق على تساؤلات إبراهيم بأنه لا يؤمن ولا يعرف الشيوعية، ولكنه يساند، كل الإجراءات الاشتراكية التي تتخذها الحكومة. إكتفى بالإشارة بيده، أن إبق الليلة، معنا، ومد يده إلى زر النور. ضغط فسادت الظلمة.

* * *

ما إن استقلت الطالبات في مضاجعهن، مطمئنات لظهور، الشريف وعبد القادر وحمو، ولكلب المدير، الذي انبطح عند قدمي اللاز، وواجه المدخل، منفذا لوصية سيده، ومبادرا من حين لأخر بالتهديد بنباحه المتقطع. حتى استسلمن للنوم كلهن بما في ذلك ثريا. تاركا جميلة، تواصل القراءة بالصوت المسموع من مذكرات الشباح المكي الأوراسي.

عندما انتبهت إلى أنهن تخلين عنها. نهضت بحذر. لتطفئ النور، وتعود إلى فراشها على ضوء ثقاب أوقدته.

داهمها النوم بدورها بسرعة، غير أنها لا تدري، كم استغرقت فيه عندما استيقظت على وجع حاد في ظهرها وبطنها.

تململت. حاولت أن تتمسك بأهداب الإغفاء الذي يراودها. إلا أنها لم تستطع. ترددت في إشعال سيجارة، خشية إيقاظ زميلاتها، أو إفساد النوم عليهن، وعلى نفسها أيضا، فمن عادتها أن لا تعود إلى النوم بسرعة، إذا ما استيقظت وأشعلت سيجارة. يزول عنها خدر النوم، ويصفو ذهنها، وتشعر بالملل من الفراش.

أخيرا. وجدت يدها، تتلمس علبة التبغ، وعلبة الثقاب.

أشعلت سيجارة. سحبت منها نفسا مطولا، وراحت تتنصت، ما إذا لم توقظ زميلاتها. كن نائمات. هامدات. تتردد أنفاسهن في رتابة وانتظام. ثريا فقط. المسكينة. كانت تئن، وتأكل أسنانها.

مررت يدها على بطنها، وعلى ثديها، ثم على وجهها. انتفضت. خيل إليها أن الحامض أكله. تجلت لها صورتها في الظلمة، محروقة مشوهة. مثقوبة الوجنتين.

اعتراها ذعر شديد.

إن ذلك ممكن جدا. ممكن. الليلة، أو الليلة القادمة، غدا أو بعد غد، أو في يوم من الأيام:

إذا لم يفعله مصطفى فسيفعله غيره، إذا لم يفعلوا ذلك بالذات، فسيفعلون ما يماثله، أو ما هو أشد فظاعة منه.

النضال له طعمان متميزان، أحدهما عذب جدا، وثانيهما مر جد. كلا الطعمين حادان إلا أنهما، ينتهيان معا إلى إحساس قوي بالانتشاء. بالإحساس بذروة المواجهة، مواجهة المصير الدرامي عن وعي وعن سبق إصرار. إحساس طارق بن زياد، في اللحظة التي أحرق فيها سفنه.

آه. آه.

إننا اليوم في أحسن وضع، نعمل في سرية تامة، ولا أحد يستطيع أن يحصر تهمة معينة ضدنا، أو أن يميز بين هذا المتطوع وذاك.

نتستر وسط التسعين في المائة من باقي المتطوعين، ولا أحد منا يعلن عن انتمائه حتى لرفيقه.

لكن المؤكد أنه بعد سنوات، لن يتطوع غير الملتزمين الحقيقيين، بالعقيدة الثورية. إن العراقيل المتعددة والتخريبات المتنوعة، ستحدث كلها، في يوم من الأيام، الفرز، ونبقى وحدنا.

وجها لوجه مع الحامض.

في حالة زيدانية محضة.

إما أن نسلم أعناقنا، للذبح، وإما أن نتخلى عن معتقدنا، الموت البدني، أو الموت النضالي، كما كان زيدان يردد.

إذا لم تتقدم الثورة هذه المرة، خطوات حاسمة، فيتم الفرز، في القيادات السياسية، وينتصر الجناح الوطني الديمقراطي، فسنجد أنفسنا من جديد، في وضع شباح المكي وزيدان، وستكون يد ابن قانة هذه المرة، أطول ألف مرة مما كانت عليه في الثلاثينات والأربعينات.

إذا ما قدر وتنازل هذا الشعب الذي لم يتعود على التنازل، وبرز في بلادنا سادات، فسيكون سادات الجزائر، أكثر وقاحة ألف مرة من سادات مصر. وستكون مأساة الجزائر، أكثر رعبا مائة من مأساة مصر.

لا. لن يحدث ذلك. ويجب أن لا نسمح لأنفسنا، بمثل هذا التفكير إطلاقا.

لقد تنازل زيدان، قبل الذبح بقليل، عن الإحساس الذي كان يلازمه، طوال طريقه، نحو ملاقاة مصيره، بأن مصير حركة الشعب المسلحة، سيكون مثل مصير الثورة الفرنسية، أو تيريز دي كيرو، كما كان يرمز، بذلك.

أقنعه سانتوز الكومندان الإسباني اللاجئ، بأن الجماهير عندما تتسلح، تتولى طال الزمن أم قصر، أمر مصيرها بيدها. ستتبدل قياداتها وتتبدل، إلى أن تكون شعبية ثورية خالصة.

برهما، في رواية «اللاز»، كان عبقريا حقا. استطاع وهو يتحدث عن حوادث داخلية محضة، ذات طابع خاص، تجري ببلادنا، أن يستشف جوهر حركة عبد الناصر. ربط بين ما يجري عندنا وما يجري عندهم، وكما لو أنه يمسك بخيوط القضية كلها.

كان شموليا وكان ذكيا.

لم يربط بين مجريات الأمور، في مصر والجزائر فحسب، بل، أشر، حركات العالم الثالث كلها، وجعل إمكانية ارتباطها القريب أو البعيد، بالإمبريالية وبعدو الأمس واردة جدا.

لقد حدد بالتدقيق، الحركات الثورية من غير الثورية، وترك كل الاحتمالات ممكنة لمستقبل الجزائر.

كلا. إنك تتقوّلين عليه. فمن أول الرواية إلى آخرها، يردد من أعماقه «ما يبقى في الوادي غير حجاره»، وقد شرح أكثر من ذلك حجار الوادي بأنها الصح، الحق. واللاز إلى يومنا هذا يهتف بهذا النداء الثوري المتفائل.

لا تورطي المؤلف المسكين أكثر. كفاه ما تحمله ويتحمله، يا جميلة.

آه. آه.

ها إننا نعاني من جديد.

نحن موجودون باليوم، كما كنا موجودين بالأمس. لا يمكن إلا أن يحدث ذلك. هذا منطق التاريخ، ما يحدث في كل مكان من العالم، مهما تغيرت الأشكال. إنه قدر الإنسانية.

هل نحن اليوم. امتداد لمدير التكميلية الشيخ مبارك، أو لشباح المكي، وزيدان والآلاف ممن لا نعرفهم، أم نحن طرف ثالث.؟

ومصطفى الذي يهددنا بالآسيد، أهو امتداد لبن قانه، أو الشيخ الذي ذبح زيدان من القفا، أم هو أيضا طرف ثالث.

لا. لن يكون امتدادا للشيخ. فمهما يكن موقفنا من الشيخ، رغم فظاعة فعلته، فإنه لا يسعنا إلا أن نعطف عليه. لقد كان يحمل السلاح، ويقاوم الاستعمار، ويناضل من أجل تحرير الجزائر.

لقد كان له مفهوم خاص عن الوطنية، واندفع إلى أقصى حد في هذا المفهوم، وهذا كل ما في الأمر.

أما هؤلاء. مصطفى وأمثاله، رجعيو اليوم، فإنهم لا يساهمون بأدنى شيء، في تقدم البلاد، بل إنهم على العكس من ذلك، يعملون على تخريبها، وعلى هدم ما بناه الشيخ وزيدان، رغم ما كان بينهما، إنهم يحنون إلى الاستعمار، ويعملون جاهدين على ربطنا به بشكل أو بآخر.

مهما يكن. قضيتنا واحدة. نحن وهم.

مستقبل الجزائر، هو القضية التي نختلف حولها، ونتصارع من أجلها. والمؤكد أن الصراع بين ثوار الأمس، كان نتيجة سوء فهم، ولم يكن نتيجة سوء نية.

والفوق؟ ماذا في الفوق، ماذا أفرزت معركة السنوات السبع المسلحة، بين الثوار والاستعمار، وبين الثوار والثوار؟

قبل الثورة الزراعية. لم يكن هناك سوى ومضات. سوى إشراقات.

الإحساس بضرورة ثورية الثورة قوي. تجسد في ميثاق الجزائر، وفي كل بيانات وتصريحات بعض القادة، لكن تجسيد ذلك الإحساس، وهذه الإسقاطات الشعبية الثورية، في تنظيم ثوري طلائعي، تحتضنه وتسانده الجماهير الشعبية، وفي الانطلاق لخوض المعركة بكل متطلباتها وبدون عقد، لم يتم بعد.

لم يتم بالشكل المناسب لطموحات وتضحيات هذا الشعب.

يقينا أن من تحمل مسؤولية الثورة الزراعية في مثل هذه الظروف، وفي ظل ميزان القوى هذا الذي نعرفه، نحن جيد المعرفة. لا يمكن أن يكون إلا إحدى الثمرات الطيبة جدا، للثورة الوطنية، وأحد عناصرها الخارقة الذكاء، والوعي بحركة التاريخ، والتشبع بروح العصر، والأكثر إحساسا بالمسؤولية، تجاه مستقبل الجزائر. وقد أعطى للحركة الشيء الكثير، أهمه، وضع الجماهير الكادحة وجها لوجه مع مصيرها، وربطها ربطا قويا بعجلة الثورة.

لن يكون في الجزائر سادات.

يستحيل ذلك. هذا الشعب، هو صانع الثوريين، وكل من سيأتي بعد الهواري، لن يستطيع إلا أن يكون على يساره، لكي يضمن الالتحام مع الشعب.

ثم إن ظروفنا، تختلف، كل الاختلاف عن ظروف مصر. فلا الإقطاع هنا، هو الإقطاع هناك، ولا الأرستقراطية هي الأرستقراطية، ولا البرجوازية هي البرجوازية، ولا الجيش هو الجيش بالإضافة إلى الخبرة لدى لطبقة العاملة والمناضلين العماليين، المكتسبة من المعايشة المباشرة للرأسمال في أعلى أشكاله.

لكن. لكن.

وتململت.. ماذا لكن؟

هل ستكونين مثل ثرية، يسارية استعجالية؟

برهما يقول. إنه يثق به ويحترمه، ويشعر بثقل مسؤوليته، والجماهير الكادحة، تحبه من أعماقها. وبفضله، أنت متواجدة هنا، تشكلين مع رفاقك ورفيقاتك، خطا موازيا للزمن الحراشي، وللموت.

كان ممكنا جدا، أن تكوني، أنت، وهم، وبرهما، في السجون والمنافي، وليس التهم هي التي تنقص. إنكم لا تستطيعون إنكار الحقيقة التي يعلمها الجميع. وهي أنكم تزرعون منذ سبع سنوات بذور تنظيم ماركسي لينيني سري.

وبالمعنى الدقيق والمفجع. غير شرعي. تطبعون المناشير والنشريات، وتوزعونها، وتصدرون البيانات في كل كبيرة وصغيرة، محلية، أو عالمية، وتشاركون في الندوات والمؤتمرات الدولية.

تمرون أمام الشرطة، وأعوان الأمن، وفي حقائبكم بضائع ممنوعة، تقفون في محطات الحافلات أو في أنهج القصبة، المظلمة، في انتظار المواعيد. تتبادلون، كلمات السر، وتصدرون القرارات. تزاحمونهم على العمال والطلبة والشبيبة، ثم تخرجون إلى الفلاحين.

هيه.

هكذا تخرجون إلى الفلاحين، وتترجمون لهم القرارات والمراسيم، وتحدثونهم عن الاشتراكية، وعن الإقطاع، والظلم الاجتماعي وصراع الطبقات.

لقد ولى زمن الصراع بين الثوار والثوار.

لكن.. لكن...

ضربنا كثيرا. وتمكنا في الآخير من الحفاظ على البقاء.

لقد دفعنا وما زلنا، ندفع الثمن. وعلى استعداد تام لدفعه مهما كان باهظا.

إنه قدرنا. تلمست وجهها. مررت أصابعها على عينيها.

أكيد أنه في خضم الصراع المحتدم، يتحمل الهواري مسؤولية كبرى، لتخفيف حدة الألم عنكم.

برهما، يقول، أعرفه منذ الخمسينات. وأعرف بالتقريب، كل تركيبات فكره، لقد استمعت إليه يتحدث، بعد عودته من مؤتمر طرابلس، وتركته مرة ينتظر، خلال نوبة حراسة كنت أقوم بها، قرابة العشرين دقيقة، تحت الشمس المحرقة في انتظار أن يحضر رئيس فرقة الحراسة، وعشت حتى الأعماق، فترة إعلان تمرده عن الحكومة المؤقتة بكل شجاعة. وأجريت معه حديثا. صحفيا يوم لم تكن الأمور بيده. لعله أول تصريح سمح لنفسه بإعطائه بعد الاستقلال. وتشربت كل كلمة قالها

في خطبه، ولدي تفسير لكل حركة قام بها. وقد تحديته أكثر من مرة.

كان علي أن أتحداه، بحكم ممارسة الكتابة، وبحكم تواجدي السياسي، معه، وأيضا بحكم يساريتي التي لا يمكن أن أتطهر منها كفنان، محكوم عليه بالتوق إلى الأمثل فالأمثل.

إنني أعرفه كما أعرف نفسي.

وإذا ما طبقنا عليه، قوانين المفهوم المادي للتاريخ، فسنجد أنه، أكثر من يعمل على تحطيم الزمن الحراشي، فبتوسيعه للصناعة، يفتح المجالات الحقيقية للانقلاب الأساسي، في كل البناء الفوقي الهائل. ويحدث التفاعل الاجتماعي الكبير، ويضفي طابع الثورية، على كل ما يجري في بلادنا منذ الخمسينات.

تعرفين جيدا المقولة الماركسية (.. ليس إدراك الناس، هو الذي يعين معيشتهم، بل على العكس، من ذلك، معيشتهم الاجتماعية، هي التي تعين إدراكهم، ومع تغير الأساس الاقتصادي، ينفتح عهد الثورة الإجتماعية، ويحدث الانقلاب...).

إنه لا يستطيع أن يكون إلا جانبنا، وإن أعداءه وأعدائنا في نفس الوقت، يحكمون عليه كذلك. إنني لواثق من أن ذكاءه إلى جانب الروح النضالية لدى الشعب، سيقيه المصائر التي نتخوف منها.

– ولماذا تكتب؟

فاجأت برهما بالسؤال، وفي الحق، فاجأت حتى نفسي، فلم يسبق لي أبدا أن تساءلت لماذا يكتب الكاتب. فاجأني برهما بدوره:

– لأحرز على المرتبة العشرين، في سباق الدراجات الدولي، المنتظم ببلدنا.

تلبسته من جديد روح الفنان، وتخلص من روح السياسي الهادئ الذي ينظر إلى الأشياء ببعد ويعمق.

راح برهما يشكو. كانت عيناه مغرورقتين. وكانت الغصة تملأ حلقه.

– تثيرين الجرح يا جميلة. تثيرنه بكل حدة ووحشية.

أنا من الماضي ومن الحاضر، ومن المستقبل. أنا مثله. منكم ومنهم. ومن ضمير الأمة. برهما بالفعل كما يحلو لك أن تنعتيني.

غير فخور بالماضي. لأنني أعرف جيدا، أنه كان ممكنا جدا أن يكون أحسن.

وغير قانع بالحاضر لأنني أعرف من تناقضاته ما يثير القشعريرة في النفس.

أعرف التفرد.

أعرف الوحدة.

أعرف أكثر من ذلك المكابرة.

حاضرنا – ها إنني شرعت أناقض نفسي – مركب تركيبا مفتعلا على ماضينا، وأنا أخشى، أن ينهارا معا الماضي والحاضر. الحاضر والماضي.

إنها مشاعر البرجوازية الصغيرة تلازمني. في الحين الذي يلازمني، الإيمان الأعمى، الإيمان الجنوبي، بالمستقبل.

هذا اللاز الذي عرف، كل أنواع الحقيقة، واستوعب، كل أوجه تفسيرها وتأويلها، وكون له وجهة نظر خاصة به. لا يمكن أبدا فقدان الثقة فيه، وفي أنه هو وحده، صانع المستقبل. إنني في هذه الحال، أنسى ماركس، وأستحضر أقوال جلال الدين الرومي (إن كنت لا تبصر جريان مياه النهر، فانظر إلى حركة هذه الأعشاب في النهر. فإذا ما بلغ النهر، غاية سرعته في جريانه، لا يستقر غم في ضمير العارفين. فهذا النهر حين يكون في قمة امتلائه، وسرعته، فإنه لا يبقى به متسع إلا للماء..).

أنا معهم ولست منهم. وأنا منكم ولست معكم، يربحون وتربحون، ويربح اللاز، ولكنني الخاسر الأول والأخير. لأنني لست متأكدا لا من ثقتكم ولا من ثقتهم، ولأنني لا أستطيع أن أكون في سباق الدراجات الدولي إلا في المرتبة العشرين.

– وما هي المرتبة العشرين..؟

– هي تلك التي تسبقها، المرتبة الرابعة عشرة. والتي تهتم بها أجهزة الإعلام في بلادنا، وترتكز كل نشاطاتها حولها. وعنما تكون قضية الإعلام هي المرتبة الرابعة عشر. وتكون قضية الكاتب، هي المرتبة العشرون، تحدث الغربة، ويضيق الكون رغم سعته، وتتوق الروح إلى الانعتاق المتعجل. ويكون صاحب القضية المسكين، يحرث ويجني في البحر، شاعرا بأنه «يضرب الطين بالحجر، على أمل أن تولد النار.. وأن الكرة التي تصبح كاملة لا نقص فيها، حينما تعدو راقصة، من ضربة كف المليك»، تأبى أن تدور، وأنه يعزف للصم، ويبتسم في الظلمة.

– تثيرين الجرح يا جميلة تثيرينه، فجرح الجسد يبرأ، وجرح الروح لا يبرأ.

فذاك الذي يجلس ليالي طويلة، يضع الكلمة وراء الكلمة، بعد أن يختارها، ويختار أبعادها ورموزها وشفافيتها، والذي يشعر أمام كل كلمة، إنه بين المطرقة والسندان، بين الممكن وبين المستحيل. بين المرتبة الأولى، والمرتبة الرابعة عشر، والمرتبة العشرين. ينسى مأساته، عندما ينهض من مكتبه، ويتحلى باللامبالاة، والمكابرة، واحتقار المصائر المشؤومة، ما لم يصادف قارئا وقحا، فظا في عداوته.

أنتم وهم. لكم جميع، مصير واحد، أما أنا، فلا أريد أن أتذكر المصائر الألف التي أصنعها لنفسي بنفسي.

ماذا كان في وسع بابلو نيرودا أن يجيب وهو يتلقى طعنات الجلادين، ولو سئل لماذا قال الشعر؟ غير أن هذا المصير، وهذه الطعنات لم تكن غريبة عنه، أو مفاجئة له.

وما تكون إجابة زيدان وهو يحس ببرودة وحدة المدية في قفاه؟

وماذا كان في وسع ذلك الذي سقى نفسه السم أن يجيب، والآلام تمزق أحشاءه؟ لو سئل لماذا سمح لنفسه بالتفكير.

وإذا كان في وسع الرسول الأعظم، وهو في غار حراء أن يجيب، لماذا هو هارب؟ وماذا كان في وسع السيد المسيح أن يقول وهو بين الأخشاب..؟

وماذا في وسع الهواري، أن يجيب لو سئل، وهو يوقع ميثاق وقانون الثورة الزراعية، لماذا أو كيف فعلت ذلك؟

إن لحظات الدراما في الحياة قليلة، وقل من يلامسها.

تململت في الفراش بعد أن أشعلت سيجارة ثانية، أو ثالثة، أو أكثر، إنها لا تدري عددها. كانت تهذي بفعل الألم والحمى فبرهما، الطاهر وطار، المسكين لا يعيش في ذهنها، إلا من خلال، الانطباع الذي تركته رواية اللاز في نفسها.

لقد قرأتها وقرأتها، وتحدثت عنها، وسمعت عنها، حتى تمثل لها، أنه يعيش معها، وأنه سكن جسد مراد، خطيبها ويتعامل معها في كل لحظة وكل آن.

مراد المسكين، هو «كيو» الحقيقي، وأنا، «ماي»، الحقيقية. الظروف النضالية في كل زمن هي التي تصنع، كيو، وماي.

أحد الجنود البسطاء في المعركة، لا يؤمن إلا بكسب الانتظار فيها.

لم نتحابب.

بل لعلنا تحاببنا، قبل أن نعلن خطبتنا، ونشعر بأن، مصيرنا، ومصير الحزب، ومصير الثورة الزراعية واحد.

طويل رقيق. جميل، هادئ، بسيط، متشبع بمختلف الثقافات، طلق أبوه المحامي، أمه، وتزوج عنها، تربى شبه يتيم يلعق الاغتراب والتوق إلى الحنان. لم يستطع إلى الآن، أن ينحاز لأبيه أو لأمه.

يبتسم ويؤكد، إنهما ليسا سوى اثنين من هذا المجتمع المنحرف.

قاد بدوره فوج متطوعين، نحو الشرق، حيث يسود الفكر الإقطاعي أكثر.

قبّل جبيني، وأوصاني بالحذر. كثيرا ما يوصيني بالحذر... ثم حمل جرابه وركب الحافلة دون أن يلتفت.

لم نتحابب.

ذلك أكيد. لكننا ربطنا، ببساطة، مصيرنا. قررنا أن نتزوج، السنة أو السنة القادمة أو التي بعدها. قبل أو بعد إتمام الدراسة. أن نكون، أنا وهو، من بين خلق الله كلهم، زوجين ننام إلى جانب بعضنا في سرير واحد. في غرفة واحدة، وننجب أطفالا، ونساهم في تعمير الكون.

يا لها من حكاية.

لم أسأله إطلاقا، لم فعل ذلك، ولم يسألني بدوره.

وعندما سألني أبي وأمي، لم فعلت ذلك، قدمته لهما، فلم يجدا ما يرفضان فيه. كان طفلا بريئا، لا يمكن إلا أن ينال العطف.

شأنه شأن اللاز.

وضحكت.

إنه يقف تحت شجرة الخرنوب، والجليد ينزل عليه. بالقرب مني. على بعد بضع أمتار من هنا لا غير. فيم يفكر يا ترى؟

لعله يفكر في.

وتململت.

هذه أول مرة يقتحم التكميلية. قال الشيخ مبارك. لماذا؟ لعله برهما. لعله مراد. لعله مصيرنا

وقدرنا. بل لعله الشاعر التائه، الذي يكتب لي كل أسبوع رسالة غرامية.

ترى إذا ما تشوه وجهي بالحامض، ماذا سيكون موقف مراد مني، يقينا أنه لن ينتبه إلى ذلك. كما لم يكن كيو ينتبه إلى ما تقوله ماي عندما تعود من مضاجعة أحد المعارف قائلة: ثمة نداءات، وخاصة حين يكون المرء قريبا إلى هذا الحد من الموت.

هل أحبني برهما؟ هل أحبني مراد؟ هل يحبني اللاز؟

وأنا. أنا جميلة الجميلة. هل أحببت أحدا بعينه؟

برهما يقول، إن الحب في الزمن البرهمي. زمن الخلق، لا يكون إلا للماهية. أما في الزمن الحراشي، فلا يكون إلا للوجود.

نعم. من أحب؟

هل أحب الذات، أم الوجود، أم الماهية.؟ من منهم: برهما ومراد واللاز. الذات والوجود والماهية.

لعلهم كلهم ليسوا سوى واحد. سوى الطفل البريء الذي لا يمكن إلا أن ينال العطف؟

قال كيو لماي «لأن الأفيون يلعب دورا كبيرا في حياة أبي ولكنني أسأل نفسي. هل الأفيون هو الذي يحدد حياته، أم أنه يبرز بعض القوى التي تبعث القلق في نفسه».. وقال لي برهما: إن الأصل هو الظلمة، وأن المجرات والشموس، والكواكب، ما هي إلا عوارض، حدثت على الظلمة. كيف لم تنتبهي إلى ذلك؟ لماذا عبد الأولون الشمس وتركوا الظلمة؟

بهذا الاقتناع وحده، يمكن للمناضل، أن يناضل، ويمكن للمحب أن يحب. يمكن لطارق بن زياد، أن يحرق سفنه، ويمكن للجبل أن يتعرض طريق معشوقته عندما تفر هاربة منه.

هل تعرفين ما يروونه في «الهقار» عن العشق..؟

يقولون أن «تيويين» وهي عشرة جبال، يفني «ايهريهي»، الجبل الشامخ عمره في عشقها. سئمت الحب ذات مرة، أو قررت أن تختبر مدى وله العاشق، فقررت الهروب إلى الغرب. فما كان من إيهيريهي المسكين إلا أن يضحي بمقامه، وأن ينتقل بسرعة البرق ليعترض طريقهن.

لست أنت تيويين، وليس مراد أو برهما، إيهيريهي.

تلك الجبال العاشقة شيء آخر، وذاك العشق الزلزالي شيء آخر أيضا.

القضية العشق، والعشق الموت، هما فقط تيويين وإيهيريهي. والانتقال من الزمن الحراشي أشق بكثير من الانتقال إلى الغرب.

أما اللاز فهو الحقيقة السرمدية. هو الظلمة. هو أصل الأصل. هو الأصل. والشموس لا تنير، لو لم تكن هناك ظلمة. وأية قيمة للشموس بلا ظلمة. ولماذا تهرب الجبال، إذا لم يكن هناك ما يدعو لذلك.

لكن.. لكن.

أحبهم جميعا: برهما. مراد. اللاز. الهواري. عمي عبد القاء. النور والظلمة.

ونامت. استسلمت لنوم الفجر اللذيذ. الفجر– الزمن الواقع بين الظلمة وبين النور.

*** * ***

شغلت رسالة سي رضوان الشفوية، التي حملها مصطفى سي منصور كثيرا. بل إنها استحوذت على كامل تفكيره.

استولى عليه الأرق، ولم ينم، طيلة الليل. قليلا ما يحدث له ذلك. وفي الحقيقة لا يحدث له إلا مرة أو مرتين في عدة سنوات. وفي المناسبات الكبرى. الانتخابات البلدية، أو انتخابات القسمة والخلايا، أو بعض الأزمات التي تحدث بين القسمة والبلدية، وبالأصح بينه وبين شيخ البلدية، أو بعض المناوشات، بينه وبين بعض المشوشين من قدماء المجاهدين، ومن بعض العناصر المتمردة من الشبان الذين لا يفتأون يعبرون عن عدم رضاهم به، ولا يفتأ هو، يعالج أمرهم بطردهم من الحزب وإعادتهم إليه.

يعالج أمرهم – عادة – قبيل الانتخابات بقليل، وخاصة في فترة الترشيحات.

يشكل مجلس طاعة، يرأسه بنفسه، ويستدعيهم واحدا إثر الآخر. غالبا ما يحضرون، سواء مدفوعين بالتحدي، أو بالتعنث، حيث يسمعونه كلاما جارحا يظلون يتشدقون به في المقاهي، بينما يكتفي هو بإعلان قرار الفصل، طبقا للمادة الرابعة من القانون الداخلي المؤقت للحزب.

بالإضافة إلى حرمانهم الشخصي من حق الترشح للانتخاب، كمواطنين وكمناضلين، يجمدهم عن ممارسة أي نشاط يمكنه أن يؤثر في نتائج الانتخاب.

يكلف المناضلين، والدرك، وجميع أتباعه، بتسلط الرقابة المشددة عليهم، طوال فترة العملية على أمل أن يزج بهم أو ببعضهم في السجن، ويظل يكتب فيهم التقارير، إلى الاتحادية، والمحافظة، والجهاز المركزي في العاصمة، كما يزور تقارير باسم السكان والمناضلين، يوجهها إلى الرئاسة وإلى وزارة الداخلية، ومدير الأمن الوطني، وقيادة الدرك العليا، وكذك إلى الوالي، وإلى مسؤول جهاز الحزب.

ليتحدّوا أو ليكابروا أو ليشتموا. المهم النتيجة. والعصفور في يد من زوى. كما يقال.

يشل حركتهم عدة أسابيع، دون أن يعير أهمية للوفود التي يرسلونها إلى الجهات العليا فالتقارير قد سبقتهم.

في مثل ظروف الانتخابات، لا يعير المسؤولون أية أهمية لشكوى الأقليات.

وما إن تنتهي الانتخابات، وينجح من ينجح، ويسقط من يسقط، ويكونون هم المنهزمين الأولين في العملية كلها، ويشعرون بذلك بمرارة بعد فوات الفوت، يشرع سي منصور في عملية التراجع

الاستراتيجي المنتظم، لتسكين الوضع سنوات أخرى.

يستدعيهم مرة أخرى، واحدا إثر الآخر، وفي فترات متباعدة، تستغرق شهرا إن اقتضى الأمر.

يلقي على كل واحد، خطابا في الأخوة، والتضامن النضالي، وفي الالتزام، بمعاينة الصحيحة، وفي ضرورة اتحاد المجاهدين، وكل أبناء الثورة، ثم يسقيه شايا، ويحدثه عن بعض الذكريات ويقترح في الآخير، العودة إلى صفوف الحزب، لكن شرط أن يكون ذلك نتيجة رسالة اعتذار يكتبها المعني. رسالة شكلية لا غير تبقى في الملف، تحسبا، لمعارضة وتقولات أولئك الذين لا يليق بهم التئام شمل المناضلين، المناضلين الحقيقيين، كما يؤكد سي منصور.

يعيدهم إلى الصفوف، مع علمه التام، بأنهم لن ينسجموا إطلاقا، لأن المستهدف الأول والأخير هو شخصه، أو بالأحرى منصبه كمنسق للقسمة.

لكن حين لا تكون هناك انتخابات، أو عمليات وطنية حساسة، يظل في الإمكان احتمالهم. يحتمل الجميع بعضهم البعض، ولا يكون هناك ما يختلفون حوله.

تنقضي ليالي السهاد، ثمن الانتصار على الخصوم السياسيين، ويعود الرضا إلى النفس المطمئنة.

لكن، ها هو السهاد يحل في غير موعده فالانتخابات رغم اقتراب موعدها فإن الاستعدادات لها لم يشرع فيها بعد.

– سي رضوان يتحرك. لا شك أنه لم يكف عن الحركة إطلاقا، وهو الآن، على ما فهمت من كلام الطالب، أحد الأعضاء القياديين في حركة سياسية. حركة حزب الله.

الاختيار طبيعي بالنسبة إليه، فقد كان في سجن البرواقية، يحصر كل نشاطه في مقاومة الشيوعيين. يختلق المشاكل معهم اختلاقا، ليدخل وإياهم في خصومة، لا تنتهي أياما عديدة، وكان يحلو له أكثر، أن يضايق السجين كش الذي يعتبره أخطرهم جميعا.

يقول: كش هذا، سيظل أحمر، حتى ولو غسلت أعظامه بماء زمزم ألف مرة.

ينبغي الاعتراف بأن كش رغم المضايقات الشديدة، كان مزاحما عنيدا لسي رضوان. فبينما يعطي سي رضوان دروس الوعظ والإرشاد، يعلم هو المساجين القراءة والكتابة، ويحدثهم عن الجغرافية والتاريخ والاقتصاد، فيهربون من حلقات سي رضوان ليلتحقوا به هو.

قامت معركة حامية، عندما قرر كش أن يصلي، ورفض سي رضوان قبوله في الجماعة، قال،

يكذب وينافق، ولا يمكن قبوله إلا إذا أعلن براءته الكاملة من الشيوعية.

راح كش يتباكى، ويؤلب المصلين، ضد سي رضوان، قائلا لهم، لقد نصب نفسه أسقفا نصرانيا يتلقى الاعتراف، ويعطي صكوك الغفران، يوافق على التوبة ويرفضها. هذا كفر وهذا انحراف عن أصول الإسلام وبدعة.

وعندما وجد بعض التأييد، شرع في رواية النكات عن الاعترافات في النصرانية. قال الملعون «كان قس كنيسة، يشك في أن خادمه يسرق الجزر من حديقة الكنيسة، وكان الخادم بدوره، يشك في أن زوجته تخونه مع القس.

بذل القس جهدا كي، يوقع الخادم في شباك الاعتراف. كان همه أن يعرف من يسرق الجزر وأن يتأكد من صدق ظنونه.

تردد الخادم، ثم قرر أن يعترف. وضع القس القلنسوة على رأسه وغطى وجهه، واتخذ مكانه وراء الشباك في حين ركع الخادم أمامه يحجب بينهما الفاصل الخشبي.

انتظر القس، أن يتطرق الخادم إلى الموضوع الأساس، لكن هذا الأخير، ظل يثرثر، حول قضايا تافهة.

ضاق صبر القس فسأل:

– والجزر. هل تسرق منه.؟

– ماذا تقول سيدي القس.

– أقول هل تعترف أيها الخادم بأنك تسرق الجزر من الحديقة، فأغفر لك ذلك.

– أبدا، لا أسمع شيئا مما تقول.

– كيف لا تسمع. أتقول؟

– نعم وإن شئت فتعال من هنا لتر بنفسك يا سيدي القس. أن المرء لا يسمع من هنا، ما يقال من مكانك.

كان هم الخادم أن يجلب القس إلى كرسي الاعتراف، وقد تمنى ذلك منذ مدة، حتى يتأكد مما إذا كانت زوجته تخونه بالفعل مع القس.

– خذ مكاني، ودعني آت من هناك.

– تعال. لكن أعطني قلنسوتك أولا، حتى يكون الوضع صحيحا.

– هاك.

وقع القس في الفخ الذي نصب له. جلس على كرسي الاعتراف، وراح يثرثر بدوره في أمور تافهة، أو بالأحرى لا تهم الخادم.

– لكن قل لي. إنك لم تتحدث عن خطيئتك مع زوج الخادم.

– ماذا تقول؟

– تحدث عن خطيئتك مع زوج الخادم.

– بالفعل. المرء من هنا لا يسمع ما يقال من هناك.

قال القس، ونهض من كرسي الاعتراف، ونسي حكاية الجزر التي كانت تشغل باله».

ظل كش، ينكت على سي رضوان، حتى صار يسميه القس. أيده كثيرون، وفرضوا تواجده في الصف مع باقي المسلمين. لكن مع حلول المساء، وبعد صلاة العشاء، تفردنا به أنا وسي رضوان، وثالث لا أذكر اسمه.

كان في قوة الخنزير. يدافع عن نفسه ويهجم علينا في نفس الوقت. ركلني فطرحني أرضا. ولو لم يعثر سي رضوان على هراوة – ولربما كان قد أعدها من قبل – ويضربه بكل ما أوتي من قوة، ليسقط كالثور، لانتصر علينا ولفعل بنا المنكر.

عندما استيقظ، دار على المساجين كلهم وأخبرهم بالأمر، الكلب يحسن التباكي، فوجد سي رضوان، نفسه، عند صلاة الصبح، وحده.

قاطعه المصلون، تضامنا مع كش، واختاروا إماما آخر، ليصلي بهم. لحسن الحظ، كما قال سي رضوان، إنهم لم يختاروا كش للإمامة، وإلا لكانت تلك هي المهزلة والكارثة الحقيقية.

في المساء، عندما حان وقت درس الوعظ والإرشاد، فوجئت أنا وسي رضوان بالقاعة فارغة، وببرنس أبيض، لفت فيه أشياء تتحرك.

سارعنا، لفتح البرنس، ففوجئنا بقططة من كل نوع تهجم علينا، وتموء. كان هناك ما يزيد عن ثلاثين قطا لست أدري من أين جمعها الكلب.

أسرعنا نستحضر الناسن ليشهدوا على فعلته النكراء. جاء عدد كبير، وفي مقدمتهم كش. لكن القطط، كانت قد غادرت المكان، فلم نعثر سوى على البرنس، انفجر في ضحك مفتعل مؤكدا أن القس اختبل.

في الليل، تفرد بسي رضوان، وأشبعه ضربا. تركه طريح الفراش ثلاثة أيام كاملة.

سي رضوان يستأنف اليوم المعركة. بعد ست عشرة سنة، يستأنفها في عالم أرحب من عالم البرواقية، ومع جماعات كثيرة، وهو يدعوني إلى الانضمام إليه فما العمل؟.

ما العمل؟

إن الكفاح ضد الشيوعية، ضد أن لا تصير الجزائر شيوعية، أمر واجب وحتمي. لكن المرء كبر والعائلة كبرت أيضا، والالتزامات تعددت وتشعبت، وقد أعطى الإنسان حقه وأكثر من ذلك، في تحرير الوطن. أعطى شبابه وزهرة عمره.

التقاعد لم تبق عنه إلا سنوات قلائل، والانهماك في السياسة بواسطة الجبهة، قطعت فيه، شوطا كبيرا، وعلي، أن لا أهدم كل ما بنيته.

أمامي الترشح إلى المجلس الشعبي الولائي، في السنة القادمة، وقد وعدني رئيس الدائرة بأن يبذل قصارى جهده لتسند لي الرئاسة. ذلك جد مهم.

لن أقف – على كل حال – مكتوف الأيدي، ضد الخطر الأحمر. لكن هذا، يجب أن لا يعني «سلم بما في يدك، وتبع ما في الغار» كما يقال.

لكن الطالب. نسيت اسمه بعد. لعله، محمود. لا. بل مصطفى. أي نعم مصطفى. يقول كلاما، لمست بعضا منه قبل اليوم. مسؤول جهاز حزب جبهة التحرير، اتخذ موقفا باهتا في الأول من الثورة الزراعية، ثم ها هو يعلن عن رأيه بكل وضوح.

ضدها. ضدها، جملة وتفصيلا.

وها هو يقيم المهرجانات والملتقيات، ويلقي الخطب، التي لو ألقاها غيره، لدخل السجن فورا.

الرجل متشجع. متحمس. قوي الجانب، على ما يبدو، وقول الطالب، إن صاحب الثورة الزراعية وحده، لا يؤيده سوى الحمر، صحيح، وإلا كيف يتجرأ مسؤول الحزب كل هذا التجرؤ؟

إنه – على ما يبدو – يدرك تمام الإدراك خطر ما هو مقدم عليه. ولا يغامر. ويقين أن وراء الأكمة ما وراء ها. وأن سي رضوان، مطلع على حقائق كثيرة، وواثق من النصر. والتعليمات التي تأتينا في الأشهر الأخيرة، خاصة المتعلقة، بتشكيل الأحياء، ترمز إلى ذلك بقوة. بل تؤكده.

إن من مهام لجان الأحياء، تقول التعليمة، القضاء على الأخلاق الفاسدة، وإغلاق المقاهي التي تبيع الخمر، وطرد الفاسقين والفاسقات، والمشكوك في أمرهم من العمارات والأحياء.

هذه ثورة ثقافية إسلامية. إذا ما اندلعت، ويبدو أنها مندلعة لا محالة، وعما قريب، فإنها ستغير الوضع رأسا على عقب.

تأتي على الأخضر واليابس. وخاصة الأحمر والأصفر.

الموقف من التطوع أيضا واضح. إنه لا يحضر الاجتماعات التي يعقدها الرئيس مع الطلبة، بالإضافة إلى ترديده في الأيام الأخيرة، لخطر عملاء الخارج. الذين يحاولون، كما يشدد على ذلك، تقسيم الصفوف.

أكثر من ذلك. الآن فقط، أنتبه إلى مغزى الأمر الذي أعطاه للمحافظة هاتفيا، بجمع الأطفال والشباب، وجميع السكان، والخروج بهم يوم العطلة في حملة نظافة. إزالة الأوساخ. التقاط أعواد الثقاب، وأعقاب السجائر، والأوراق، وما إلى ذلك.

يريد أن يقول لجميع الناس. إن الثورة الزراعية – بالنسبة للحزب – مسألة هامشية تماما. نعم فالموجة هذه الأيام هي التطوع لفائدة الثورة الزراعية، وليس لجمع أعقاب السجائر.

يبدو أن المعركة محتدمة، وإنه في حين يعتمد الرئيس، على الطلبة، والقرارات الإدارية ليجند الجماهير إلى صفه، يعتمد مسؤولنا. نعم. مسؤولنا،، على الهيئات الحزبية، وعلى رفض الجماهير الشعبية التلقائي، للثورة الزراعية هذه.

وأنا؟

أنا، سي منصور، الذي شاب رأسه في السياسة، أبقى حتى اليوم، في غفلة من الأمر.

شكرا لك يا سي رضوان يا صديق أيام المحنة الكبيرة.

من منهما يهرب إلى الأمام؟ نعم. الآن وبعد أن تجمعت لدي المعطيات، يجب علي أن أحلل وأتساءل.

هكذا، إصدار أمر يقضي بقلب واقع البلاد الاجتماعي والاقتصادي، وحتى السياسي. دون الاعتماد على أية قوة سوى «الإسم الأعظم» كما كان يقول سي رضوان، وسوى شرذمة من الطالبات والطلبة بزعم تجنيد الجماهير.

هكذا. هكذا. ما معنى هذا وما هي دلالته؟ ما ذا يفهم السياسي الفطن من هذا؟ سوى أنه مؤشر ضعف. وأن المسألة كلها، هي هروب إلى الأمام.

يشهد الله أنني كنت في سبات عميق. وأنني نسيت السياسة المعمقة. الذكية. وانشغلت بسياسة

الانتخابات، والمعارك الصبيانية، مع قدماء المجاهدين.

رأسه في الطين وهو يقول اقين [4] .

مصطفى وسي رضوان يطالبان مني الانضمام معهما، لنقل إنهما لا يطالبان الانضمام بالذات، عاجلا، لكنهما يستعينان بي، في طرد الطلبة المتطوعين من القرية.

فما العمل؟

التعليمات التي لدي من المحافظة والاتحادية، تؤكد على ضرورة المراقبة الصارمة، للطلبة وإحصاء كل تحركاتهم وسكناتهم. وخاصة أقوالهم. وتقديم تقرير أسبوعي عن ذلك.

هذا يتيح لي أن أقوم بعمل عاجل. فما هو العمل يا ترى؟

كالمعتاد. اخطار الهيئات بواسطة التقارير بخطورة الوضع أحملها بنفسي، ثم أطلب القيام بعمل عاجل.

أعرف جيدا أن العمل العاجل الذي أطلبه، لن يقوموا به بالمرة، وإن قاموا به، فبعد فوات الأوان. إنهم لن يتدخلوت إلا بعد وقوع المحظور، ليتخذوا منه، موقفا، يحاولون، إقناع جميع السلطات، بأنه الموقف الصحيح السليم. ينبغي أن تتخذه هي بدورها.

إن إخراج المناضلين، لدعم جماعة مصطفى، أمر شبه متعذر. قبل أسبوع على الأقل. فبالإضافة إلى ضرورة كتابة استدعاءات شخصية لكل مناضل، والعثور على من يوصل هذه الاستدعاءات، وعقد اجتماع عام لشرح الموضوع، وفتح مناقشة، متشعبة، حول جميع قضايا الأحياء والقرية، والبلدية والبلاد بعد ذلك، بالإضافة إلى كل هذا فإن مناضلينا، وأنا أعرف الناس بهم، لا يتحركون إلا بأفواههم.

هذه نقطة ضعفنا. إنهم معنا، وفي نفس الوقت ليسوا معنا.

نشعر بالقوة حين نتحدث في غيابهم، ونشعر بالضعف الكامل حين نواجههم. إننا في الحق من هذا الجانب، مشلولون. مشلولون تماما.

والمؤكد أن صاحب الثورة الزراعية، يعلم بواسطة أجهزته المتعددة، هذه الحقيقة تمام العلم، وأنه قد أخذها في الحسبان، عندما سكت عن تحركات المسؤول التنفيذي.

في هذه الحال. يكون صاحبنا، هو الغبي. يقتحم البراز بسيف من خشب. يا للسياسة.

لو ينقاد لي حمو. أنجح في تقديم خدمة إيجابية لمصطفى وسي رضوان ولمسؤول الحزب.

حمو، هو الوحيد، القادر على جمع ما يزيد عن مائة مجاهد في نصف ساعة. يقنعهم ببساطة بمجرد كلمة شرف باتباعه فيتبعونه حتى إلى جهنم.

حمو ليس سهلا. خيوطه متشعبة، ومراميه بعيدة. لو كان مثقفا لكان زيدان الثاني.

عرضنا عليه، أن يغادر حي شيكاغو، ليسكن في فيللا جون جان، التي احتلتها زوجة شهيد مع ولدين اثنين لا غير. قلنا له. يسهل إرضاؤها، بغرفة في عمارة المساكن الرخيصة الكراء، بعد تهديدها بدفع الكراء المتأخر. وإن اقتضى الأمر، رفع ثمن الكراء فلا تجد بدا من الخروج.

رفض بشدة.

قال إنه سيعرّض شرف الجهاد إلى السقوط. وعندما عرض عليه شيخ البلدية الجديد، إعانة في إطار البناء الذاتي، قدم له قائمة، بأسماء المجاهدين المستحقين أكثر منه.

حمو. لا يقع بسهولة.

ذئب.

رباه زيدان. حمو كذلك ضرس مريض في الفم يجب اقتلاعه مهما كان الأمر.

تبقى فرقة الدرك الوطني. أمرها يتوقف، على أن ينجر شيخ البلدية معنا. هو وحده الذي يستطيع إقناع مسؤول الدائرة. ذاك يضمن لنا النصر لكن إقناع شيخ البلدية وحده، يتطلب ساعات عديدة. وفي الحق لا يستطيع إقناعه إلا أمر صارم من مسؤول الدائرة.

هذا مهم.

أتصل في الصباح الباكر برئيس الدائرة هاتفيا، وأضبط معه موعدا. وعندما أنتهي من تقديم وشرح التقارير في الاتحادية. أتوجه إليه.

ذلك يتطلب، أن يحضر عيسى بوعين إلى مقر القسمة في تمام الثامنة. أشرح له الموضوع وأكلفه بالصياغة.

عيسى بوعين الكلب. إذا ما خلصت نيته، يصنع العجب العجاب. لكنه كسول، وفضولي، ومتلاعب بل، ومتواطئ في كثير من الأحيان. هذا سر. سر خطير. وبوعين الكلب، طويل اللسان، وله ارتباطات مريبة، خاصة، مع الشبان. ولا بد أن يكون بدوره عميلا للخارج. ففي كل يوم يتلقى رسائل من هنالك.

لكن لا بد من عيسى. لا. عيسى يبقى معزولا، والتقارير، أكتبها بنفسي باللغة الفرنسية، وأرقنها

في إدارة المالية، وأحملها بعد ذلك، دون أن أسجلها، في سجل الصادرات والواردات. للضرورة أحكام. والمسألة مستعجلة وسرية.

أنام الآن. فالساعة توشك على الثالثة صباحا. المهم أنني انتهيت إلى قرار.

كالعادة: لا يجوع الذئب. ولا يغضب الراعي.

ها هو الشريف على رأس اجتماع الطلبة والطالبات في باحة التكميلية. وها هو مصطفى، يحضر بدوره إلى جانب جماعته، هذا الاجتماع.

كان واضحا أنه لم يبق معه سوى أربعة. بوزيد وعلوان، اللذين صارا يتوددان إليه أكثر. واثنان أخران. أحدهما شديد التحمس لأفكار ومواقف وأسلوب مصطفى، ويشاطره الرأي في ضرورة، الجهاد بالعنف، ضد الحمر. أما الثاني فلا يعلم أحد حقيقة نواياه. يلازم الصمت في جميع الحالات ويكتفي بتأييد المواقف المعتدلة، التي لا يترتب عليها مسؤوليات.

أيد أول يوم انضمام الفرقة إلى فريق اللجنة الجامعية للتطوع. أيد هذا الصباح الانتقال للسكن مع باقي الطلبة. ولم يعلق بشيء، حين أخبره مصطفى، أنهم مدعوون إلى العشاء، عند إمام المسجد وفيما عدا ذلك فإنه لم يعط أي رأي.

يظل يتتبع المتحدثين واحدا واحدا، يتشرب كلماتهم، ويتفهم مواقفهم، ثم يتظاهر بالانشغال بأمر ما. وكثيرا ما يكون الأمر، ميثاق وقانون الثورة الزراعية.

قال علوان لبوزيد، إن أمره لغريب، ولعله ليس طالبا. قد يكون مكلفا بحماية مصطفى، والسهر على أمنه. لا بد أنه مسلح.

– كلا. إنه طالب يدرس التاريخ. السنة الثالثة. إطلعت على حقيبته أول ليلة نزلنا هنا. ليس معه أي سلاح، ويحتفظ في حقيبته بإعداد من مجلة الجيش وبمجموعتين من خطب الرئيس حول الأرض والثورة الزراعية. أميل إلى ترجيح أن يكون من المخابرات.

– وجدتها. وجدتها. لقد اصطدته.

علق علوان مبتهجا للاكتشاف الباهر الذي حققه زميله، حول الطالب الغامض، وسر أن يكون بوزيد يعتقد في أنه من المخابرات ولم يكلف نفسه عناء التساؤل أو التفكير، فلعله، ليس كذلك، قد يكون ابن شهيد يهتم بأمور الجيش، خاصة بالمجلة التي كثيرا ما تنشر دراسات تاريخية، وحكايات أيام الثورة والمجاهدين والشهداء.

سحبهما مصطفى من ذراعيهما وسألهما:

– جميلة لم تظهر.

– نعم لم تظهر.

– هل أحضرت الحامض؟

– لم أحضره بعد. لكن سآخذه معي. تعرف الجو المكهرب الذي ساد جناحنا؟

– ألا يكون هذا التجمع مناسبة لتفجير الوضع.

– لقد بقينا قلة. خمسة، لا غير.

– لا تنس أن مسؤول الحزب معنا. المناضلون والدرك وحراس البلدية والشعب كلهم معنا. والمؤكد أن الفلاحين أيضا معنا أو على الأقل سيكونون معنا في الوقت المناسب.

– هل لديك معلومات عن موقف الدرك.

– أعتقد أن موقف الأمس لم يتغير. لقد شاهدتموهم بأسلحة الميدان.

– قد يكونون خارجين في مهمة تتطلب ذلك، إنك لم تتحدث معهم مباشرة.

– هذا صحيح. لكن منسق القسمة قال إنه سيكون في عوننا.

– لعلك تسرعت في وضع الثقة في منسق القسمة هذا؟

– الثقة التامة. سي منصور منا، ما في ذلك شك. جبهة التحرير معدن لا يتغير. على كل لا بد من زيارته مرة ثانية. ستذهب معي يا بوزيد هذه المرة.

تقدمت ثرية منهم. حيتهم في برودة وكبرياء. فحصتهم جيداً، من أسفل أقدامهم إلى أعلى رؤوسهم. دققت النظر أكثر في مصطفى. كانت شفتاها تعكسان بطبيعتهما، الكبرياء والاحتقار، وكانت عيناها اللتان لا تطرفان إلا قليلا، تنمان عن التحدي. يداها في خصرها، ورجلاها تتقدم إحداهما الأخرى.

شعر علوان أول الأمر، بالاضطراب، ثم تمالك. استعاد سيطرته على نفسه، خاصة عندما ركزت ثريا اهتمامها أو بالأصح هجومها على مصطفى.

الحب معها يبدأ بالمصارعة اليابانية وينتهي بها. لا بد من استسلام أحد المتصارعين في آخر الجولة.

لقد قررنا السكن معكم. قررنا الانتقال منذ اليوم.

قال علوان في لهجة متوددة، لم ترق لمصطفى. حدجته ثرية بنظرة لا تخلو من عطف، تعلم أنه أحد النصيرين، وأن دوره، مثل دور صاحبه، سيكون حاسما لصالح الفوج. تعلم أكثر من ذلك أنه يتأملها كثيرا. يسترق النظر إليها في كل حين، ويضطرب حينما تلتقي أعينهما. وأنه يفتعل المناسبات ليوجه إليها كلمات، وإن كانت خالية من كل معنى.

حدث ذلك كله في هذه الفترة القصيرة.

تعلم أيضا. أنها ككل امرأة، تمتلك «رادارا» حساسا، يكشف لها بسرعة فائقة، كل عاطفة لدى أي رجل لصالحها. وهي متأكدة أن رادارها، هي ثرية، رقمي، ذلك أنه لا يكتفي بكشف المواقع فحسب، وإنما ينبهها في وقت مبكر، إلى ضرورة الإجراءات التي ينبغي أن تتخذها وبسرعة خيالية.

– أعطونا نحن، سي مصطفى. أتسكن في جناحنا يا سي مصطفى؟

– ولماذا أنا بالذات. هذا استفزاز.

ضحكت. ضحكت لأول مرة، حسب تقدير علوان، وكم سره ذلك، وإن كانت الضحكة لغيره. لقد أعطته جزءا منها على كل حال.

– لا. ليس استفزازا. إنما لأنك مسؤول، ولأنك، وهذا هو الأهم ثقة.

– وكيف عرفت أنني ثقة؟

– في الحق لم أتأكد بعد من نزاهتك.

– نحن نتحدث على الثقة وليس على النزاهة.

ضحكت مرة ثانية. بانت رقيقة. رقيقة جدا. على العكس ما كان يقدر علوان. وراحت تحكي حكاية، سمعتها من طالب تونسي.

– كان في تونس متصوفان. وليان، يعني. هما سيدي بوسعيد، وسيدي محرز. الأول تصوف في قمة جبل، يحمل حتى الآن اسمه، والثاني تصوف بالمدنية، حيث يتعرض يوميا لمئات الزيارات. وقعت بينهما مناظرة طريفة، حول أفضل سبل التصوف.

افتخر سيدي بوسعيد، بأنه ابتعد عن كل مغريات الحياة، ولم يبق هناك ما يحول بينه وبين المحبوب. فرد عليه سيدي محرز، بأنه رغم كل إغراءات الحياة، رغم زيارات المئات من العذارى الفاتنات يوميا لمقامه، فإن وجه المحبوب لم يحتجب عنه.

يسهل عليك يا بوسعيد، وأنت بعيد عن التونسيات أن تتصوف. ليت عمري لو تختبر نفسك،

يوما واحدا بينهن.

والحديث قياس.

– إنك أديبة.

علق علوان مسرورا بما استطاع أن يستنتجه. بينما تلعثم مصطفى. ابتلع ريقه، لحس شفتيه مرات ثم تشجع ورد:

– إذا ما صحت المقارنة، فإنني لن أكون سوى سيدي محرز.

– لن تكون سيدي محرز أبدا، وأنت تسكن مع عشر طالبات، ومن ضمنهن جميلة.

– أينها؟ إنني لا أراها بيننا.

– إنها تستحم بالاسيد.

قالت والقت نظرة متوددة على علوان، ضمنتها رسالة عزيزة، غنية بالتعابير. غنية بثقة الإنسان في الإنسان وهذا أهم شيء.

– ماذا تقولين؟

تساءل مصطفى مضطربا، إلا أنها كانت قد ابتعدت، تتثنى كالمصارع الياباني، واختلطت بزميلاتها وزملائها، الذين كانوا كلهم مشرئبي الأعناق نحو الشريف، الذي صعد على كرسي، وراح يتحدث ويداه تأتيان بحركات كثيرة متنوعة.

– الصمت. الصمت. أعطونا قليلا من الصمت والهدوء رجاء. قبل أن نتوزع في فرق تمس تعاونيات الدائرة العشرين، ونفترق، يجب أن يعرف الجميع، مهمتنا في هذه الحملة الشتوية.

طبعا. المهمة الأساسية، التي لا تنتهي، هي إحصاء أراضي المرحلة الأولى والمرحلة الثانية التي لم تؤمم، رغم أن القانون يشملها.

لقد كشف فوجنا في التطوع الصيفي الفارط، قرابة الأربعة آلاف هكتار، أخفيت ملفاتها، ولم متؤمم. علينا أن نتأكد هذه المرة مما إذا كانت أممت أم لا. وعلينا أن نكتشف غيرها، إلى جانب تكوين تقييم شامل، لوضع التعاونيات، واحدة واحدة. مشاكلها السياسية. عدد المستفيدين عدد المتخلين. العتاد، إلى غير ذلك.

المهمة الثانية، هي شرح المرسوم الرئاسي الصادر في جويلية من السنة الماضية، المتضمن لإنشاء التعاونية الزراعية البلدية المتعددة الخدمات. وخاصة المادة الرابعة التي تتحدث عن هدف

التعاونية. ثم المواد التي تتحدث عن الجمعية العامة، ومجلس التسيير، ورئيس التعاونية ومديرها، والتسيير المالي، وعلاقات التعاونية.

المهم في شرحكم، أن يعرف المستفيدون، بكل وضوح المغزى السياسي والتقني للتعاونية وأن تبسط له إجراءات تكوينها أو تسييرها.

والكتاب الذي حصل كل فوج على نسخة منه، يتضمن بدءا من الصفحة مائتين وتسعة وعشرين فقرات من ميثاق الثورة الزراعية، وفقرات من الأمر المتضمن لها، وكامل المرسوم المتعلق بإنشاء هذه التعاونيات.

لنشكل الفرق الآن، وبعد ذلك نوزع البرنامج. كل فرقة لها رئيس، ومقرر. وإذا سمحتم فقد أعددت توزيعا، يسرني أن أعرضه عليكم، وبعد ذلك نفتح باب النقاش.

سيارات النقل تنتظرنا، وعلينا أن نسرع حتى لا نعطل البلديات عن أشغالها، فهي في حاجة ماسة إليها، كما تعرفون.

تلا إسم كل طالب والفوج الذي عين فيه، ثم فتح باب المناقشة.

رفع مصطفى يده وراح يتساءل قبل أن تعطى له الكلمة:

– ولماذا ثرية ترأس دون باقي الطالبات فرقة. وبالمصادفة الفرقة التي أنا فيها.

– التي أنت مقررها. لم أفهم اعتراض الزميل.

– لماذا ثريا بالذات؟

– أهذا هو السؤال، إم هناك بقية له، حتى أتمكن من الإجابة؟

– لماذا ثريا دون باقي البنات.

– الآن فهمت. السؤال واضح. جميلة مريضة لا تخرج اليوم. لقد أجبرها زميلنا الطبيب المتطوع على ملازمة الفراش. فاطنة ودليلة واليامنة والأخريات، سيتطوعن داخل البيوت، هنا في حي الشيكاغو، بطلب من شيخ البلدية. ثريا بالذات. هذا هو تطوعها الرابع، وهي أقدم واحد في الفوج الذي أنت مقرره، ألديك إعتراض شخصي على الزميلة ثريا؟

– إعتراض مبدئي وليس شخصيا. لماذا ترأس امرأة فوجا ليس فيه سوى الرجال. الله تعالى يقول (الرجال قوامون على النساء).

– انفجر، بذلك، وبلا أي تحفظ، الطالب المناصر لمصطفى، علت قهقهة جميع الطلبة

والطالبات راح الشريف يسكتهم:

– أعطونا قليلا من الصمت والهدوء، رجاء رجاء. الزميل يسأل، ويجب احترام سؤاله واحترام الديمقراطية، وحرية التعبير. نحن جميعا هنا، متطوعون، نتساوى في الواجبات والحقوق. ماذا تقول أيها الزميل المحترم؟

– أقول إنه كان من المفروض أن يترأس الفوج طالب وليس طالبة.

– ثريا كما سبق أن قلت، معروفة في المنطقة المعينة لها. ثم إن الرئاسة شرفية في الحقيقة، في حين أن العمل الأساسي، يقع على عاتق المقرر. المسألة مسألة تنظيم ودراية بالمنطقة لا غير. وإلا فكل طالب مسؤول كامل المسؤولية عما يفعل وعما يقول. إنه طالب راشد. إطار المستقبل بالإضافة إلى أنه متطوع، ليس مسخرا. هل لدي الزميل المتطوع سؤال آخر؟

نظر إلى مصطفى يستنجد به. نظر مصطفى بدوره إلى الباب الخارجي، على أمل أن تلحق نجدات ما، يرسلها سي منصور، أو سي رضوان، أو قائد وحدة الدرك الوطني، أو غيرهم، ثم التفت إلى بوزيد وعلوان، يستجلي موقفهما.

– يبدو أن الأمور تجري بسرعة خارقة، وأنه لابد من توقيت المعركة الحاسمة توقيتا محكما، وبالاتفاق مع سي منصور.

– قال بوزيد، فأبدى مصطفى عدم اقتناعه، بحركة من رأسه، والتفت مرة أخرى إلى الباب الخارجي يستطلع النجدات، ثم تساءل في نفسه، عما إذا لم تكن هذه الإجراءات كلها، خطة محكمة، مضادة لخطته. إبراهيم اللعين، هو الذي كشف سرنا الخائن.

خاننا. فعلها. ما أبشع ذلك.

لكن الشريف، بدا هجومه البارحة، قبل أن يكون له أي اتصال بإبراهيم، لقد راقبته، ولم يأت ما يثير للانتباه كامل الفترة التي قضاها معي. في المسجد، كان أكثرهم إهتماما بدرس الوعظ الذي ألقيته.

من أين إذن عرفت ثريا، وبالتأكيد الشريف، السر، حتى تقول إن جميلة تستحم بالحامض.

السر تفشى. وكل ما أشهده الآن، هجوم مضاد، محكم، إنني لا أستطيع أن أرفض، أن تكون امرأة مسؤولة علي. سيستغلون الفرصة ويتهمونني بالرجعية، ويقطعون الطريق بيني وبين بعض من قد يكون بينهم يتعاطف معي.

أنا لست مع حرية المرأة. هذا واضح مؤكد. لكن، أن تكون امرأة، وامرأة شيوعية، مزدكية، قرمطية، مستهترة، مسؤولة علي، طيلة ثلاثة أيام، فهذا كثير. كثير وأيم الله.

لكن هذا الموضوع، سيميع المعركة، وسيثير السخرية.

إنه أشبه ما يكون بقطط، كش، التي حدثني عنها سي منصور. هذا هو أسلوبهم. لا يتغير.

لتكن المعركة حول موضوع آخر. بوزيد، معه حق. ولكن الآن. الآن، وقبل أي وقت آخر. على كل حال، ثما اليوم، أو فلا. ماذا لو اعتذرت عن الخروج، وصفيت حساب جميلة. بوزيد طويل البال.

آه. لو كانت جميلة هي مسؤولة الفوج، لاختلقت معها معركة، هنا، في هذه الباحة، ولشوهت وجهها بالاسيد.

ولماذا جميلة بالذات؟

المعلومات التي جمعها سي رضوان حولها، تفيد أنها عنصر خطير. بسببها، ولا شك يتجند كل هذا العدد الهائل في إطار اللجنة الجامعية. إنهم يتشممون رائحتها كالكلبة الطارد.

لم يتسن له أن يتابع ما كان الشريف يقوله، حتى أثار تصفيقات الطلبة والطالبات. كان مصطفى في حالة انفعال، أثارتها الحيرة من تعقد الموقف. خاصة عندما دنت ثريا منه وسألته في صراحة:

– هل معك نسخة من المرسوم الرئاسي وميثاق الثورة الزراعية؟ ينبغي أن تصطحب أيضا أوراقا وقلما. سنكتشف اليوم الكثير بما في ذلك هل أنت سيدي بوسعيد، أم سيدي محرز.

تكلفت ابتسامة في الآخير. بيد أن السخرية كانت تلوح من بسمتها. سخرية ممزوجة باستفزاز واضح. هكذا قدر. وهكذا خيل إليه. وفكر: إذا كان ارتكاب الإثم معها، يعيدها إلى الجادة، ويفصلها عن الحمر، فهل يغفر الله هذا الإثم أم لا. وقبل ذلك هل يسمح لنفسه بإتيان ذلك أم لا؟

الإمام مالك يقول: يموت الثلثان لإصلاح الثلث. ولا شك الزنى مع ثرية كالدواء المحرم. كأكل لحم دابة من الدواب قصد العلاج.

يجب أن يتكفل علوان بها فهو أكثرنا إباحية على ما يبدو وسيغفر الله له ما تقدم وما تأخر، إن اهتدت على يده.

شعر بالالتذاذ. خشي الاستمناء في هذا الظرف بالذات. إنه مريض. مريض. حساس، إلى حد

المرض. لكن حساسيته هذه هي مصدر قوته. مصدر إيمانه وحماسته.

راح يفتعل حديثا مع بوزيد، ليهدئ بعض الشيء أعصابه لكن زميله المخلص عكر الجو حين صدح بأعلى صوته:

– تسقط الشيوعية. الله أكبر. الله أكبر.

– وجد مصطفى نفسه، ينساق إلى الهتاف. ارتفع صوت الجميع:

إيه شعبية تحيا الثورة الزراعية.

ايه شعبية تسقط الرجعية.

اختلطت الأصوات. علا الهزيج. اختنق صوته. ذاب صوت زميله. اصطكت فرائصه، لم تعد ركبتاه تقويان على حمله.

تناول ذراع ثريا وراح يضغط عليه بقوة، هاتفا، بما لا يدري. في حين كانت هي تنشد غير مبالية به.

انتهى الأمر. ابتل سرواله. داهمه الانحلال. أسرع إلى قاعة النوم. لم يكن في وسعه سوى أن يسارع إلى قاعة النوم.

سيستلقي على فراشه. يبكي ويبكي. يستغفر الله العظيم ويلعن الشيطان الرجيم، ثم يغير تبانه وسرواله.

إنه قضاء الله. ولا مرد لقضاء الله.

ما إن غادر الاجتماع، وما أن هدأت الأصوات الهازجة، حتى ملأت باحة التكميلية، ضجة أصوات أقدام كثيرة، وهتافات غير منغمة.

التفت الجميع إلى المدخل يستطلعون ما هنالك.

*** * ***

[4] اقين عبارة جزائرية لنهر العجل الرضيع.

شجرات الأرز، مهما أثقل الثلج أغصانها وأحناها، فإنها لا تفقد عظمتها.

عندما تنحني تبدو أغصانها كمخالب جبارة، لكواسر عملاقة مغروسة في الأرض. وعندما يذوب الثلج سرعان ما ترفع رأسها إلى فوق. لتستعيد شموخها، وتبدو من جديد، وكأنها سيوف فرسان مرفوعة إلى السماء.

ما أروع ذلك المنظر. شجرة الأرز، وهي منحنية إلى الثلج دون أن تفقد هيبتها، وشجرة الأرز وهي تستقيم، نافضة كابوس الثلج عنها، لترفع رأسها عاليا.

عندما كنت في الجبل، أظل أتشوق إلى فصل الشتاء، لا لشيء إلا لأعايش، تفاعل الأرز، مع الطبيعة، بأسلوبها الخاص. أسلوب العزة والكرامة، والإصرار، على عدم فقدان الخصوصية.

كذلك نحن المجاهدين. المجاهدون الأصليون.

يجب أن نكون. إذا ما انحنينا لثلج فلكي تبدو مخالبنا الكبيرة، وإذا سطعت أشعة الشمس، أو تكدس الضباب القوي، وشعرنا بخفة وزن الثلج من فوقنا، فيجب أن ننفضه على أنفسنا، ونعود إلى التطاول، عمالقة ننظر إلى الفوق، ونمد أيدينا إلى مختلف الآفاق في جميع الجهات.

كنت أقول لنفسي ذلك وأنا أتأملها الأرزات الصامدة. ودون أن أشعر، أجدني متجدد العزيمة، قوي الإيمان.

مر على ذلك زمن طويل، وكدت أنسى المنظر الخلاب. لكن ها أنني الليلة، أبصرها أمامي تنحني، وتتطاول، ولا تفقد في كل ذلك شرفها.

نبهت، الناصر، ذات مرة إلى ذلك، فقال أنا لا يهمني، حزن الشتاء، في الشتاء يصعب السفر إلى الأماكن البعيدة.

أنا ها هنا. عابر، ولا غير. عابر ينتظر في محطة البارود والموت مرور القطار، ولا بد أن يمر القطار، ويهجر العابر المحطة.

أحب الربيع، لأن المدن الكبيرة تتحول أثناءه إلى الفردوس. تنزع العذارى عنهن ألبسة الشتاء الغليظة، وتكشف على مكنونات جمالها، ويخلع الشبان أردية الكهولة، ويعرون عن مظاهر القوة والحيوية. تكثر الحركة تكثر الزهور، ينمو البيع والشراء.

الناصر، لم يلبث سنة كاملة بعد الاستقلال في أرض الوطن، حتى سافر. إنه في العوالم الكبيرة، يبيع ويشتري، ويغير النظارات. أسس سيركا عالميا، وهو يطوف به من قارة لأخرى.

يا له من عابر سبيل حقيقي. عاش معنا، يقطع المسافات في الليل، ويطلق النار، ويقتل. ويفجر القنابل ويهجم، لكن دون أن يشعر ولو مرة واحدة بأنه جزء منا.

ينظر إلى السحب العليا، وإلى الطيور المهاجرة، ويقول، إنها تنتظرني. متى تنتهون من عملكم هذا، لألتحق بها.

تنبأ له زيدان، بعد أن ذبح بيديه عدة أنفس في ليلة واحدة، بالانفجار. بالجنون. لكن ذلك لم يتم. تغلب على الأمر، على هوله، قصه على جميع الناس، مرات المرات، ثم نسيه دفعة واحدة.

إيه يا أيام الأرز.

عندما لفت انتباه بلقاسم، إلى عظمة روح شجرة الأرز. قال إنه لا يحب منظرها، إن أيديها المتعددة المتشعبة تذكره بأيدي إخوته الستة والعشرين، وهي تمتد إلى قصعة الطعام.

بلقاسم مسكين، لم يطل به الوقت كثيرا. ما أن غادرنا زيدان بأيام قليلة، حتى استشهد. كنا في اشتباك عنيف مع العدو، وكان يحمينا، بالمدفع الرشاش. طالت المعركة، وبدأنا نشعر بثقلها، وكان عليه أن يلعب فيها الدور الرئيسي.

كان في قمة مرتفع، يرقب العدو وهو يتقدم زاحفا نحونا، وكان عليه وحده أن يصده.

أطلق النار وأطلق. ضغط على الزناد وضغط. وفي كل ذلك يلاحظ أن عمله له تأثير قوي على تقدم زحف العدو. أراد أن يعطله دفعة واحدة، لكي نتمكن من جمع شملنا، قبل أن نحتدم به.

نهض واقفا. حمل المدفع الرشاش بكلتا يديه. ضمه إلى صدره، وعض على شاربه، وراح يطلق النار المتواصلة.

كشفته الطائرة من فوق. أعطت الأوامر إلى المدفعية في الأسفل. لم تمر لحظات قلائل، حتى انفجر سيل من القنابل على رأسه.

أسرع أحدنا إلى المدفع الرشاش، اختطفه وهرب به يغير الموقع، وتواصلت المعركة. عندما حاولنا في المساء أن ندفنه، لم نجد إلا بقايا منه.

أذكر حتى الآن، كيف كانت ذراعه عالقة بغصن شجرة الأرز، مفتوحة الأصابع، وكأنها هي أيضا، أحد مخالبها الجبارة.

خسرنا، بلقاسم المسكين. لكن لا شك أنه استراح من الهموم الثقيلة التي كان يحملها.

يا له من زمن، رغم ما فيه، ولى وانقصى بسرعة فائقة. ليتركنا نواجه الرتابة والسكون، وعبث

النسيان. نسيان الجميع. للشرف الذي كان في وقت من الأوقات الهواء الذي يتنفسه الرجال.

النوم الليلة يهرب مني. لا شك أن الشريف وعبد القادر، نائمان. يا لهما. يا لهم.

إنهم يعيشون شرفا من نوع آخر. لكنه شرف رجال.

وعيسى. عيسى بوعين. يا لفظاعة ما تحويه آلته. العنكبوت ينسج في الظلام، ضدنا. ضد الهواري وضد أبنائه. وضد الفقراء والمساكين.

آه يا زيدان يا ولد أمي. أينك الآن. لتشرح لي معنى الرجعية التي كنت تتحدث عنها. والتي تنام الآن في آلة عيسى بوعين.

سي منصور، الذي لم يطلق رصاصة واحدة، أيام الكفاح المسلح، وفضل أن ينتظر كالخروف في داره حتى يلقي عليه القبض، يحاول الآن، أن يلعب دورا في تقرير مصير البلاد. مصير الثورة كلها.

«أخدمها يا التاعس للناعس كلها يا الرقد بالنوم». كان بعطوش يردد ذلك، كلما جرنا الحديث إلى زيدان وإلى موته، ويقول إذا لم نكن رجالا فحولا أكلنا الأغنياء وأبناؤهم. أفكار زيدان هي هذا الذي نفعله كله. وفي الهاتف قال لي، الليلة بالذات. لا تغفلوا عنهم. لا تدعوهم وحدهم ورافقوا كل تحركات الرجعيين. بعطوش أيضا يستعمل هذا التعبير الذي قال عنه عيسى. لا شك أنه سمعه من الهواري. بعطوش لم يضيع وقته. بدأ تعلم القراءة والكتابة في الجبل، وها هو اليوم في مستوى لا بأس به. ترى ماذا لو تعرف بعطوش على زيدان. لو عاش معه الفترة التي عاشها معي، ماذا سيكون وضعه.

إنني لم أدعهم وحدهم، اتخذت مبادرة وتلفنت لبعطوش. وقمت بالاتصال بقائد وحدة الدرك الوطني. قال إنه لم يلاحظ حتى الآن، ما يمكن أن يكون مخلا بالأمن، أو يمس به، في تواجد الطلبة عندنا، وإن الفوج الذي تعود أن يزور القرية، في مستوى محترم من الانضباط والتكوين، يقال إنه وقعت بعض احتكاكات بين الطلبة بسبب تواجد عناصر جديدة، لم تتعود التطوع هنا، لكن ليس لها أهمية تستوجب إجراءات، من طرفنا.

هذا شغل الحزب في الحقيقة وليس شغلنا نحن.

هذه الكلمة، غامضة، أخافتني، لم أفهم المقصود منها بالضبط. لم أشأ، أن أستمر معه في الحديث، واكتفيت بتنبيهه، إلى أن قسمة قدماء المجاهدين، تضع كل ثقتها في الفوج الذي تعود

التطوع عندنا، وفي مسؤوله الشريف. وأنها لن تتخلى عنهم إذا ما تعرضوا لمكروه من أي كان.

هل يكفي هذا؟ البنات المسكينات خائفات. لا شك أنهن يشعرن بالذعر. الشريف نفسه محتار. يقول لماذا أخبرت بعطوش والقيادة العليا. إننا لا نريد إثارة المشاكل للهواري، وإنما إعانته على حل المشاكل.

محتار. يحاول تجنب الاستجابة للاستفزازات، وعزل الرجعيين في نفس الوقت. هؤلاء لم يجعلوا الأمر مقتصرا عليهم. إنهم يحاولون تجنيد الحزب، وأعيان القرية معهم فهل أتركهم ينجحون؟

لا. ألف مرة لا. سي منصور ليس الحزب. كلنا الحزب. كلنا جبهة التحرير الوطني. الحزب هو المجاهدون أولا وقبل كل شيء. هو الجمعية العامة للمناضلين. هو الشعب.

هو كل من يحب الهواري.

ينبغي، عقد اجتماع عاجل بأكبر عدد ممكن من المجاهدين اليوم بالذات. وينبغي الاتصال بالنقابة. عمال البلدية، وعمال السكك الحديدية، معنا. معنا دائما وأبدا. هؤلاء يستطيعون أن يفعلوا شيئا لفائدة الشريف.

والشبيبة. إنها منقسمة على نفسها، بعضها يخضع الخضوع الأعمى لسي منصور، خاصة الكشافة، وبعضها، يعمل باتصال وتنسيق، مع الجامعة، بواسطة ابن أخي، في الإمكان عمل شيء ما بواسطة الشبيبة أيضا.

يجب أن أوقظ عمر الآن، لأحكي معه في هذا الأمر. الساعة الثانية، لكن لا بأس. لقد نام مبكرا واليوم عطلة، لا يقرأ، إنه معهم، ويمكن الاستعانة به.

نهض. أشعل النور. استيقظت خوخة بدورها. أسرعت تتفقد أبناءها النائمين، وتسوي الغطاء على الصغير، قدور.

– ماذا تفعل يا حمو. لماذا لا تنام؟

– لم أستطع النوم.

– ولم تتركني بدوري أنان. منذ دخلت الفراش وأنت تتخبط وتتحدث بالصوت أحيانا. هل أنت مريض.

– لا. أبدا. إنما قلق. السياسة. كما حدثتك في أول الليل.

– ألا يكفي النهار للسياسة.

– لا يكفي.أريد التحدث إلى عمر.

– دعه ينم. إن السفر كل يوم إلى الثانوية في المدينة يتعب.

– اليوم عطلته الأسبوعية، يجب أتحدث معه.

– أتريد قهوة؟

– الله الله. خوخة دائما مجاهدة. أتذكرين فرن الحمام.

– اللعنة على الزمن الماضي.

قالت ونهضت. حملت المصباح الغازي، وسبقته إلى المطبخ. بينما اتجه هو إلى الغرفة التي تنام فيها أمه مع أبناء زيدان الكبار.

طلب من العائلة التي استيقظت كلها تقريبا، أن تواصل نومها، واصطحب عمر، الذي لم ينزعج لهذه الدعوة المفاجئة من طرف عمه للتحدث معه في السياسة.

– هذا أمر سهل. إذا ما أعارني عيسى بوعين دراجته فلن يستغرق الأمر، أكثر من ساعة. لقد طرحنا في اجتماع الشهر الأخير، نقطة التطوع، واتفقنا، على البحث عن كيفية تنظيمه. ستكون مناسبة لانطلاق تطوع شبيبة الحزب، إلى جانب الطلبة والعمال.

– وماذا تستطيعون أن تقدموا اليوم بالذات؟

– أعتقد أننا بالإمكان أن نشكل عدة أفواج، من الشبيبة المتطوعة، نضمها إلى الفوج الجامعي، نخلق حماسا أكثر، نشجع البعض، ونغرق البعض الآخر في العزلة. عندنا عناصر جيدة، تعرف جيدا كيف تتصرف، في مثل هذه المناسبات.

– الشريف لا يحب الاصطدام. كذلك أوصاني سي بعطوش.

– عمي حمو. لا يهمك. نحن أيضا لنا تجاربنا الخاصة، والتي ربما لم تعيشوها. ستكون مسرورا وهذا ما أعدك به.

– وقبل أن ينهضا من مكانهما بالمطبخ، كان عمر يتصور، بعد، أفواجا من الشبيبة تقتحم التكميلية، هازجة بأناشيد الطلبة، وبحياة الهواري، مطالبة بدعم التطوع، وتوسيعه إلى كل الفئات الثورية.

* * *

بعد وفاة فرعون العرب، بن قانه، كلفني الحزب، بالتوجه إلى منطقة الحكم العسكري، لتنظيم نقابات صغار الفلاحين، هنالك.

كانت هذه المهمة مغامرة. لكن حزبنا، عودنا على القيام بمثل هذه المغامرات.

كتبت رسالة إلى الكومندان، حاكم «توقرت» العسكري. أعلمه فيها بالغرض من قدومي وضبطت له الأماكن التي سأزورها في وادي ريغ.

كانت بلدة المهدية، المنطلق.. وجدت الفلاحين في انتظاري، كما وجدت أيضا قبطانا صحبة ترجمان.

هل أعد هذا الاجتماع لي أم للقبطان؟

سألت الرفاق، فأجابوا إنه لك. وليس لأحد آخر. كنت أعرف سبب مجيء القبطان، وهو نقل فحوى خطابي للكومندان.

مع ذلك، عمدت، كعادتي إلى الظهور بمظهر القوة، لأنزع الخوف من نفوس الجماهير المسكينة التي ترزح تحت وطأة الحكم العسكري.

تقدمت نحو القبطان وترجمانه. صافحتهما ودعوتهما إلى الجلوس، كما لو أنني في منزلي.

حييت الحاضرين. شكرتهم على ما أبدوه من جرأة وإيمان بعدالة قضيتهم أمام حاكمهم، وعلى الحفاوة التي هي حفاوة بحزبي.. وعبرت عن سروري بوجود القبطان وترجمانه، لأن هذا يضع حدا للوشاة الذين يقلبون الحقائق، طمعا في المناصب وفي الأموال، ولكل الذين يتهمون الشيوعيين بتنظيم الفلاحين، ليس من أجل الدفاع عن حقوقهم، ومقاومة الاستغلال والنهب الاستعماري والإقطاعي الرجعي، وإنما من أجل تسليحهم للقيام بالثورة، ضد السلطات.

حقا إننا ننظم الفلاحين الصغار، للدفاع – في هذه المرحلة الحاضرة – عن أبسط حقوقهم.. ها أنني أخاطبكم اليوم، أمام السيد القبطان، لأشرح لكم المهمة التي كلفني حزبي بها، لمساعدتكم. إنه تنظيم صفوفكم أو لا وقبل كل شيء. لأنه بدون ذلك، لن تنالوا شيئا من مطالبكم العادلة، ولن تستطيعوا مقاومة الاستغلال والاضطهاد، النازلين بكم.

بلغنا أن قائد هذه الناحية، لا يوزع عليكم حقكم في التموين، حسب القانون، وعليه أعلمكم أمام القبطان، وباستطاعته، الإجابة على أقوالي، بعد انتهاء كلمتي – بأن لكل واحد منكم الحق في سبعة كيلوغرامات من القمح أو الدقيق شهريا، كذلك كيلوغراما واحد من السكر، ونصف رطل من

القهوة، ونصف لتر من الزيت، وأربعة أمتار من القماش في كل ستة أشهر. هذا بالإضافة إلى الصابون.

بلغنا أيضا، أنهم يسخرونكم ودوابكم لخدمتهم ولتعبيد الطرقات، دون أجر، كما يسخركم القياد وأعوانهم، في خدمة بساتينهم دون أجر أيضا.

اعلموا أن القانون يمنع مثل هذه المعاملات الجائرة.

وعليكم – من اليوم – أن ترفضوا العمل دون أجرة. أنتم وبغالكم وجمالكم. قوموا كرجل واحد ضد هذه التصرفات الخارجة عن القانون والعرف. وها أنا أكلف، باسم نقابة صغار الفلاحين، المسؤول الذي ستنتخبونه أنتم بأنفسكم، حسب الطرق الديموقراطية، بالدفاع عن مصالحكم. أمام المحاكم. أمام الشيوخ. أمام القياد. فإن امتنعوا عن الامتثال للقانون. أخبروا الحزب، وسنأتي إليكم على جناح السرعة.

أطلقت هذه القنابل، بثبات وجرأة، واثقا من أنها ستظل تنفجر في الصحراء الشاسعة مثيرة لحقد البؤساء.

ثم عمدت إلى تلطيف كلامي بعض الشيء، ورحت أتحدث عن التضامن، واحترام حق الغير والأخوة، وما إلى ذلك.

بعد دقائق طويلة، من التصفيق والهتاف، التفت إلي القبطان أسأله:

– هل لحضرة القبطان أسئلة يوجهها؟

– أهذا ما ستقوله في باقي الاجتماعات؟

– نعم ويشرفني أن تكون من جمهوري. أنت وترجمانك.

– ذاك موضوع آخر.

– وأنتم أيها الحاضرون. هل لديكم ما تقولونه؟

– لا يعطوننا سوى أربعة كيلو من القمح أو الشعير في الشهر. أما السكر والقماش والزيت والقهوة والصابون فلم نسمع بها سوى الآن من فمك.

قال فلاح، بكل شجاعة، فأضاف آخر:

– إن الأولاد والنساء. لا يجدون ما يسترون به عوراتهم. الناس هنا يسرقون أكفان الموتى من شدة الحاجة. إذا أراد سيادة القبطان، فليحضر معي، وسيشاهد بعينيه، هذه الحقيقة.

رجوت القبطان أن يعلم الكومندان بحال الشعب، ويفهمه بأنني لا أقول في خطبي سوى القليل القليل مما يعانيه الشعب.

تأسست نقابة الفلاحين في قرى: انسيغه. المغير. سيدي خليل. أم الطيور. جامعة. عفيان. غلانة. الزاوية. تقديدين. وتعذر علينا ذلك في قرية تمرنة.

في هذه القرية تعرضنا لمكيدة، تستهدف نسف عملنا من أساسه.

لقد منعنا شيخ القرية من عقد الاجتماع. قال إن القائد «مصرالي بن قان.ة» هو الذي قرر ذلك.

ثارت ثائرة بعض الرفاق. أخذتهم العزة بالقوة، فطلبوا مني أن نعقد اجتماعنا، مادام مرخصا به من طرف الكومندان.

حاولت قدر الإمكان تهدئتهم، وكبح جماحهم. أفهمتهم أننا قد ننتصر على الشيخ، ونعقد الاجتماع، قد نشتبك مع رجاله ونغلبهم. لكن من سيكون المنتصر الآخير.

إنه مدبر المكيدة ولا شك. الكومندان نفسه، سيعتبرنا مشوشين، وسيصدر أمرا عسكريا، للزج بكل رفاقنا في السجون. لا. أيها الرفاق. لا.

قصدت فورا «تقرت» طالبا مقابلة الكومندان. شرحت له في هدوء تام، تصرف القائد بن قانه، معللا ذلك بالعدواة الشخصية التي كانت بيني وبين أبيه. ثم سألته بلطف:

– طبعا. أمر المنع لم يصدر منك؟

– كيف يعقل ذلك، وأنت تحمل رخصة بتوقيعي.

– إذن أرجوك أن تحضر القائد بن قانه.

حضر القائد فورا، وكأنما كان في االانتظار. تحايلت معهما، حتى تلفنا للشيخ بتمرنه، يأمرانه بتسهيل أمر الاجتماع.

صحب ذلك مشهد تمثيلي، عن مصالحة مزعومة بيني وبين القائد بن قانة.

ولما كنت بالباب، خارجا مع رفاقي، خاطبني الكومندان من خلفي:

– إنك داهية ثعلوب ابن ثعلوب.

– إنني لا أسير إلا بأوامر حزبي يا سيدي «لكومندان».

تابعت جميلة بنهم، بقية الفصل السابع والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر من مذكرات الشباح المكي الأوراسي.

كانت المعارك مرعبة. طاحنة. لكن المثير فيها بالنسبة إليها هو المرونة الكبيرة التي يتحلى بها هذا البطل المجهول الذي لولا كراسة مخطوطة مذكراته المكتوبة بلغة شبه فصحى بسيطة واضحة لما عرفته. ولظل مجهولا لديها، مثلما هو مجهول لدى الملايين من الناس.

جريء. شجاع. مستميت في إيمانه. مع ذلك مرن إلى حد يثير الأعصاب. يستسلم لجر الحصان خمسة وسبعين كيلومترا كاملة. من بسكرة إلى أولاد جلال. ثم يقضي ما يقضي في السجن، مقتاتا بإحدى عشرة تمرة وزجاجة ماء في اليوم. وعندما يطلق سراحه، يشن معركة حكيمة، ضد الإقطاعي فرعون العرب، ويتمكن من استصدار حكم ضده. ليموت في نفس الأسبوع، غما.

لقد فاق في برودة الأعصاب الآسيويين الذين يعجب بهم الغرب حاليا. لا شك أن الآسيوية. الحكمة الآسيوية ليست سوى التطبيق الصحيح للمبادئ الماركسية.

إقترن كفاح الشباح المكي السياسي، بالنشاط التمثيلي والرياضي، حيث لا تمر سنة واحدة إلا ويؤسس جمعية يؤلف لها، ويراسلها، ويمثل فيها.

يا له. يا لرحابة صدره.

لا تهتم الأمة اليوم به. لم تعطه حتى اسم شارع صغير، أو جمعية مسرحية.

لكن في الماضي. يومذاك. أقامت له الأمة في كل قلب من قلوب أبنائها تمثالا من المحبة. الأحزاب كلها وعلى مختلف مشاربها، تبنت قضيته. الصحف كلها كتبت عنه. تشكلت حركة من أجله، أطلق عليها «الغوث الشعبي»، أصدرت طابعا عالميا، يحمل رسمه مجرورا خلف الحصان. ورغم أن السلطات الاستعمارية منعته، وتقضي بالسجن شهرا، وبغرامة باهظة، على كل من يحمله، فإن الجزائريين كانوا يتهافتون عليه.

لعلنا اليوم. كما يقول برهما. نعتبر ذلك، المرتبة العشرين في سباق الدراجات الدولي المنتظم ببلادنا. منشغلين بالمرتبة الرابعة عشرة، التي يحرزها السباق زعاف الطاهر.

يا لنا. يا له.

بنفس الحدة يخوض المعركة في مطلع الاستقلال، بعد أن عاد من المهجر. يزاحم مسؤول جبهة التحرير الوطني في باتنة. عن سكن شيخ البلدية الفرنسي الراحل، الذي كانت له معه معارك حامية. يسكن ويتعرض لمئات المناورات والمضايقات ويصمد. يترشح للانتخابات البلدية ولا ينجح.

يؤسس أول قرية اشتراكية في المزيرعة بدائرة «آريس» ثم يهمد.

يكتب مذكراته – على ما يبدو – ويهمد.

يذكر مئات، عشرات المئات، من أسماء الرفاق، في الجنوب وفي الشرق والغرب والوسط. أين يا ترى ذهب هؤلاء الرفاق؟ وماذا يفعلون في الحياة العامة. هل ما زالوا صامدين، أم أنهم انكفأوا على أنفسهم، يسجلون مذكراتهم..؟

يا لهذا الإجماع، على تجاوز التاريخ. إنه تواطؤ خطير، من طرف الجميع. ترى ما سبب ذلك؟

رواية اللاز، لا تتحدث سوى عن زيدان. يظهر فجأة في حياة القرية، حاملا صليبه. يقتحم الأحداث، ثم يخرج منها، مستسلما للذبح.

هذا ضعف فادح في الرواية، لم أكتشفه إلا بعد قراءة هذه المذكرات. لقد بهرتنا، لكونها أول عمل باللغة الوطنية، يعيد إلينا اعتبارنا، ولم نتمكن من استشفاف ضعفها الكبير.

سأسأله حالما ألتقي به، وسأناقشه بحدة، في كل رأي يبديه. لن أدعه يهرب، كعادته، إلى الضباب الشعري، والرموز الصوفية.

سأقول له ما قال شكسبير: كن أو لا تكن.

وضحكت. هذه هي اليسارية بعينها. هذا ما كافح الشباح المكي رفاق تمرنه من أجله. كل شيء أو لا شيء.

لقد تجرأ وأثار المضوع. يكفيه هذا. أثاره باسم جبهة التحرير الوطني، كأحد إطارتها. ولم يثره باسم الحزب الشيوعي الجزائري.

أثاره كمثقف ومناضل وطني نزيه، وليس غير. وفي أية ظروف، أثار المسكين الموضوع.

قال مرة: «مع أنني كنت أترجم فقرات وردت في ميثاق طرابلس عن نقائص جبهة التحرير الوطني. فإنني كنت مترددا، خشية أن لا يفهمني أحد. فمن العادة أن ينسى الناس في بلادنا النصوص. كنت أكتب وأشطب. أسود صفحة ثم أمزقها. أترك الموضوع سنة، وسنتين ثم أعود إليه.

كانت الأمور وقتها، أعقد بكثير جدا مما هي عليه الآن. بل لا تقاس بالظروف الحالية أبدا. هذه الظروف التي تخرجون فيها منشدين.. تسقط الرجعية وتحيا الاشتراكية.

كنت كمن يقف على حافة جرف كبير، في انتظار أن يلقي بنفسه. يتقدم ثم يتأخر. ينظر إلى الأمام إلى الأفق البعيد. ثم إلى قعر الجرف، ثم إلى موضع قدميه، ثم يلتفت إلى الخلف.

هل يلقي بنفسه أم لا. هل يفعل أم لا يفعل؟ هل يسلم في الحياة. في كل ما كسبه منها وما سيكسبه، إن ظل هادئا ممتثلا..؟

إنها أسئلة محرجة، بالنسبة للإنسان.

يغمض عينيه، آخر الأمر يفعل. يأتي الفعل.

في سبيل ماذا شرب الحكيم. ذلك الواثق السم؟ البطولة ليست بطولتي، وإنما هي بطولة ذلك الشجاع الذي أسلم نفسه للموت. أسلم عنقه لخنجر الذباح، وهو واثق من أنه سيذبحه، بلا شفقة.

لم أفعل سوى إبراز تلك البطولة. ولن أتجاوز مهما لمعت، كالقمر، الشمس التي استضيء منها.

وإلا لذهبت تضحية البطل المضحي، سدى، ولذهب دمه هدرا.

إنني أتحدث في واقع الأمر، عن ظاهرة فكر، أو منطق، أو إيديولوجية. إن شئت. سادت وتسود بيننا، أدانها ميثاق طرابلس بشدة. ولا أتحدث عن كفاح أو بطولة هذا الحزب أو ذاك. والذين يقرأونني ويعرفونني، واثقون – مهما كان حقدهم علي، من أنني أمارس نقدا ذاتيا، ولا أمارس نقدا خارجيا أو انتقادا أو تشهيرا، أو إدانة من طرف لطرف آخر.

والنقاد الذين استهوتهم شخصية اللاز التي هي شخصية وجودية، لأنها تعيش، وجودها قبل أن تعيش ماهيتها، متجاهلين لشخصية زيدان الملحمية، السائرة نحو مصيرها المحتوم، لا بحكم عقاب الآلهة لبروميثيوس، أو تنبؤ العرافات لماكبث. أو بسحر الجنيات لاوديس. لهم بعض الحق في ذلك، فأنا الأول كنت إلى حد بعيد، مستهوى بشخصية اللاز.

إلا أن فهمي له، يختلف عن فهمهم له.

برهما، يقهرني بشعره حتى في غيابه.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

هتف اللاز من تحت شجرة الخرنوب التي عاد إليها بعد أن غادرها، فترة، لم تقدرها جميلة. دخل الشيخ مبارك لحظتها، يحمل علبة الدواء الذي وصفه لها في الصباح الطبيب الزميل المتطوع.

ضحكت قائلة:

– ليس معي فكة الخمسمائة دينار، حتى أتمكن من تعويضك الثمن.

– كيف حالك الآن.

سألها الشيخ مبارك، بعد أن اعتدلت جالسة على حافة السرير احتراما له.

– في أطيب ما تكون. لقد أنعشتني مذكرات الرفيق الشباح المكي.

انتهيت منها. هاتها الآن. فهي نسخة وحيدة، أمانة في عنقي. في عنقينا أنا وأنت، بعد أن أطلعت عليها.

– يا لها من حياة نضال زاخر.

– ومع ذلك يزعمون أننا دخلاء. وأن كل شيء بدأ وانتهى على أيديهم. إن استيلاء عمال الأرض في 1962 على مزارع المعمرين كان إحدى نتائج نضالنا الطويل.

– وأنت هل سجلت مذكراتك؟

– مذكراتي رجال يسيرون. إطارات. فلاسفة وأساتذة. وأبناء تخرجوا على يدي. كانت مدينتي في زمني، تسمى (موسكو الصغيرة). وهي كذلك حتى الآن. بل إنها الآن، (ستالين غراد). سيكتبون هم مذكراتي، بنضالهم وسيقرؤها التاريخ ذات يوم.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

– هل أكل اللاز شيئا؟

– لا تفكري فيه. إنه يحل مشاكله بنفسه. استريحي، وستنزل لك صوفية ابنتي طعام الغداء فيما بعد. خرج أصحابنا واسترحنا منهم. سيشرع غدا في بناء القرية الاشتراكية، وسيعزز تطوعكم عمال السكك الحديدية والبلدية.

– سأكون معهم.

– ما يبقى في الوادي غير حجاره.

* * *

حاولت جميلة أن تغفو قليلا، إلا أن آلام بطنها وظهرها، والخور الذي سببه لها النزيف الدموي، جعلاها لا تستقر على جنب. ولا تهدأ للنوم، بالإضافة إلى التشوش الفكري الذي أحدثته فيها مذكرات الشباح المكي. والخواطر الحزينة التي أثارتها فيها. والتهديد بالحامض الذي تتناساه عبثا.

استخرجت رزمة الرسائل الغرامية، التي يوجهها إليها، أستاذ معيد بكلية الآداب، أسبوعيا تقريبا.

وضعتها على صدرها، ولم تقو على فتحها.

لا أحبه ولا أعطف عليه حتى. بل، إنني أحتقره، لأنه لا يهتم بشيء فعال في هذه الحياة إطلاقا. خيالي رومانسي. غبي مثالي. خجول. لا هم له منذ عرفني في لقاء عابر سوى كتابة الرسائل المتأججة.

في كل رسالة يقول، هذه آخر رسائلي إليك، إن لم تردي علي. إن كنت ترفضينني، وترفضين حبي فاكتبي لي سطرا واحدا بذلك. أعلني موقفك، وستستريحين مني، وأستريح بدوري من حياتي التافهة.

لكن بعد أسبوع، تصلني رسالة جديدة منه، يقول فيها إنه فسر سكوتي بعدم الرفض. ويسبح، يسبح في ذرى السماوات والأنجم ولهب عيني الأزرق الأخضر الناري. ثم يختم رسالته بتهديد جديد.

في الأول كنت أتفكه برسائله، وأتلوها ساخرة على مراد خطيبي. لكن بعد أشهر، صرت مدمنة بها.

لعلني أصبت بنرجسية، أعبد ذاتي من خلال رسائله، كما لو أنني أمام مرآة، أتعشق نفسي. وفي الحق لا يستطيع المرء، من خلال تأمل ذاته في المرآة، أن يبلغ تلك النشوة، التي يجدها في إعجاب غيره بجماله. إن ذلك بمثابة مرآة ناطقة. أغمض عينيك، واستسلم للخدر الساحر، الذي تحدثه فيك كلماتي.

مرآة الذات تحتاج دائما إلى شاهد أجنبي.

مرة يصفني بساحرة. يقول إنه لا وجود فعلي لي إطلاقا، وكل ما هنالك، هو أن «بينيلوب» تسكن خياله الشاعري، وأنها تتراءى له، وتحتجب.

وإلا ما تفسير لون عيني، الذي لا يستطيع أن يحكم عليه، لا بالزرقة، ولا بالخضرة، ولا بهما معا. بالنار. وهج النار.

أو ما تفسير عدم تحكم كل من يراني، في عواطفه. ومع ذلك يقف مكتوف الأيدي. لا يقوى على قطع خطوة إلى الأمام، ولا على إتيان شيء، سوى تمني الذوبان بالخضرة والزرقة والنار.

أقسم بالنار. بالخضرة والزرقة معا. أنه لا أحد رآك. ولا أحد يراك سواي. وأن خطيبك الذين تصحبينه معك لتمري به أمام مقهى اللوتيس، حيث أجلس كل يوم في انتظار شبحك، لتفتحيهما: عينيك وتقذفين بحبل من لهب، ثم تمرين غير مبالية بي.

أقسم بالنار وبالسحر. أن خطيبك ليس سوى ذلك الوهم الذي كان يعذب ضمير عطيل.

ومرة يقول، إنني النور الحق الذي يستحم به العاشق، وأن ولهه بي، دليل على شاعريته ونبوغه، وعلى أنه وصل.

سيعلم الناس يوما، أنه وصل النبع، وأنه استحم. ولقد كان في ذلك أكثر تفردا من الحلاج والعطار، والغزالي، والرومي.

ذلك لأنه لم يفقد وعيه وهو يستحم بالنور الحق.

صنعت ليلة وإياك، بارجة من زغب العصافير، وبراعم الزهور البرية. امتطيناها فراحت تسبح بنا نحو الأعلى فالأعلى.

كانت عيناك معلقتين، بأقصى نجمة في اللانهاية، وكان شلال من نور، لا هو بالأخضر ولا هو بالأزرق. يمتد بيننا وبين النجمة.

قبل أن نبلغها، صنعنا كونا أخر، أرحب من الكون الذي تتعلق فيه بارجتنا والنجمة. كله زغب آمال، تشكل بسمة عذبة.

تلمستك فلم أجدك.

وصلت وحدي إلى النجمة. وظللت على يقين، حتى بعد أن فطنت، من أنك النجمة. وأنني في حبك، متفرد.

عاشق متفرد.

سألته مرة، لماذا لا يتطوع لدعم الثورة الزراعية، لزم الصمت لحظتها، لكنه في الرسالة التالية، راح يحدثني عن لوم الناس لمن قتل أمه متهما إياها بالزنى:

إن الحنق قد دفع ذلك الشخص، إلى أن يقتل أمه، وذلك بطعنات خنجره، وضربات قبضته.

فقال له أحد الناس: إنك لخبث جوهرك، لم تتذكر ما للأمومة عليك من حق.. لماذا قتلت أمك؟

خبرني. قل لي ماذا صنعت، أيها الخبيث الطبع.

فقال القاتل: لقد فعلت أمرا فيه عارها، فقتلتها لأن في التراب سترا لها.. فقال: فلتقتل ذلك الرجل أيها الهمام. فقال القاتل: سيكون علي إذن، إن أقتل كل يوم رجلا.

لقد قتلتها فخلصت من دماء الخلق. لقد قطعت حلقها، وذلك خير من ضرب أعناق الخلق.

«إنكم كالغلام الهندي الذي يحقد على سيده، فيقتل نفسه ليغيظ هذا السيد».

«.. خير للقدم الأعوج، أن يكون نعله أعوج. وما للمتسول من مكان إلا عند الباب».

أثار حقدي عليه. لكن سرعان ما سامحته، عندما راح يحدثني عن القروح التي خلفتها نار عيني في قلبه.

ما ذنب الطالبة المناضلة إن كانت جميلة؟ هل تقف ضد الغريزة، فتقضي على مشاعر الأنوثة فيها.

أم هل تشوه وجهها بالحامض؟

تلمست وجهها. تأملت الباب المغلق. ألقت نظرة على النوافذ الزجاجية الكبيرة التي لا تكسوها الأخشاب.

إذا ما هجم مصطفى حاملا قنينات الأسيد في يديه، فسيجد المنفذ. يكفيه أن يحطم زجاجة ليجد نفسه في الداخل. سأشج رأسه بهذه المقاعد الحديدية، ولن أتركه أبدا يقترب مني.

ترى ما يستطيع اللاز الذي يأبى مغادرة شجرة الخرنوب، مواجها المدخل الحديدي مصلوبا أن يفعل؟

إذا لم يكن اللاز، الآن يسبح في الزرقة والخضرة، ففي أي شيء يسبح يا ترى؟

يلازمني ليل نها. إني واثقة من أنه كان سيتبعني لو خرجت مع الأفواج.

المهم أن اللاز منشغل بي. المهم أنك منشغلة ببرهما، وأنك تخلطين بينه وبين اللاز. المهم أن يظل إحساس المرأة بأن هناك من يهتم بها قويا.

أنهض. أغسل قطع القماش. فالقطن نفذ مني. لست أدري ما إذا كان مع فاطنة صابون.

جمعت قطع القماش الملوثة بالدم، في فوطة تركتها فوق السرير، ونهضت لتبحث عن الصابون في دبش فاطنة.

قابلها شبح مصطفى، يخترق الباب الخارجي مسرعا.

راحت تتأكد من صحة ما رأت. هتف اللاز:

- ما يبقى في الوادي غير حجارة؟

كرر الهتاف ثلاث مرات، أسرعت إلى الباب تتأكد من انغلاقه. تلمست وجهها، وهي تبحث عن أي شيء يمكن أن تدافع به عن نفسها.

أسرعت إلى الفوطة تتناولها، غير مكترثة بقطع القماش الملوثة بالدم، التي تبعثرت في أماكن كثيرة. غطت رأسها. تلثمت. لم يبق باديا من وجهها سوى عينيها.

حملت كرسيا. رفعته إلى فوق، وهتفت من أعماقها:

- النجدة. النجدة. اللاز. أفق يا اللاز.

* * *

أفاق الربيعي من غيبوبة كانت اعترته، مصحوبة بحمى وهذيان، تأمل حمو، جيدا أشار بإصبعه إلى الباب وهو يتمتم إبن أخي في الطريق.

أغفى مرة أخرى طويلا ثم فتح عينيه:

– الدم. الدم يسيل.

ذكر عبارة الأحباب، وردد إسم اللاز أكثر من مرة، وغاب.. كانت هناك خمس جثث. مضرجة بالدم القاني. تعرف على واحدة منها. إنها لزيدان. بل إنه زيدان بالذات.

كان مبطوحا، وكان رأسه غير عالق بجسده، إلا بقطعة جلد، عند الحلقوم المقطوع.

طار شيء مجنح من بين الجثث الخمس. تمسك بنجمة حمراء وطار. قبل أن يختفي كان وجهه يملأ السماء.

إنه اللاز. اللاز، بوجهه العريض بأنفه الأفطس. بحاجبيه الأغطفين. بشفتيه الممتلئتين بعينيه الواسعتين المستديرتين.

– سيشرب من مياه البحار الدموية السبعة. ثم يعود إليكم. امتطى جواد الدم. يذهب ويعود به.

حين يعود اللاز يكون الدرب مضيئا فلا تعودون ترهبون الظلمة. يومذاك ألتقي بك يا الربيعي يا ابن أمي.. هذا أنت يا زيدان.

أفاق مرة أخرى. كان حمو قد انتهى من أشغال تنظيف الغرفة وإبدال الفراش، وإعداد الأدوية، وهو في حيرة من أمره.

أيسرع إلى أفواج الطلبة لينجدهم، إنه واثق من أن الدم الذي قال الربيعي أنه يسيل،يسيل فعلا. لكن في أي مكان. إنهم موزعون على البلديات. على عشر بلديات، أو أكثر. أيسرع إلى النجدة أم ينتظر بعطوش الذي لا شك أنه سيقتحم الباب بين حين وأخر.

قال الربيعي ذلك، ولا بد أن يحدث ذلك.

– ضع الدواء جانبا. أبعده. لم يبق لي وقت لتناوله. وجهني إلى القبلة وانتظر معي بعطوش. ذكرني في الشهادة كلما غفوت.

تأكد حمو من رحيله. وضع الأدوية، في حقيبة. وضأه ووضع المصحف على صدره. وراح يكرر بين آونة وأخرى.

– شهد يا عمي الربيعي شهد.

يرفع سبابته اليمنى إلى فوق، ويرجوه:

– شهد يا عمي الربيعي شهد. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله.

– أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

يغفو ويستفيق. انقطع صوته، ولم تبق سوى شفتيه، تتحركان بكلام بين. ينحني ويروح يتفهمه ناسيا الطلبة والدم الذي ذكره الربيعي.

أمام رهبة الموت ليس في وسع المرء إلا أن ينسى الحياة الخارجية. يتناساها على الأقل.

– أنت مسموح لك، دنيا وآخرة. بعطوش مسموح له دنيا وآخرة.. لا تمنعوا اللاز من حمل نعشي. إنه عائد الآن.

– شهد يا عمي الربيعي شهد. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

– لا إله إلا الله محمد رسول الله.

يغفو ثم يستفيق، ينظر إلى الباب، فينظر معه حمو.. مات مئات الرجال بين يدي، ولم أرى موتا من هذا النوع. إنني أشعر بأن شبحا أسود، ذا مخالب كثيرة، وأنياب كبيرة، يجثم في هذه الغرفة. لا أحفظ ما يقرأ على الميت أو ما يقال في مثل هذه الحال.

– شهد يا عمي الربيعي شهد.

– أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

ردد عندما استفاق، ونظر إلى الباب. نظر حمو أيضا. أشار بأصبعه إلى الباب. انفتح. دخل بعطوش. لم ينهض حمو كعادته لاستقباله. أدرك أن عمه الربيعي يلفظ الروح. انحنى. سلم على عمه ثم على حمو. جلس إلى جانبهما، يلاصق الربيعي.

– شهد يا عمي الربيعي.

– لا إله إلا الله محمد رسول الله. في الأمان يا ولد أخي. كنت أنتظرك وها أنك قد حضرت. رجل. ما شاء الله. رجل. الآن أرحل مستريحا. لا تمنعوا اللاز من حمل نعشي. قدور ابني استشهد في حضرته، ولا شك أنه أوصاه بي خيرا.. أعطوه داري. داري للاز. الأرض أعطوها للهواري. الدار أعطوها للاز، فإنه عاد الآن بالذات من سفره مع قدور.

– شهد يا عمي الربيعي شهد.

لفظ الشهادة، ولفظ نفسه الأخير. غطيناه. ببرنس صوف أبيض. ونهضنا لإعداد إجراءات

الجنازة والدفن.

– أنا أقوم بكل الإجراءات. عيسى بوعين يتولى بدراجته إخطار السكان، وجميع الأقارب. أحضر الآن خوخة وأمي لإعداد العشاء، للمعزين والمقرئين والأقارب وأعود.

– لا تتعب نفسك. سأرسل السائق إلى الدوار، ليحضر عمتي، لتودعه، ويخطر الباقين. أرى أن نؤجل الأمر إلى الغد. فالوقت متأخر. ولا ضرورة لإزعاج أحد.

– مع ذلك يجب أن تعلم القرية الليلة. الموت موت يا سي بعطوش.

– بارك الله فيك. لقد استراح المسكين. أربع سنوات كاملة وهو يقاسي. وأنت أيضا تقاسي معه. ثلاث مرات أرسله إلى الخارج للتداوي ويعيدونه قائلين، سيموت هذا الأسبوع، لكن الأسبوع صار ثلاث سنوات برمتها. لو قبل الانتقال عندي إلى العاصمة، لما تعذبت أنت كل هذا العذاب. لا أعرف كيف أشكرك يا حمو يا أخي.

– هذا واجب. أنا جندت قدور. وقدور استشهد في طريقه باللاز إلى الحدود، قدور كان أخي. كان أكثر من صديق. الله يرحم الشهداء.

* * *

– هل هناك خيانة مطلقة. أو ترد نهائي.

تساءلت جميلة، وهي في طريقها، مع بعض زميلاتها وزملائها، الذين اختارهم الشريف، لاصطحابه إلى بعطوش.

لقد أخبرهم حمو، بأنه – رغم مصابه في عمه – سيستقبلهم. لن يخل بالوعد. كان يود أن يزورهم في التكميلية، ليتفقد أحوالهم، لكن موت عمه، تجعل الناس يحرجونه بتعزيته في الشارع.

سيتحدث معكم رغم الحزن الذي يستولي عليه. لكن سي بعطوش، رجل، يحزن في قلبه، يحزن في داخله، ولا يسمح لأي ضعف أن يبدو عليه. مات الآلاف من الرجال حوله. حتى أن المرء ليجزم بأن قلبه أيضا مات.

تستطيعون أن تتحدثوا إليه، بغير تكلف، فعمه الشيخ الربيعي، مات في الحقيقة، منذ سنوات.

– نعم هل هناك خيانة مطلقة. وترد نهائي؟ هل يفقد الإنسان، خصائصه الإنسانية، دفعة واحدة، مرة وإلى الأبد؟

هل تموت فيه جميع الأحاسيس الإنسانية، والخيرة فيظل يصر، ويصر على ارتكاب الشر في حق إخوانه، مجانا، ويظل يسقط ويسقط، دون أن يحاول ولو مرة واحدة أن يتماسك، أو حتى أن يلقي نظرة على الخلف.

لقد تساءل زيدان قبيل موته، وهو يفكر في بعطوش، هذا التساؤل.

يقينا أن زيدان، كان يضع بعطوش في موضعه الطبقي الصحيح، وإلا لما تساءل هكذا؟

بعطوش، لم يخن، ليدافع عن عقاراته أو تجاراته، أو أسهمه في البنوك والشركات. كان كواحد من الآلاف من الناس يومها، يرزح تحت ضغط كابوس الأسياد. كان عبدا لضعفه، المنبعث من ضعف المجتمع كله، وكانت في أعماقه بقايا من الحنين والتوق إلى إنسانيته. إلى الحرية، فما أن بلغ الأسياد، حد المس بتلك البقايا، حتى ثارت ثائرته، واستعاد كل ما فقده. ولو لم يكن المجتمع يومها، في حالة تمرد شامل عن الوضع، لما وجد بعطوش، الشجاعة في التمرد بدوره. لقد تنور ضميره بالإشعاع الذي كان المجتمع يرسله.

لو لم يكن ذلك، لجرت الأمور مجرى آخر. ربما ينتحر بعطوش. ربما يهاجر إلى الخارج ولن يعود. ربما، يستمر في تحدي نفسه، فينسلخ من الدين الإسلامي ليعتنق دينا آخر.

ولا شك أن الآلاف، كان هذا مصيرهم، يوم كان المجتمع نائما، وكانت الخيانة، لا تفضي إلا إلى

الطريق المسدود.

الموقع الطبقي لبعطوش، هو الذي يمنع من الخيانة المطلقة أو التردي النهائي. وأولئك الذين يخونون من أجل مصالحهم الطبقية، مندفعين من موقع واحد مع الاستعمار. أولئك، فقط الذين يمكن أن ينحدروا إلى ما لا نهاية له. مصالحهم هي ضمائرهم.

– لا أدري كيف تلتقي الخيانة والوطنية والديمقراطية في شخص واحد.

علقت ثرية على تساؤل جميلة في أول الطريق، عندما غادروا التكميلية، وارتموا في القرية شبه النائمة، فباستثناء، ما كان ينبعث من المقاهي، من ضجيج الحجر والورق، وبعض الصرخات الغاضبة وتسكع بعض الكلاب والقططة، وبعض الأحمرة، تبدو القرية مهجورة منذ زمن بعيد.

– والجدلية أين تضعينها يا ثرية؟ نفي النفي. علم القوانين العامة للحركة، سواء في العالم الخارجي أم في الفكر البشري. اندفاعات داخلية نحو التطور يثيرها التضاد والتصادم، في القوى والاتجاهات التي تعمل في جسم معين أو في حدود ظاهرة معينة، أو في قلب مجتمع معين.

– كفى. كفي من سرد كل ما حفظت علي. هذا كثير، لا يحتمل. تبرير كل شيء بما في ذلك الخيانة.

قالت ثرية محتجة، فبادرتها جميلة:

– وبم نفسر انهيار بطل ثوري ما. طبعا بما يجب أن نفسر به، تدارك متردي ما، بالعلم. النقيض والنقيض، والحاصل منهما، والتدرج الدائم إلى الأعلى وما إلى ذلك.

– تجيدون التبرير، أكثر مما تجيدون اتخاذ المواقف. هذا هو ضعف الكلاسيكيين.

– ما حدث في بلادنا، وما يحدث الآن أيضا. لا يخضع لحركات الأفراد، وإنما لحركة التاريخ، وما حركات الأفراد، إلا ظواهر لحركة المجتمع. وكما أن شعبنا، لم يكن بطلا كله، فإنه لم يكن مترديا كله. والمؤلف كان يرمز بإبطاله، إلى ظواهر، ولم يمجد أويدن، هذا البطل أو ذاك.

وهذه هي الثورة الوطنية.

أضافت جميلة، فعلقت ثرية ساخرة:

– والثورة الشعبية الديمقراطية أيضا.

– نعم.

– لا أدري ما إذا كنت لا أفهمهم أو لا أفهم نفسي.

– لماذا تحاولين باستمرار أن تفصلي نفسك عنا؟

– لأنك أنت تحاولين باستمرار أن تتكلمي كالكتاب. أعطينا المجال قليلا، لنخرج عن الموضوع يا جميلة.

كان الوفد، قد وصل كوخ حمو، بعد أن اقتحم، الأزقة الضيقة المظلمة، التي تنبعث منها روائح عفونة المجاري المكشوفة، والأزبلة والروث، والبهائم من مختلف أنواعها.

فتح حمو، الباب. اقتحموا البهو الصغير غير المغطى. استداروا إلى اليمين. انفتحت غرفة. قابلهم بعطوش، واقفا، على ضوء مصابيح غازية، أنيرت بالمناسبة. استقبلهم بكل احترام. سلم عليهم واحدا واحدا، في حزن وصرامة، ثم تقدمهم، يأمرهم باتخاذ أماكنهم في غرفة نوم حمو التي تحولت إلى قاعة استقبال، كما صادفهم، وبلا تكلف أو تشريفات.

تبعتهم الأضواء. تصدر فوق حصيرة، بثت فوقها حنابل ووسائد متعددة الأشكال والألوان. التف حوله الطلبة والطالبات.

– عظم الله أجركم والبقية في رأسك يا حضرات. الفوج وعدده خمسة وسبعون طالبا وطالبة، كلفني أن أعزيك باسم الجميع، فتقبل منا التعازي.

بادر الشريف، قبل أن ينهي بعطوش، جولة عينيه فيهم، فرد:

– أجرنا وأجركم والبركة فيكم. أنتم، أساس المستقبل. استراح المسكين من عمره.

قال في اقتضاب، كأنما لا يريد الاستغراق في تفاصيل الموت. هذا الموت الذي لا يعنيه سوى هو وحمو، وبعض الأقارب. ثم التفت إلى حمو، سأله محولا الموضوع:

– أين الحركية؟ وأين أمك؟ أين زوجت أخيك؟

خرج حمو، وخاض معركة صغيرة، مع أمه، ومع زوجة زيدان. كانت خوخة شبه مستعدة لاستقبال الضيوف، سرحت شعرها ووضعت على رأسها منديلا أخضر، ارتدت ثوبا عصريا من المخمل العادي، يتكون من قطعتين، ووضعت أساور ذهبية في معصميها، وامتنعت عن أي تزين آخر، فمهما يكن الأمر، فإن سي بعطوش لم يدفن عمه بعد.

أما أم حمو، وزوجة زيدان، فقد وجدتا أنه من العار الكبير، استقبال الغرباء، بمثل هذه الهيئة.

– عيب يا ابني عيب. كان الأمر يهون، لو لم يكن معهم نساء.

– قل لهم إنني مريضة، واكتف بخوخة وبأمك. لا أستطيع أن أدخل عليهم في هذه الهيئة، سي

بعطوش سلمنا عليه والباقي، ها هي خوخة، تكفي.

– يا أمي، إنهن لسن نساء.

– لسن نساء؟ ماذا تقول؟

– إنهن طالبات، عالمات، يقرأن مع ولدنا في العاصمة. يرتدين السراويل والمعاطف، ولا يحملن أية زينة. لقد سبق وأن زرننا يا أمي، إنك تعرفين البعض منهن. جميلة، إنها هنا أيضا.

– المرأة امرأة، ولو كانت تلبس البرنس يا ابني.

أقنعهن أخيرا، بضرورة الدخول والاكتفاء بتحية الضيوف والخروج. دخلتا أخيرا خلف خوخة وحمو. نهض الجميع لتبادل السلام.

– هذه الحركية. خوخة، مجاهدة، أختي، كانت معي في الجبل، تضرب البارود، هؤلاء الطلبة والطالبات، مجاهدون أيضا. نحن حررنا البلاد، وهم يبنون الاشتراكية. هل أعددت قهوة أو شايا للمجاهدين، يا خوخة؟

– القهوة جاهزة. إذا كنتم تفضلون الشاي، فسأعده حالا.

– هات القهوة. تكفي القهوة.

انصرفت خوخة، بينما راح بعطوش يشير إلى أم حمو:

– هذه أيضا مجاهدة. ولدت حمو الفحل. حمو هذا كان رئيس الفدائيين، سبع سنوات كاملة. روع المنطقة، وطوع الصخر، للثورة. وولدت زيدان الشهيد. زيدان الله يرحمه، وطني ولكن وطنيته كانت زائدة عن الحد في ذلكم الوقت.

كان أكثر حمرة من الدم.

الله يرحمه المسكين. هذه زوج زيدان. تأملوها جيدا، فقلما تتاح الفرصة للالتقاء بزوجة شهيد. أم لتسعة، الله يبارك. لقد قرأت حساب تعويض زيدان.

كان بسيطا، في منتهى الشعبية، وفي منتهى الوضوح، والتواضع. ما إن انطلق في الحديث حتى نسي حزنه، ومصابه، في إمكانه – على ما يبدو – أن يتخلى عن مركزه، ويعيد الكرة، في النضال من تحت، منسجما مع نفسه ومع جميع الناس.

– هذا هو بعطوش إذن؟ سأحدث برهما عنه. أطلب منه أن يعيد إليه الاعتبار. لقد جعلنا في الرواية، نتقزز منه، ونصبّ عليه كامل حقدنا، متقززين من الخيانة والانحراف. يا لذلك الماضي.

ماضي العجب العجاب. ماضي المعجزات.

قالت جميلة في نفسها، في حين فكرت ثرية:

– واضح أنه من أنصار الهواري المخلصين. على حد اعتبار جميلة للهواري، كاشتراكي وطني. أو ديموقراطي، أو لست أدري ماذا. لولم يكن متطهرا، لكان الآن في قصر ذي سبعة طوابق. يحيط به ألف حارس. وليس في حي الشيكاغو، وفي كوخ متواضع. لو كنت معه بدل خوخة يومذاك، لتزوجته، ولصنعت منه شي غيفارا الجزائر، اذا ما اختليت به، فسأصارحه. سأقول له إن الاشتراكية، لا تبنى بالتآخي. وأنه لا بد من العنف الثوري، ومن إذابة كل أشكال الحكم البرجوازي، وإقامة سلطة المجالس في كل مكان.

– آه. جاءت القهوة ومعها «الرفيس» أيضا. لا أخاف عليك. قومية زوجة قومي. هل تعرفون الرفيس. هذه حلوانا المفضلة. ومن أين آتاك السمن.

صبت القهوة في الفناجين. دارت الصينية، على كل أفراد الجماعة. تحلق الجميع حول القصعة، باستدعاء حار من بعطوش، انهمك الجميع في الأكل.

– من يدخن معي، الصافي، لعلكم تفضلون التبغ الأمريكي. أنا لا أحب إلا الصافي، أحضرت لكم كمية هامة، هي الآن في السيارة. سأرسلها إليكم فيما بعد. اقتسموها فيما بينكم. وأنتن هل تدخنّ. لا تفرطن في نصيبكن.

ضحكت البنات. كانت الكلفة قد زالت. تجرأت جميلة على مد يدها. تناولت سيجارة أشعلها لها، وراح يتأملها.

– تعالي يا المجاهدة. قربن كلكن. أنظري يا أم زيدان هذه المجاهدة، تأملن جمالها. لقد تركت العاصمة والدفء والراحة، وجاءت إلى هنا، لتتعرض إلى لفح الصقيع، والشمس وسط تعاونيات الثورة الزراعية.

لفت انتباهه جرح، كبير في ذراعها، ملفوف بخرقة من فوطة، ولا يزال ينز بالدم. سألها عن سببه، مكشرا، مستنكرا، وكأنما فهم، أن هناك اعتداء، عنيفا، حصل ضدها، قبل قليل، ولعله أثناء تواجده بالقرية.

تذكر ما رواه له حمو، عن ترديد الربيعي لعبارة الدم، قبل أن يلفظ أنفاسه. لقد أقنعه حمو قبل هذا الوقت، بأن الربيعي، يرى وهو نائم، كل ما يجري في القرية، حتى قبل وقوعه.

ابتسمت جميلة. عمدت إلى أن تبرز أنيابها المفتولة الناصعة البياض. وهمهمت، مغمضة العينين.

– مشاكل طلبة. مشاكل الثورة الزراعية.

* * *

ما أن، شاهدته، يسرع إلى النافذة، ليلقي بنفسه منها غير مبال بزجاجها المتطاير، حتى ركضت إلى الباب. فتحته. لم يخطر ببالها، أن تقتحمه هاربة، مخلفة إياه في القاعة. لم تنتبه إلى ذلك. كانت الأمور تجري سريعا، وكانت قد عولت على خوض المعركة، على المواجهة، الأخيرة، لهذا الخطر الذي ظل يتهددها، وكانت إلى جانب ذلك تأمل أن ينجدها الشيخ مبارك، أو كلبه، أو اللاز. أو أي إنسان آخر.

رفعت الكرسي الحديدي بكلتا يديها، غطت به وجهها، واستعدت لشج رأسه، اذا ما تقدم منها. عضت شفتها السفلى، وراحت تتأهب لملاقاته. قدرت أن خطته، تنحصر في حرق وجهها بالحامض، وأنه ما عدا ذلك ليس له أي هدف آخر.

كان يحمل في يديه قارورتين من البلاستيك، غير مفتوحتين بعد. الدم يسيل من وجهه ويديه، وفخذه، وهو يرتجف، في حين تبرز حدقتا عينيه بروزا مخيفا.

إنها تتذكر الآن، تلك الأبيات التي كانت تحاول أن تتذكرها. إنها من قصيد جميل لسميح القاسم، حفظته، وتغنت به كثيرا لكن خانتها الذاكرة لحظتها، لتهتف به في معركتها الخطيرة.

طمئنوا الغدر المبيت.. أن صوتي ليس يكبت. وعلى موطئ نعلي.. كل صخر يتفتت.. طمئنوا النار الغبية.. أن ناري أبدية.. وعلى حضن رمادي.. تولد الشمس الوفية.. طمئنوا هوج الرياح.. أنها بعض سلاحي. رغمها.. تأتي لحقل ضربته.. باللقاح.. طمئنوا كل مطاول.. أن قتلي، محض باطل.. فأنا باق.. إلى ما شئت.. أحيا، وأقاتل...

إنها تتذكر الآن جيدا القصيد، تلك الاختلاجات التي كانت تختلج في صدرها، وهي تحمل الكرسي الحديدي، مغطاة الوجه بلثام، كأنها فلسطيني، في حال تدريب. وتستعد لهذا الأهوج المسعور الذي يتقدم منها، ليشوه وجهها الجميل.

* * *

تلفتت ثرية، تبحث عنه، فلم تجده. غافلها وانسحب.

انتظرت عودته دقائق، ثم انهمكت في العمل. واثقة من أنه اختلى بفلاح، ليشرح له سورة «والعصر إن الإنسان لفي خسر». فقد بذل جهدا كبيرا، كامل الصباح للسيطرة على أعصابه. ولكي يبدو هادئا منسجما مع دوره، كمقرر للفوج.

حاولت تشجيعه، وتجنب إثارته، قدر الإمكان، خاصة عندما يروح يخلط، بين التعاونية البلدية المتعددة الخدمات، وبين ضرورة أن تدفع الأجر للإمام الذي يصلي بهم، وأن تنشئ لهم كتاتيب تعليم القرآن الكريم.

عاد مع الطريق راكضا على قدميه، دون أن يفكر في وسيلة أخرى للعودة إلى القرية البعيدة بعدا لا يستهان به.

لم يخطر ببال ثرية ولا ببال علوان – الذي ظل يتقرب منها، ويسألها في مضامين الأمر الرئاسي، حتى تلك الواضحة التي لا تستوجب أي شرح أو تفسير – أنّ مصطفى، سيعود، هكذا فجأة إلى القرية. يبدو أنه قرر الصمود وعدم الهروب، والتخلي.

إذا كانت هناك مشاريع مشؤومة في رأسه، فيستطيع تأجيل تنفيذها إلى وقت آخر.

الفوج ليست مهمته محصورة في مكان واحد، وقد يكون مصطفى، مستغرقا في الحديث بحلقة من الفلاحين، سنسأل عنه فيما بعد.

قررا ذلك، في الحين الذي كانت ثرية، تستعد، لاقتحام كوخ أحد الفلاحين للتحدث إلى النساء.

ظل يجري ويجري، لا يفكر إلا في الوصول السريع، واقتحام التكميلية، وتشويه وجه جميلة. سقط مرات عديدة ونهض. لم يكن يهمه أن يسقط أو أن يتعثر، أو أن تخدش الأعواد الجافة، لحمه.

جميلة. جميلة. اليوم تنتهي خرافة جميلة.

الكاهنة كانت على ديانة اليهود. بل كانت مسيحية، عميلة للرومان. الكاهنة كانت ساحرة، يسكن روحها الشياطين.

جندت الوثنيين. سحرتهم وجندتهم. واجهت جيش الله. قتلت منهم وقتلت. عندما وثقت من هزيمتها، وبطلان سحرها، أمام قوة الإسم الأعظم، راحت تحرق البساتين والحقول والغابات، وتوغر الحقد واليأس في صدور الناس.

الساحرة الساحرة.

لولاها، لما ظهر كسيلى، قاتل الإمام عقبة بن نافع. لما وجد الشجاعة الكافية لرفع سيفه على تابع الرسول الأعظم.

سأقطع دابرها.

فلأقطع سحر الساحرة. فليعم نور الله. قالوا مريضة، لا تستطيع الخروج. لكن الملاعين أبقوها لمهام أخطر. ربما هي الآن تنام مع سي منصور. أو مع شيخ البلدية. أو مع إمام المسجد، أو مع قائد وحدة الدرك الوطني، أو مع أي أحد آخر. ما يمنعها؟ ما يمنعهم؟ لا قيم ولا أخلاق، ولا دين. أليسوا هم المزدكيين القرمطيين، العاملين بالرأي القائل الغاية تبرر الوسيلة.

فلأقطع سحر الساحرة. فليعم نور الله.

أبقوها، لتتآمر مع العفريت الأحمر، مدير التكميلية، ضد خططي. سي رضوان لم يرسلني إلى هنا عبثا. يعرف مدى الخطر الأحمر المحدق بهذه المنطقة، ويعرف قدراتي.

لم ينتبه إليه أحد. كانت التكميلية، منزوية، وكانت الدرب التي سلكها، شبه مهجورة. لم ينتبه بدوره لأحد. ولا للوقت الذي استغرقته رحلته.

اقتحم التكميلية. لم يأبه لوجود اللاز ولا لاحتجاجه. ألقى بنفسه من النافذة، عندما وجد الباب مغلقا وهو يؤكد.

– فلأكن وفيا. ليتشوه وجه الكاهنة. ولتكن البساتين والحقول المحرقة، هي وجهها الساحر.

* * *

– أنا مسرور جدا، بهذا الاتصال بكم. إنه اتصال غير رسمي، على كل حال. يجب أن يكون هذا مفهوما. لكن هذا لا يمنعنا من الاطلاع على بعض مشاكلكم، والمساهمة في إيجاد حلول لها. لقد بلغنا. أنكم انقسمتم على أنفسكم، وأن هناك من يحاول استغلال هذا الانقسام.

القيادة السياسية، لن تسمح بهذا على كل حال.

قال بعطوش في هدوء، وهو يحاول أن يستجلي مفعول كلامه في نفس كل فرد. وما إن سكت ليحتسي رشفة قهوة، حتى اغتنم الشريف الفرصة، ليعطي العرض الصحيح عن الموقف.

– نشكر كثيرا القيادة السياسية، على مقاسمتها، لمشاكلنا. ولكن في الحقيقة، ليس هناك مشاكل بأتم معنى الكلمة. إذا أخذنا المسألة من الزاوية التي تتعلق بنا. نحن كمتطوعين. هناك رد فعل طبيعي ضد التطوع، وهو ليس مفصولا، عن رد الفعل، ضد الثورة الزراعية. هذا طبيعي أيضا وليس مفاجئا لنا.

لقد استطعنا، أن نسيطر على الوضع، وهذا بفضل، التحالف، بين جميع أنصار الثورة الزراعية: المجاهدون. الشبيبة. العمال. والمستفيدون بالدرجة الأولى.

– يتهموننا كلنا، حتى الهواري، بأننا شيوعيون، حمر، وبأننا كفرة ملحدون. ونحن لا تخيفنا هذه التهمة. ولا غيرها. الثورة ماضية في طريقها، ولن يوقفها أحد. يريدون، أن يظل استغلال الإنسان للإنسان سائدا، بعد كل هذه السنوات من الاستقلال. وهذا محال.

كان بعطوش، كأنما يواصل كلام الشريف، وكأنما يحاول بذاك إظهار العطف، على جناح معين من هؤلاء المتطوعين، وفي نفس الوقت، يوضح بصفة غير مباشرة الموقف الرسمي.

– ليس هناك خلافات بين الطلبة يا حضرات. كل ما هنالك أن عناصر قليلة، إثنان لا غير، حاولا نسف التطوع، بتحريض من الخارج. خارج الطلبة والجامعات تماما أنا شخصيا، انسقت مع هذه الجماعة، بدافع جعل المعربين أيضا يتطوعون، بعد أن أقنعونا، بأن المفرنسين، هم الذين يستولون أو يحتكرون التطوع. لكن ما أن تبين لي الهدف الحقيقي من العملية، حتى انسحبت، لأنضم إلى باقي الزملاء والزميلات. انتهى المشكل الآن، فقد هربا عائدين من حيث أتيا بعد فشل العملية.

قال إبراهيم في هدوء تام، وفي قناعة كاملة، بما يقول، وكان الشريف يتأمله مسرورا جدا لهذا الموقف الذي لم يكن ينتظره، والذي أبى إلا أن يضمه هو وعلوان وبوزيد إلى الوفد، حتى لا يحرم

هذا التيار، من التعبير، عن نفسه، إن كانت له مخاوف أو تحفظات معينة من التطوع. وحتى يؤكد لهم في نفس الوقت، أن العمل الوحدوي الذي يدعو مع رفاقه إليه، ليس مجرد كلام تاكتيكي بل هو إيمان قوي بهذه الضرورة الثورية والوطنية في المرحلة الحالية.

– لكن ما هو الموقف العملي. الموقف الثوري، من هؤلاء الناس؟ يخيل إلي أننا نحن أنصار الثورة الزراعية وصانعيها، في وضع غير شرعي، وغير ثوري، وأننا نتحايل، على ممارسة العمل الثوري، أمام قوة كبيرة نرهبها. إذا كانت القيادة السياسية، قد اختارت طريقها، فما عليها، إلا أن تعمل على إزالة جميع العقبات منه.

كانت ثريا، تتكلم في شبه احتجاج، بينما ظل بعطوش، يتأملها معجبا، بلمعان عينيها، السوداوين، وبطلاقة لسانها، وثقتها في نفسها، وخاطب نفسه، بأنه في زمن الكفاح المسلح لم يكن بيننا، نساء ولا، حتى رجال من هذا النوع.

كنا نحسن الفعل، بجميع أنواعه، ولا نحسن التعبير عن أنفسنا وعما يجيش فيها.

هل هم منا أم لا؟ في الحق. إنهم نحن. مجحدون. متخلصون من عقد الجهل والفقر واضطهاد العدو المتفوق.

إذا لم نعمل معهم، ولم يعملوا معنا، يدا في يد، انتهينا. أكلتنا الذئاب المحيطة بنا من كل جانب. إذا لم تتح الثورة الفرصة لهؤلاء، ليثبتوا وجودهم الثوري، فسيكونون مشكلا لها.

نتعامل معهم بقدر ما يتعاملون معنا. إنهم يتنازلون عن الشيء الاستراتيجي، عن الأرض. الأراضي البلدية والأراضي العروشية، والملكيات الكبيرة خاصة، متقهقرين، نحو المناورات والمناوشات، وفي وسعنا بالحكمة. بالتحليل الصحيح، لما إذا كانت الرجعية في موقف هجوم أو دفاع، وباليقظة الثورية، أن نهزمها نهائيا. ماذا نريد نحن أكثر من الأرض، يا ثرية. كوني عاقلة.

– إنك تحسنين الحديث. تتحدثين كالهواري تماما. ماذا تدرسين؟

– الحقوق، بالعربية. تخلصت من الفرنسية، وتعلمت اللغة الوطنية.

سأل بعطوش، جميلة مبديا إعجابه، واقتناعه بصواب رأيها، فابتسمت وغمرته بالزرقة والخضرة والنار، وأجابته.

تأملها مرة أخرى، وتذكر أنها لم تجبه عن سؤاله، المتعلق بالدم النازف من ذراعها.

– لماذا تريدين أن تنسيني، في هذا الجرح؟

– جرح بسيط، في حادث بسيط. يجب أن لا ينال اهتمام القيادة السياسية.

قالت، مبتسمة، وهي ترفع ذراعها إلى فوق ثم أغمضت عينيها.

* * *

لم يفتح قارورتي الحامض بعد. لحسن الحظ. فتحهما صعب، وسيضطر، لكي يتمكن من ذلك من استعمال يديه الاثنتين، وإلى الانحناء.

إذ ذاك أهجم عليه، وأشج رأسه بهذا المقعد الحديدي.

انحنى فعلا. وضع قارورة جانبا، وراح يعالج الأخرى بكلتا يديه. بينما عيناه جحظتان. كان بصره مركزا فيها، كالذئب، ولا تدري ما إذا كان يستطيع رؤيتها وسط هذا السعار أم لا.

رفعت الكرسي إلى فوق، وهوت به. استعانت بكل قواها. هرب اللعين. وهو يهتف:

– الله أكبر. الله أكبر.

لم يعد الكرسي الحديدي بين يديها. لقد أفلت منها. فلتا معا. خافت إذ ذاك. اعتراها الذعر. كان قد حال بينها وبين الباب. هربت نحو النافذة المهمشة. أسرع يحول بين يدها وبين النافذة، حز يدها على الزجاج المحطم، فتطاير منها الدم. أسقطها أرضا، وسارع إلى القارورتين. تمكن من فتح إحداهما.

تناهضت بأسرع ما يمكن.

كان ذعر شديد يستولي عليها. كشر عن أنيابه وراح يتقدم منها. لا شك أنه يريد أن يمسك بها، وينزع اللثام عن وجهها، ويصب الحامض، كما يحلو له.

انفتح الباب.

اقتحم اللاز الباب ودخل. شعرت بنوع من الاطمئنان. هتف من أعماقه، وهو يرى الدم المبعثر في كل مكان. فوق الأسرة. فوق المقاعد. فوق بلاط القاعة:

– ما يبقى في الوادي غير حجارة.

زاغت عيناه. اختلطت الصورة في ذهنه.

تراءت له خمس جثث مسجاة. تراءى له زيدان أبوه، يتخبط والسكين تحز قفاه، والدم يتطاير.

سقط على الأرض مغميا عليه.

– قف مكانك. إياك أن تتحرك.

قال الشيخ مبارك. التفت مصطفى. كانت البندقية مصوبة نحوه. قذف بقارورة الحامض نحو جميلة. انحنت. دخل الكلب الألماني ينبح، ليتلقى أمر سيده:

– أهجم طوني.

قفز مصطفى فوق السرير. قذف بنفسه من النافذة المقابلة، غير مبالي بالزجاج. وثب الكلب خلفه.

– لن يفلت الرجعي الشرير. لماذا لم تصرخي فنأتي في الوقت المناسب.

قال وهو يتفحص جميلة، التي حافظت رغم كل شيء، على ثباتها وهدوئها ولثامها. ولم تنس جثة اللاز المنطرحة، على البلاط مصلوبة دائما.

دخل إبراهيم، بوزيد، وثرية، قيل لهم، إن الطالب، المسمى مصطفى شوهد يركض، منذ نصف ساعة نحو القرية، فركبوا جرارا، وطلبوا من السائق، أن يسرع قدر الإمكان.

انكبوا على اللاز، يحملونه إلى السرير. عادت صوفية ابنة المدير، بقارورة عطر، صبتها على وجهه.

فتح عينيه، وهو يرسل شهيقا عميقا. تأملهم مليا، وتساءل مذعورا:

– من أنتم؟ أين أنا؟ لماذا فعلتم ذلك بعمي.. أبي.. زيدان؟

* * *

«أعفي مسؤول جهاز الحزب من مهامه..»

ردد صوت المذيع، في الجهاز الصغير الذي كان بين يدي بعطوش، كان واضحا أن بعطوش لم يفاجأ بالخبر، مثل باقي الحاضرين، خاصة حمو وثرية. فقد انبرى، يعلق، دون أن يتيح الفرصة للمذيع لمواصلة قراءة البلاغ الصادر من الرئاسة.

– أترون؟ الثورة الزراعية، صخرة، سيتحطم عليها قرنا كل رجعي، يحاول أن ينطحها.

الخاتمَة

عم نبأ استيقاظ اللاز، القرية بسرعة فائقة.

كان الدليل اليقين، لمن يعلن استيقاظه، أنه غير ثيابه. نزع القشابية المزيفة بالحرير الأحمر. ارتدى بدلة عصرية أعطاها له الشيخ مبارك. حلق ذقنه. قص حتى شعر رأسه.

زار كوخ زيدان أول ما زار. كان يسلم على سكان القرية، كأنما يلتقي بهم لأول مرة.

كان يسير، ويلتفت حوله، كأنه غريب، يدخل القرية لأول مرة.

وقف في ساحة الشهداء، أكثر من عشر دقائق، تأمل العلم كثيرا، ورفع حاجبيه تعجبا. كأنما يقول: سبحان الله العظيم. أيكون قد حدث هذا بكل هذه السرعة؟.

لم يكن لديه الوقت الكافي ليزور كوخ أمه، خاصة بعد أن أقنعه حمو بكل ما حدث. يقال أنه أجل ذلك إلى ما بعد جنازة الربيعي.

لم يتعرف على سي بعطوش. هذا مؤكد. لعله في حاجة إلى وقت أطول، لتذكر كل تفاصيل الماضي.

كذبت النساء النبأ.

قال بعضهم أنها مجرد سفرة من سفراته، نحو غرب الغرب. وإحدى معجزات سيدنا الكبير. ولدكن فيكن. وواهب الأطفال، للعواقر.

قال بعضهن، إنه مجرد فعل سحر طالبة، لا لون لعينيها، تدعى جميلة. يقال أنها مبحرة في علوم النجوم. تمتطي الاثافي، وتقطع البراري، متنقلة من بلد إلى بلد. لا يتعسر عليها أنزل القمر في قصعة صغيرة، تأخذ منه لبه لتستعمله في سحر العقول وعمى الأعين ثم تعيده إلى مجراه.

على كل حال. لا يلبث سحرها ويزول. فالسيد معصوم. وهذه آية من آياته.

قال بعض الرجال، إنه اصطحب روح الربيعي إلى مثواه، وسيعود.

قال آخرون، هذا ليس اللاز الحقيقي الذي نعرفه. ولا شك أن لازنا، معتكف الآن، في مكان ما، وأن الغريب، الذي يأبى إلا أن يحمل نعش الربيعي على كتفه، وأن ينادي حمو بعمي ما هو إلا أحد أصدقاء سي بعطوش. ولعله مبعوث الهواري، لتمثيله في تشييع الجنازة. لا صلة له بلازنا سوى الشبه في الملامح.

في كل قرية، وفي كل مدينة لاز. ولا يعقل أبدا، أن تبقى قريتنا بلا لاز.

جميلة، وحمو وبعطوش، والشيخ مبارك وبعض الطلبة، يعرفون الحقيقة.

حمو لأنه سمع الربيعي يقول له، اللاز سيعود من خلال الدم، بل إنه قد عاد.

بعطوش. لأنه سمع وصية عمه الربيعي بأذنه، بأن توهب داره للاز.

بعض الطلبة، لأنهم شاهدوا بأم أعينهم، صوفية، تصب قارورة العطر على وجهه.

جميلة لأنها تأكدت من برهما أن اللاز هو الشعب. وأن الشعب هو المستقبل. وأن الإيمان بالمستقبل، هو سلاح كل مناضل ومناضلة.

ولقد همس في أذنها عيسى بوعين، «عندما ينام برهما، ينام العالم كله. وتقوم الدنيا ما دام برهما مستيقظا».

وعندما كان الموكب عائدا من المقبرة، وراح الجميع ينسون بعطوش ومصابه، ويتتبعون اللاز، الذي قرر أن يؤدي زيارة إلى كوخ أمه، ليتفقد الأحوال، أو، على الأقل، ليستعيد ذكراها. أغمضت جميلة عينيها، وراحت تستعيد شعرا لبابلو نيرودا:

وداعا أيها الرفيق الشقي، قاطع الطرق..

الساعة تقترب. نهايتك نيرة تجللها الظلمات.

واضح أنك لا تعرف، مثل النيزك، الطريق التي لاحظ فيها.

ومعروف أنك انحرفت بفعل الغضب المسعور، مثل زوبعة متفردة.

لكنني هنا، أغنيك لأنك قطفت، حبة حبة، عنقود الغضب. والفجر يقترب.

الساعة تقترب، حين لا يبقى مجال في العالم للنزق والغضب.

ولن يكون وعدك شبحا خفيا، يا زيدان والد اللاز.

شنوة الشاطئ في فاتح أوت 1978

الطاهر وطار

Table of Contents

العشق والموت في الزمن الحراشي
العشق والموت في الزمن الحراشي-1
العشق والموت في الزمن الحراشي-2
العشق والموت في الزمن الحراشي-3
العشق والموت في الزمن الحراشي-4
العشق والموت في الزمن الحراشي-5
العشق والموت في الزمن الحراشي-6
العشق والموت في الزمن الحراشي-7
العشق والموت في الزمن الحراشي-8
العشق والموت في الزمن الحراشي-9
العشق والموت في الزمن الحراشي-10
العشق والموت في الزمن الحراشي-11
العشق والموت في الزمن الحراشي-12
العشق والموت في الزمن الحراشي-13
العشق والموت في الزمن الحراشي-14
العشق والموت في الزمن الحراشي-15
العشق والموت في الزمن الحراشي-16
العشق والموت في الزمن الحراشي-17
العشق والموت في الزمن الحراشي-18
العشق والموت في الزمن الحراشي-19
العشق والموت في الزمن الحراشي-20
العشق والموت في الزمن الحراشي-21
العشق والموت في الزمن الحراشي-22
العشق والموت في الزمن الحراشي-23
العشق والموت في الزمن الحراشي-24
العشق والموت في الزمن الحراشي-25
العشق والموت في الزمن الحراشي-26
العشق والموت في الزمن الحراشي-27
العشق والموت في الزمن الحراشي-28
العشق والموت في الزمن الحراشي-29
العشق والموت في الزمن الحراشي-30
العشق والموت في الزمن الحراشي-31
العشق والموت في الزمن الحراشي-32
العشق والموت في الزمن الحراشي-33